مَوْسُوعَةُ فَوَائِدِ القُرآن الزكِيَّة

سُورَةُ الكَهفِ

أ.د خالد بن حامد الحازمي

أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً

موسوعة فوائد

القرآن الزكية

سورة الكهف

أ.د. خالد بن حامد الحازمي

أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً

فوائد سورة الكهف

﴿ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾

﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ ۝١ قَيِّمٗا لِّيُنذِرَ بَأۡسٗا شَدِيدٗا مِّن لَّدُنۡهُ
وَيُبَشِّرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ أَجۡرًا حَسَنٗا ۝٢ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدٗا ۝٣
وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗا ۝٤ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٖ وَلَا لِأٓبَآئِهِمۡۚ كَبُرَتۡ كَلِمَةٗ
تَخۡرُجُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبٗا ۝٥ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ
بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا ۝٦ إِنَّا جَعَلۡنَا مَا عَلَى ٱلۡأَرۡضِ زِينَةٗ لَّهَا لِنَبۡلُوَهُمۡ أَيُّهُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗا ۝٧
وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيۡهَا صَعِيدٗا جُرُزًا ۝٨ ﴾

افتتح الله سبحانه وتعالى سورة الكهف بالحمد، بمثل ما افتُتِحَت به سورة الأنعام ﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ﴾ الذي أفاد تخصيص الشكر والثناء الكامل لله تعالى، وأفاد لفظ الجلالة ﴿ لِلَّهِ ﴾ بعد الحمد تقرير الألوهية لله سبحانه وتعالى، وكذلك تقرير صرف العبادة له سبحانه وتعالى، والتي منها الحمد. بل وحصر حمد العبادة والشكر على النعمة له عَزَّ وجل. وفي صرف الحمد له جَلَّ جلاله من عباه هو اعتراف من العبد لربه بربوبيته وألوهيته، وتوحيده بالعبادة. وقد ثبتت له الربوبية والعبودية والألوهية لا شريك له، وأن حمد العبادة يجب ألا يكون إلا لله عَزَّ وجل، وفي هذا مدح لربنا تبارك وتعالى بما هو حق له جَلّ في علاه.

وارتبط الحمد في الآية الكريمة بنعمة نزول القرآن العظيم على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَا ﴾ وفي ذلك تنبيه للعباد على عظيم نعمة إنزال القرآن الكريم، وأنها نعمة عظيمة جليلة، فعضوا عليها بالعناية من كل وجه، وكذلك فيها إشادة بنعمة من أُنزل عليه القرآن، وهو رسوله، نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، فإن إرسال هذا الرسول عليه الصلاة والسلام نعمة عظيمة، بما كَمَّلَهُ اللهُ تعالى به من الكمال في إيمانه وعبادته وأخلاقه، وسنته، ورحمته بأمته، وشفقته وعنايته بهم صلى الله عليه وسلم.

ووصف سبحانه وتعالى كتابه العظيم بصفتين، الأولى: نفي العوج عنه ﴿ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ﴾ وهو الاختلال والاختلاف، بما يثبت نقيضه، وهو الاستقامة، ليعطي دلالة عظيمة على أن هذا القرآن الكريم، قد انتفى منه الخطأ والاختلال والاختلاف، بما يدل على دقته وكمال إعجازه وصوابه وحجته وبيانه وأحكامه، وأن ليس في أحكامه ظلم ولا حيف ولا شطط، بل كمال العدل في كل أمر وشأن. كما أن قصصه وأخباره وأمثاله ومواعظه خالية من الزيف والكذب، ليثبت بذلك أنه صدق وحقيقة، وأن هذا الكتاب لا يدعو لمنكرات الأخلاق، بل يدعو إلى مكارم الأخلاق، وتمامها وكمالها.

ومن دقائق وفوائد البيان أن نفي عَزَّ وجل العوج عن القرآن الكريم، كما أورده عاماً وقاطعاً ﴿ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ﴾ ليشمل نفي العوج عن مضمونه، وعن بيانه، وألفاظه، وأحكامه، وتشريعه، ودلالاته. كما تَشَرَّف الإنزال بنسبته إلى الله تعالى ﴿ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ ﴾ وذُكِر نبينا محمد صلى الله عليه وسلم بصفة العبودية، والتي تفيد وتبين التزكية له عليه الصلاة والسلام بكمال عبادته لله تعالى، وطاعته لربه جَلَّ في علاه، وذكر سبحانه وتعالى القرآن باسم الجنس ﴿ ٱلۡكِتَٰبَ ﴾ ليفيد أنه إذا أُطلق الكتاب فلا يُقصد به إلا القرآن الكريم من بين سائر الكتب المنزلة، فأصبح اسم علم للقرآن العظيم. وفيه إثبات نزول القرآن من الله تعالى على عبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم. وفيه تزكية للكتاب بأنه من عند الله تعالى.

والصفة الثانية للقرآن الكريم، هي: صفة ثبوت الاستقامة ﴿ قَيِّمٗا ﴾ أي: مستقيماً لا عوج فيه، قال الشوكاني رحمه الله تعالى: القيم: المستقيم الذي لا ميل فيه، أو القيم بمصالح العباد الدينية والدنيوية، أو القيم على ما قبله من الكتب السماوية، مهيمناً عليها[١] وبلا شك أن القرآن الكريم متضمن لجميع تلك الدلالات، فهو مستقيم لا ميل فيه ولا شطط، وقائم بمصالح العباد الدينية والدنيوية، وهو قائم على ما سبقه من الكتب السماوية، ومهيمن عليها. مما يدل على بلاغة دلالة اللفظة للمعنى والمقصد في القرآن الكريم، وسعة استيعابها لمرادها بكل قوة واقتدار، وهذه من قوة بلاغة القرآن الكريم وإعجازه البلاغي، والمتظافر مع أوجه إعجازه في كل وجه وشأن.

ثم أوضح تبارك وتعالى أعظم المقاصد لهذا القرآن الكريم، وهما مقصدان عظيمان جليلان، الأول: ﴿ لِّيُنذِرَ بَأۡسٗا شَدِيدٗا مِّن لَّدُنۡهُ ﴾ لينذر الناس عذاباً شديداً من عنده سبحانه وتعالى، والمقصود به: هو من كفر ولم يؤمن، لأن البشارة التي بعده وردت للمؤمنين. والإنذار يفيد التحذير، مما يبين أن الإنسان هو الذي يختار سبيل الكفر أو سبيل الرشاد. وورد التحذير بأقوى الوصف ﴿ لِّيُنذِرَ بَأۡسٗا شَدِيدٗا مِّن لَّدُنۡهُ ﴾ فالبأس

---

(١) الشوكاني، فتح القدير (٣/٢٦٩)

هو العذاب، بل وصف هذا العذاب بالشدة ﴿بَأۡسٗا شَدِيدٗا﴾ وبين مصدره، ومصدر قوته، بأنه من عنده سبحانه وتعالى ﴿مِّن لَّدُنۡهُ﴾ ليفيد شدته، وصدق شدته، وصدق وقوعه، وصدق التحذير منه، لأن وعد الله تعالى صدق لا ريب ولا شك فيه.

ومن جميل البيان ودقته أنه تم حذف الْمُنْذَرين به، ليشمل الناس عموماً بالعلم به، والحذر من الكفر، وعلى الخصوص من كفر به، تهديداً وإنذاراً، لأن الإنسان هو المعني به، وذلك لما اختاره لنفسه من الاتباع أو العصيان. وأما المقصد الثاني للقرآن الكريم فهو: ﴿وَيُبَشِّرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ أَجۡرًا حَسَنٗا﴾ فالبشارة للذين صدَّقوا به، وبمن أنزله، وهو الله سبحانه وتعالى، وبمن أُنزِل عليه وهو رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، وبجميع أركان الإيمان. وجمعوا لإيمانهم العمل بالأعمال الصالحات التي أوجبها تبارك وتعالى في كتابه الكريم، وفي سنة نبيه صلى الله عليه وسلم، بأن لهم مقابل إيمانهم وما عملوه من الصالحات ﴿أَنَّ لَهُمۡ أَجۡرًا حَسَنٗا﴾ أي: ثواباً مقيماً، قد اتصف بالحسن الجميل، وهو دخول الجنة ﴿مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدٗا﴾ فلا يفارقون هذا النعيم أبداً، ولا نهاية له حتماً وقطعاً. والبشارة من الله تعالى وعد متحقق بجميل الخاتمة للمؤمنين من الدنيا، وبجميل ما يلقاه المؤمن في الآخرة، فيحمل رسالة الطمأنينة للمؤمنين الذين عملوا الصالحات.

وقد أفاد قوله تعالى ﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ العلاقة الترابطية والمتلازمة بين الإيمان وبين العمل بالطاعة لله تعالى وفق ما شرع. فالذين آمنوا بتصديقهم بالله تعالى وبرسوله وبما قررته شريعة الله تعالى، وعملوا الصالحات التي هي القيام بما أوجب الله تعالى من العبادات الشاملة لجميع ما أمر الله تعالى به من الفرائض وغيرها من السنن والمستحبات. فإنه بذلك يتعاضد الإيمان مع عمل الصالحات، فيشتركان في الطاعة ولامتثال بها. وسمَّى اللهُ سبحانه وتعالى أعمال دينه بالصالحات، لأن جميع الأعمال التي أمر الله تعالى بها قد اتصفت بتحقيق الصلاح والإصلاح في النفس، ومع الله تعالى، ومع الغير. وتستوفي جميع أوامره عَزَّ وجل، وفي هذا تقرير بأن منهج الله تعالى قد انتفى منه وعنه الباطل، وثبت صلاح ما فيه للفرد والمجتمع في الدنيا والآخرة، فهي جملة غاية في كمال دلالتها، وبلاغة مضمونها، وجزالة ألفاظها ﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ فقد حوت منهج الله تعالى بكامله. وهذا البيان يستحث المؤمنين على لزوم الطاعة، والمسارعة إلى جميع ما يحبه الله تعالى ويرضاه. وهو فضل عظيم من الله سبحانه وتعالى لأهل طاعته. كما يستحث الكفار على المسابقة إلى الدخول في الإسلام، والامتثال لدين الله تعالى، الذي أنزله على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم.

ثم بعد الإنذار العام في قوله تعالى ﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ﴾ يخص الذين افتروا على الله تعالى الكذب والبهتان بأن نسبوا لله تعالى الولد ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾ فقد قالت اليهود، عزير ابن الله، وقالت النصارى المسيح ابن الله، وقال بعض المشركين: الملائكة بنات الله تعالى، فهذا انذار لهم مما قالوا على الله تعالى، افتراء على مقامه وجلاله سبحانه وتعالى. مما يبين الحذر من هذا المسلك، والترهيب منه، كما يكشف عن جرأة الإنسان، وأنه يحصل منه الانحراف إلى درجة الافتراء على خالقه عَزَّ وجل بما لا يليق بمقامه وعظمته وجلاله. فمن تجرأ وافترى على الله كذباً فلا يمنع عنه أن يفتري على من هم دونه.

ومن قوة التهديد والتحذير وشدة الجرم أن الله تعالى أورد التحذير دون بيان لنوع العقوبة ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾ ليدل على شدة العقوبة وقوتها. كما أن ما سبقها يغني عن الإعادة، وهو قوله عَزَّ وجل ﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ﴾ بما يدل على أن عذابهم هو عذاب من كفر، مما يدل على أن هذا القول هو كفر. قال الإمام الشوكاني رحمه الله تعالى: فذكر سبحانه وتعالى أولاً: قضية كلية، وهي إنذار عموم الكفار، ثم عطف عليها قضية خاصة، هي بعض جزئيات تلك الكلية، تنبيهاً على كونها أعظم جزئيات تلك الكلية، فأفادت أن نسبة الولد إلى الله سبحانه وتعالى أقبح أنواع الكفر[١] وأنها وجه من أوجه الكفر.

وهذا التحذير هو من رحمة الله تعالى بعباده، ليعلمهم، ويحذرهم، بل ويبشر من أطاعه وفق منهجه الذي بينه سبحانه وتعالى في كتابه وعلى لسان رسوله نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، بأن لهم الجنة والسعادة الأبدية التي لا نهاية لها. ومن دقائق الألفاظ: تعميم نوع الولد المنسوب إلى لله تعالى، ليشمل الذكر والأنثى، لأن كلمة الولد في قوله تعالى ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾ تشمل البنين والبنات، فتشمل ما قاله بعض المشركين عن الملائكة: أنهم بنات الله، وما قاله اليهود والنصارى من نسبتهم الابن لله تعالى، فتعالى الله وتنزه عما قالوا علواً كبيرا.

ثم يبين سبحانه وتعالى أن هذا الافتراء ليس لهم فيه علم ولا دليل ﴿مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ ليس عند هؤلاء المفترين الكذب على الله تعالى بالولد أي شيء من العلم، فنفى عنهم العلم ﴿مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ﴾ ليثبت ما هو ضده، وهو الجهل، واصطناع الكذب على الله تعالى بالافتراء عليه جَلَّ جلاله، ثم يؤكد ذلك بنفي العلم حتى من آبائهم ﴿مَّا

(١) الشوكاني، فتح القدير (٢٦٩/٣)

لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٖ وَلَا لِأٓبَآئِهِمۡۚ ﴾ فحتى أسلافهم الذين قلدوهم فإنه منتفي عنهم العلم، فتحقق فيهم الجهل والافتراء على الله تعالى. مما يفيد أن الأبناء قلدوا الآباء فيما ورثوه عنهم من الضلال والكفر والافتراء على الله تعالى بغير علم، فتوارثوا الضلالة. مما يُعلم الإنسان ويحذره من كل مورث بلا علم وحقيقة. ومما يؤكد أن هذا الدين هو دين العلم والدليل والحقائق، وأنه يحارب الجهل والضلال، ويهدي إلى صراط الله المستقيم.

ومن دقائق البيان إضافة ﴿مِنۡ﴾ في قوله تعالى ﴿مَّا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٖ وَلَا لِأٓبَآئِهِمۡۚ ﴾ والتي أفادت التبعيض، أي: ليس لديهم أدنى درجات العلم فيما قالوا. إذ كان بالإمكان الاستغناء عن ﴿مِنۡ﴾ ما لهم به علم. ولكن في زيادتها زيادة في المبنى، وزيادة في المعنى، لتعطي دلالة عظيمة في المقصد. وهذا من إعجاز البيان في القرآن الكريم.

ثم يُعظمِ الله تعالى شناعة ما نسبوه إليه من الولد ﴿كَبُرَتۡ كَلِمَةٗ تَخۡرُجُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبٗا ﴾ فعظمة مقالتهم، وكبرت تلك الكلمة السيئة التي خرجت من أفواههم، وتعاظمت، بما لا يليق بجناب الله تعالى وعظمته، والتي هي ﴿قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗا ﴾ وكلمة ﴿كَبُرَتۡ ﴾ تفيد التعاظم، فهي متعاظمة، أي تعاظم هذه الكلمة. وفي هذا استعظام وتهويل لذلك القول الذي حصل منهم حتى عينه سبحانه وتعالى بأن تلك الكلمة ﴿تَخۡرُجُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡۚ ﴾ وفي هذا التحديد والتعين ما يفيد تشنيع تفوههم بها، وجرأتهم على الله تعالى بما ليس لهم به علم إلا محض الافتراء. وأن هذا اللفظ الذي يخرج منهم هو من بين ما أنعم الله تعالى به عليهم من اللسان والفم. فإنها دقة في تحرير البيان والوصف والمقصد من كل لفظة مذكورة في القرآن العظيم.

ثم أكد تبارك وتعالى قُبح ما قالوا ﴿إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبٗا ﴾ فإن قولهم كذباً محضاً، فما هو إلا بهتان مبين. وقد ابتدأ الوصف الكريم لكذبهم بحرف ﴿إِن ﴾ الذي أفاد النفي، الذي ينفي الصدق فيما قالوا، ثم بالفعل المضارع ﴿يَقُولُونَ ﴾ الذي يمثل زمن المتكلم، بأنهم مستمرون غير متناهون عن قولهم، ثم بأداة الاستثناء ﴿إِلَّا ﴾ ليفيد حصر الكذب فيما قالوا: بأن لله تعالى ولد. فسبحان الله عما قالوا علواً كبيراً، وتنزه عن الولد وعن كل ما لا يليق بمقامه وجلاله وعظمته وكبريائه.

ثم يوجه تبارك وتعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بأن لا يحزن على تعنتهم وعنادهم وتطاولهم وافترائهم على الله تعالى الكذب، وعدم إيمانهم ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ

أَسَفًا ﴾ فلعلك من حرصك عليهم أنك مهلك نفسك من أجل إسلامهم. مما يبين ويكشف حال النبي عليه الصلاة والسلام تجاه من يدعوهم، بأنه كان عليه الصلاة والسلام حريص على إسلامهم، وإخراجهم من الظلمات إلى النور، ويفرح بمن أسلم، ويحزن على من أعرض، لشدة حرصه على الناس بالخير العظيم الذي يحمله لهم.

وقد بدأ التوجيه الكريم من الله تعالى بكلمة ﴿ فَلَعَلَّكَ ﴾ والتي تعني الإشفاق على النبي صلى الله عليه وسلم من شدة حرصه على إسلامهم، فأعطت دلالة النهي بأسلوب الإشفاق عن أن يحصل منك إجهاد نفسك ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ ﴾ والبخع: الإجهاد، قال الإمام القرطبي رحمه الله تعالى: باخع: أي: مهلك وقاتل[١] بأن لا تُهلك وتُجهِد وتشغل نفسك بالتأسف والهم والغم على من لم يؤمن بالقرآن وبرسالتك من هؤلاء المكذبين. ومن جميل الدلالات ما ذكره ابن الجوزي عن ابن الأنباري رحمهم الله تعالى أن ﴿ فَلَعَلَّكَ ﴾ إنما هي مقدرة تقدير الاستفهام الذي يعني به التقرير، فالمعنى: هل أنت قاتل نفسك؟ لا ينبغي أن يطول أساك على إعراضهم[٢] فلا تكترث بهم، ولا تشغل نفسك بمن تولى، مما يفيد الداعية إلى الله تعالى بأن يحرص في دعوته واجتهاده، ولكن لا ينزعج إلى درجة إجهاد النفس بالغم والهم على من أبى وامتنع عن الحق.

بل ومن شدة حرصه صلى الله عليه وسلم أن الوصف له ولحاله عليه الصلاة والسلام أظهر أنه كان يتابع دعوتهم دون كلل أو ملل، ولكأنه يتتبع آثارهم ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ ﴾ أي على إثر توليهم وإعراضهم عن دينك ﴿إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ إن لم يصدقوا بهذا القرآن ويؤمنوا برسالتك، فتحزن على ذلك وتأسف ﴿أَسَفًا ﴾ ويدل الأسف على الحزن عليهم، والندم، والجزع، ولذلك سبقه وصف حالته عليه الصلاة والسلام تجاه امتناع قومه عن الإسلام ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ ﴾ قال الزجاج رحمه الله تعالى: الأسف: المبالغة في الحزن[٣] مما يبين محبة الخير في هذا النبي للناس أجمعين، وأنه كان مُجهد نفسه صلى الله عليه وسلم من أجل دعوة الناس للخير، وشدة حرصه على إخراجهم من الكفر وظلمته إلى الإسلام ونوره، لما يعرف عليه الصلاة والسلام من عاقبة الكفر. ولكن لعلم الله تعالى بما

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٢٣٠/١٠)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٧٣/٥-٧٤)

(٣) المرجع السابق (٧٤/٥)

سيكون من كل أحد من الخلق فإنه يُعَلِّم نبيه عليه الصلاة والسلام بأن الذي عليه هو بذل الجهد بما يستطيع، وألا يتحسر على من كفر، فذاك اختياره لنفسه، بعد أن اتضح وبان له الحق والخير.

ثم يخبر الله تعالى بأن هذه الدنيا دار ابتلاء واختبار لهذا الإنسان ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ فإن الله تعالى جعل جميع ما على الأرض جمالاً لها، فتتزين الأرض بما عليها من الزينة، وفي خلق وإيجاد هذه الزينة دلالة على حكمة الخالق سبحانه وتعالى. وقد نسب تبارك وتعالى خلق زينة للأرض له عَزَّ وجل، فهو الخالق الموجد لها ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا ﴾ وأن ما على الأرض من الزينة هو لها، فقد نسب الزينة تبارك وتعالى لها ﴿ زِينَةً لَّهَا ﴾ أي: للأرض، وأن حظ الإنسان منها هو الاختبار والتمحيص ﴿ لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ ليظهر من تغريه الدنيا عن طاعة ربه، ومن لا تلهيه عن الاتباع والامتثال. فيظهر المسيء من المصلح في عمله، والمغرور بزينة الدنيا، ومن يستخدمها من أجل الآخرة، ويظهر من تستقطبه وتجذبه هذه الزينة، وتشغله عن طاعة الله تعالى. مما يبين أن الدنيا وما فيها من متاع وزينة هو ابتلاء وتمحيص واختبار لهذا الإنسان، حتى يظهر المطيع من العاصي، والمصلح من المفسد، ومن يستحق الجنة، ومن يستحق النار، عدلٌ من الله تعالى.

ثم يبين الله تعالى نهاية هذه الأرض، وهذه الدنيا، وما عليها من الزينة ﴿ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴾ فإن الله تعالى جاعل ومُسيِّر جميع ما هو على الأرض من تلك الزينة ﴿ صَعِيدًا ﴾ أرضاً، موصوفة بأنها ﴿ جُرُزًا ﴾ لا نبات فيها، ولا ينبت شيء فيها، فتكون الأرض مستوية ومستقيمة جرداء، بما يشير إلى يوم القيامة. مما يشير إلى زوال الدنيا وفنائها، وفناء زينتها ولذائذها، فإن هذه هي حقيقة الدنيا، قد أوضحها جَلَّ جلاله لعباده، حتى يكونوا على بينة من أمرهم. فالعاقل لا يغتر بالدنيا وزينتها، فقد نسب الله تعالى الزينة لها ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا ﴾ وأما علاقة الإنسان بها، فهي علاقة اختبار وابتلاء ﴿ لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ ليحصل على النتيجة عند الله تعالى، إما جنة أو نار، ونعوذ بالله تعالى من النار، اللهم أدخلنا الجنة مع الأبرار بفضلك وكرمك يا عزيز يا غفار.

﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى

ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدًا ﴿١٢﴾ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُواْ فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓاْ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾ ﴾

ينتقل السياق الكريم إلى قصة أصحاب الكهف العجيبة والعظيمة في بيانها لقدرة الله تعالى، والمجلية لحقيقة البعث بعد الموت، وأن ليس في البعث تعاظم على قدرة الله تعالى، بل هو عليه هين سهل عَزَّ وجل ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُواْ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴾ وقد توجه الخطاب إلى النبي صلى الله عليه وسلم، بصيغة السؤال ﴿ أَمْ حَسِبْتَ ﴾ وهو نفي غرابة قصة أصحاب الكهف لأنها آية من آيات الله تعالى، فلا غرابة فيها، لعظيم قدرة الله تعالى، وهي واحدة من آيات الله تعالى، وقد وردت بأسلوب النفي، بصيغة الاستفهام، فالسؤال استفهامي تعجبي لمن استغرب تلك القدرة الربانية العظيمة ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُواْ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴾ قال السعدي رحمه الله تعالى: وليس المراد بهذا النفي أن تكون قصة أصحاب الكهف من العجائب، بل هي من آيات الله العجيبة، وإنما المراد أن جنسها كثير جداً، فالوقوف معها وحدها في مقام العجب والاستغراب نقص في العلم والعقل، بل وظيفة المؤمن التفكير بجميع آيات الله التي دعا الله العباد إلى التفكير فيها، فإنها مفتاح الإيمان، وطريق العلم والإيقان[١] وإن آية أصحاب الكهف والرقيم كانت آية واحدة عجيبة من آياتنا الكثيرة الدالة على قدرة ربكم سبحانه وتعالى. لأن آيات الله تعالى لا حصر لها. فإنها في الآفاق وفي الأنفس، فيتأكد ويتبين بها عظمة الله تعالى، وعظمة قدرته جَلَّ جلاله. فإن ما خلق الله تعالى من الكون هو أعجب من شأن أصحاب الكهف. قال ابن عباس رضي الله عنهما: الذي أتيتك من العلم والسنة والكتاب أفضل من شأن أصحاب الكهف والرقيم[٢] لا تحسباً قصة أصحاب الكهف منفردة بالعجب،

(١) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (١٤٣/٣)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٥٦/١٥-١٥٧)

فجميع آياتنا محل عجب، بل هناك في آياتنا ما هو أعظم في التعجب من ذلك، ففي ما ترون من آيات الله تعالى ما هو أعظم عجباً.

وقد سمى الله تعالى أهلها بالمكان الذي كانوا فيه، وهو الكهف ﴿أَصۡحَٰبَ ٱلۡكَهۡفِ وَٱلرَّقِيمِ﴾ والكهف هو الفتحة الواسعة في الجبل، وهي أوسع من الغار. وأما الرقيم فهو يحمل عدداً من الدلالات، ذكرها الإمام ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: أنها اسم قرية أو واد، وأنه قريب من إيلية، دون فلسطين، وقيل: الجبل الذي فيه الكهف، وقيل لوح أو حجر كُتِب فيه أسماء أصحاب الكهف. والرقم الكتابة، ويقال: رقمت كذا وكذا، إذا كتبته، ومنه قيل للرقم في الثوب: رقم، لأنه الخط الذي يعرف به ثمنه[١] ولعل في عطف الرقيم على الكهف ما يدل على أنه وصف وعلامة أخرى أضيفت له، خاصة وأن دلالة كلمة رقيم تعني: مكتوب، بأن المقصود به هو كتابة أسمائهم في لوح من الحجر أو على صخرة عند الكهف. وهو ما رجحه ابن جرير، وابن كثير. قال الإمام ابن كثير رحمه الله تعالى بعد سرد الأقوال في ذلك: وقال ابن عباس: الرقيم: الكتاب، وقال سعيد بن جبير: الرقيم لوح من حجارة، كتبوا فيه قصص أصحاب الكهف، ثم وضعوه على باب الكهف، وقال عبدالرحمن بن زيد بن أسلم: الرقيم الكتاب، ثم قرأ ﴿كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ ٩﴾ وهذا هو الظاهر من الآية، وهو اختيار ابن جرير[٢] ولم يعين سبحانه وتعالى مكان الكهف، وفي أي البلاد هو، لأن مصلحة المخاطب في معرفة القصة التي أظهرت قدرة الله تعالى، وأظهرت وبينت إيمان أولئك الفتية، وهي مركز ومرتكز القصة، ولا فائدة للمخاطب في تعيين مكانها، إذ لا حاجة له فيها.

فلم يكن حال أهل الكهف من مجموع دلائل قدرة الله تعالى وآياته قد انفردت بالإعجاب ومحل العجب، لأن هناك ما هو أعجب منها لمن تأمل آيات الله تعالى في الآفاق وفي الأنفس ﴿أَمۡ حَسِبۡتَ أَنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡكَهۡفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُواْ مِنۡ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا﴾ فهناك السماوات والأرض، وتعاقب الليل والنهار، والشمس والقمر والنجوم، وتدفق الأنهار، وسعة المحيطات والبحار، وتعدد اللغات واللهجات، وتفاوت الناس في الطول والقصر، وآية النوم والاستيقاظ، والحياة والموت بعد الحياة. وموت الأرض بعد حياتها بالزروع، ثم حياتها بعد موتها وجفافها. مما يبين أن من تأمل آيات الله تعالى أنارت له دروب الخير، وعمَّقت إيمانه، اللهم وفقنا لتدبر آياتك، وزدنا بها إيماناً ويقيناً وأجراً عظيماً، ومنزلة عندك رفيعة.

---

(١) المرجع السابق (١٥/١٥٧-١٦١)

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣/٧٧)

فبعد هذا التنويه العظيم بقصة أصحاب الكهف، يتدرج البيان الكريم إلى تفاصيل مجرياتها، وهم فتية هربوا بدينهم من قومهم، حتى لا يفتنهم الجاحدون، فلجأوا إلى كهف في جبل ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُواْ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ فاذكر أيها النبي صلى الله عليه وسلم للسائلين لك عن قصة أصحاب الكهف، خبر أصحاب الكهف حين نزلوا ذلك الكهف ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾ حين التجأ الفتية إلى الكهف، فصاروا إليه، وجعلوه مأواهم، يتحصنون ويتحرزون فيه من فتنة قومهم لهم. وأفادت كلمة ﴿ٱلْفِتْيَةُ﴾ أنهم في مطلع مرحلة الشباب، وأنهم ليسوا بكثير العدد، لأن كلمة فتية جمع قلة، فأفادت أنهم ليسوا بكثير العدد. مما يدل على أن الشباب أكثر قدرة على تحمل المشاق، وأن الدين إذا تمسك به الشاب فإنه يجعل منه قوة تتحمل المصاعب والمشاق من أجله. ويدل على أهمية الفرار بالدين من الفتنة، وترك المكان الذي يُفتن فيه الإنسان عند دينه، وأن على من يعيش في مكان يقيم فيه دينه فعليه أن يحمد الله تعالى. مما يدل على أن الدين هو أغلى ما يملك الإنسان، وأنه هو نجاته في الدنيا والآخرة. وذكر الإمام القرطبي رحمه الله تعالى أوجه العزلة: بأنه حسب أحوال الناس: فقد تكون في كهف لمن له القدرة على سكناها، وربما تكون في بيته، أخف وأسهل. وربما رجل متوسط بينهما، فيكون له من القوة ما يصبر بها على أذى مخالطة الناس وأذاهم، فهو معهم في الظاهر، ومخالف لهم في الباطن[١]

وقد استعان أصحاب الكهف بربهم، ولم يتكلوا على قدرتهم وقوتهم ﴿فَقَالُواْ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ فقد استعانوا بالله تعالى، طلباً منه عَزَّ وجل أن يعينهم، فإن جميعهم سألوا ودعوا الله تعالى ﴿فَقَالُواْ﴾ بما يفيد جميع الفتية، إضافة إلى بقية السياق الذي ارتبط بضمير الجمع ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾ فتضرعوا لله تعالى بدعوتين شاملتين لمرادهم، ومحققة لأهدافهم، الأولى: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾ يا ربنا هب لنا من عندك رحمة ترحمنا بها، فتسترنا بها عن قومنا، وتثبتنا بها، فابتهلوا إلى الله تعالى، مستنجدين برحمته. فهو مطلب جامع لكل خير، ومحفوف بالتيسير الذي لا مشقة فيه، والذي عاقبته كلها خير، وهي دعوة عامة. وأما الدعوة الثانية فهي أخص: ﴿وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ أي: يسر لنا وسهل ما يمتنع معه العسر والمشقة، فيكون أمرهم صواباً وسهلا لا مشقة فيه. والذي عنوه من أمرهم: ما هم عليه من

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٠/٢٣٥)

الدين، وتركهم قومهم ومساكنهم، وانعزالهم عن فتنتهم لهم في دينهم، فطلبوا الرشد ﴿وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ وهو الاستقامة، وإصابة الحق، بالاهتداء إلى الطريق المستقيم والثبات عليه.

ثم يبين الله تعالى استجابته لدعائهم، وإعانته لهم بطريقة لم تخطر ببالهم، ولا ببال غيرهم، ليتبين عظمة حكمة الله تعالى وقدرته، مما يبين للعبد أن عليه أن يدعو ربَّه ويفوض أمره وشأنه إليه عَزَّ وجل، فإنه حكيم قدير، ومعين رحيم ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾ لقد عالج الله تعالى أمرهم بأن أنامهم نوماً طويلاً عميقاً، وبين سبحانه وتعالى عمق تدبيره بقوة بيانه، فقال جَلَّ مَنْ قائل ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ﴾ والضرب يعطي دلالة قوة الالتصاق، أي: التصاقهم بالنوم، الذي أفادت دلالته شدة عمق ذلك النوم، لأن الضرب يعني: قوة الإلصاق والالتصاق، فقولنا ضرب فلان بيده على الشيء، أي: ألصقها بشدة، فقد غشاهم الله تعالى بالنوم الشديد في عمقه وقوة تأثيره، حتى صاروا في سبات عميق، فلا يَحُسُّون بشيء مما حولهم، مما يدل على قوة قدرة الله تعالى، ومفاجأتهم بنوع المعالجة لطلبهم، كما يكشف لهم ولغيرهم نوع وعمق هذه المعالجة لطلبهم ورجائهم عن قوة تضرعهم وابتهالهم إلى الله تعالى، فقد استنجدوا بالله العظيم، فجاءت النجاة لهم عظيمة في نوعها وهيئتها، مما يبين أنه مهما تكالبت الخطوب فإن الله تعالى لا يعجزه شيء.

وعزز سبحانه وتعالى البيان وقوة الدلالة ببيان وإيضاح قوة وأثر عمق النوم، بأن ضرب النوم على آذانهم ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ﴾ فلم تعُد حاسة السمع تسمع شيئاً مما حولها، مما جعل حاسة السمع تفقد إدراك المسموعات من الأصوات، فلم تعد الأصوات تَنْفَذ إلى آذانهم. حيث أن النائم إنما يستيقظ بصوة غيره، أو يستيقظ لاكتفائه مما حصل له من النوم، وهؤلاء لا يستيقظون بالأصوات من الرعود، وغيرها من الأصوات، ولا يشعرون بكفايتهم من النوم. وفي هذا دقة في البيان، وإعجاز في اختيار الأُذُن دون العين، لأن العين إشارة وعلامة من علامات نوم النائم، ولا تحصل اليقظة للنائم بتغير نوع المنظور التي قد تحصل في مكان النائم، وإنما تحصل اليقظة بالصوت.

ثم حدد تبارك وتعالى مكان ذلك النوم، بأنه في المكان الذي لجأوا إليه ﴿فِى ٱلْكَهْفِ﴾ فهو في نفس مكانهم الذي لجأوا إليه من أجل التَّخفّي عن قومهم فيه، ثم أوضح تبارك وتعالى مدة ذلك النوم الذي تجاوز الساعات، والأيام والأسابيع والأشهر إلى السنين العديدة ﴿سِنِينَ عَدَدًا﴾ أي سنين كثيرة، وفي إضافة التعدد للسنين ما يبين كثرتها، لأن القليل لا يحتاج إلى إضافة ﴿عَدَدًا﴾ ومن جمال التشويق أن الله تعالى لم يبين عددها، بل أشار إلى كثرة السنين التي لبثوا نياماً فيها، ليبينه فيما هو قادم من القصة، والتي هي: ثلاثمائة

وتسع سنين. ليحصل التشوق لمعرفة العدد. فهو إعجاز حتى في التدرج الذي يتحقق به التشويق لمتابعة أطوار أحداث القصة.

ثم يخبر الله تعالى عن إيقاظه لهم من نومهم بعد تلك السنين الطويلة، والكثيرة العدد، ليتبين ويظهر عجزهم عن معرفة مقدار مدة نومهم، وأيهم أقدر على إحصاء مقدارها، حتى يتبين ويظهر العجز البشري ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدًا ﴾ وهو سؤال استنكار وتقرير، ليثبت به سبحانه وتعالى انفراده بالعلم، وإظهار علمه بحالهم، وإظهار جهل وعجز الذين اختلفوا في تحديد مدة نومهم، فيستنكر به تخمين المعرفة بما يجهلون، والحكم فيما لا يعلمون، وبما يثبت به عجز الفريقين عن معرفة وإثبات مدة نوم أهل الكف، لتنحصر المعرفة في علم الله تعالى، إذ حتى النائمون عجزوا عن إدراك مدة نومهم، فَيُظْهِرُ لهم عَزَّ وجل أنهم لا يعلمون.

وفي جملة ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ ﴾ ما يستثير ويبني في النفس البشرية القدرة الربانية، وكذلك لإدراك المقارنة بين بعث الناس من نومهم، وبعث الأموات يوم البعث والنشور، فمن بعث هؤلاء من نومهم الطويل هو الذي يبعث الأموات للحياة من جديد ﴿لِنَعْلَمَ أَيُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدًا ﴾ ليظهر علمنا أي الفريقين المختلفين في مدة نومهم أقدر وأضبط على إحصاء مقدار مدتهم، فيظهر حال الأقدر من الفريقين الذين اختلفوا في مدة نوم أصحاب الكهف. وقيل عن الحزبين: أنهم قوم من قوم أهل الفتية، فقال بعظهم كان الحزبان جميعاً كافرين[1] وقيل يعني بالحزبين: المؤمنون والكافرون من قوم أصحاب الكهف[2] وقيل: أن الحزب الواحد هم الفتية، إذ ظنوا لبثهم قليلا. والحزب الثاني: أهل المدينة الذين بُعث الفتية على عهدهم. وهذا قول الجمهور من المفسرين. وقيل هما حزبان من الكافرين، وقيل هما حزبان من المؤمنين[3] ولعل المقصود بالحزبين هما فريقين من أهل الكهف، لأن الله تعالى عندما بعثهم تساءلوا بينهم عن مدة لبثهم، فبعضهم قال يوماً أو بعض يوم، وفريق قال: ربكم أعلم بكم، وهو ما سيأتي بيانه من أحداث القصة. بل في عدم تسمية الفريقين، ما يجمع كل فريقين، او فرقتين خمنتا تحديد المدة، سواء ممن سبق ذكرهم أو غيرهم. لأن في عدم تسميتهم حكمة عظيمة، ولعلها استيفاء لكل حزبين اختلفا في تعيين المدة، تخميناً من عند أنفسهم. ليتبين إعجاز السياق في احتواء جميع تلك المعاني.

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٥/١٧٦-١٧٧)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٥/٨٠)

(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٠/٢٣٦)

ومن دقائق البيان قوله تعالى ﴿ لِنَعْلَمَ ﴾ فالله تعالى يعلم، ولكن يشير عَزَّ وجل إلى واقع الحال منهم، بظهوره في الواقع. ويشير عَزَّ وجل بذلك إلى أنه لا يعلم ولن يعلم أحد ممن يخوض في مدة نومهم إلا الذي أنامهم سبحانه وتعالى، وسواء كان الفريقان هم من أصحاب الكهف، أو أهل المدينة وأهل الكهف، أو غيرهم ممن تحدثوا واختلفوا فيهم، ليظهر حصرية العلم عن مدة لبثهم لله وحده لا شريك له، فهو الذي يخبركم به ﴿ لِنَعْلَمَ أَيُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدًا ﴾ وجملة ﴿ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدًا ﴾ أي: أقدر وأضبط على إثبات عدد سنين نومهم الذي لبثوا في الكهف ﴿ أَمَدًا ﴾ أي: عدداً وغاية. مما يبين عظيم قدرة الله تعالى، وأن في هذا مثال للبعث بعد الموت، فإن بعث أهل الكهف بعد الموتة الصغرى، وإبقاء أجسادهم كما هي لم تتأثر من طول السنين وكثرتها، فإن الله تعالى لا يعجزه أن يعيد الأجساد بعد فنائها بالموتة الكبرى، ويحيها بعد فراقها للحياة.

وهو سؤال استنكار وتقريري ﴿ لِنَعْلَمَ أَيُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدًا ﴾ يثبت به جهل وعجز الذين اختلفوا في تحديد مدة نومهم، فيستنكر عليهم به محاولة معرفة ما يجهلون، والحكم فيه بما يجهلون، فيثبت ويقرر به عجز الفريقين عن معرفة وإثبات مدة نوم أهل الكف، لتنحصر المعرفة في علم الله تعالى، فَيُظهر اللهُ تبارك وتعالى لهم أنهم لا يعلمون.

فبعد أن أجمل تبارك وتعالى قصة أصحاب الكهف بتشويق مثير للعقل والفكر انتقل البيان الحكيم من رب العالمين إلى التفاصيل التي تبين حقيقة أصحاب الكهف، فقال جَلَّ جلاله ﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴾ نحن أيها النبي نقص عليك خبرهم بالحق والصدق الذي لا شك ولا شبهة ولا تخمين فيه. فبدأ البيان الكريم بتحديد وتعيين مصدر العلم الحقيقي لنبأ وشأن هؤلاء الفتية ﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ﴾ فقصر خبر الحق في شأن أصحاب الكهف عليه سبحانه وتعالى، فنحن وحدنا نقص عليك شأنهم، وبدأ البيان بالتفخيم والتعظيم ﴿ نَّحْنُ ﴾ فهو العظيم الجليل المبين لحقيقتهم، وبما يدل على عظمة القاص لشأن الفتية، وعلو السند مباشرة عن الذي لا يغيب عن علمه شيء، وهو العليم الخبير ﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ﴾ ومن دقائق الألفاظ أن كلمة ﴿ نَقُصُّ ﴾ تشمل اتباع الخبر بعضه بعضاً، وأصله المتابعة، فقصّه أي: تتبع أثره بدقة. وأن هذا البيان لقصة أصحاب الكهف متصف بالحق ﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ﴾ وهو الصدق الذي يصف شأنهم كما هو، وكأنك تشاهد واقعهم. فقد انتفت منه الزيادة والنقصان.

وبعد أن تحدد مصدر القول المبين لقصة أهل الكهف، وأنه بيان بالحق، مع علو السند، وتلقيه من رب العالمين، يشرع البيان الكريم من رب العالمين في تفاصيل قصتهم ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ﴾ إنهم مجموعة من الشبان الأحداث، في طليعة شبابهم، وأنهم مجموعة معدودة العدد، ليسوا بالكثير، لأن كلمة ﴿فِتْيَةٌ﴾ تدل على القلة، فهي جمع قلة. ثم تتابع خبر القصة بتوضيح أهم صفة لهم ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمْ﴾ وهي صفة تستجمع أن إيمانهم بربهم جعلهم يوحدونه ويطيعونه، فأثابهم الله تبارك وتعالى وجازاهم على هذا الإيمان أن زادهم من فضله عَزَّ وجل ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾ فقد زادهم الله تعالى بهذا الإخلاص له سبحانه وتعالى أن ثبتهم على الحق، فزادهم توفيقاً وثباتاً على الحق والخير، وأنار لهم سبيل الرشاد والتوفيق. مما يفيد أن الإيمان يزيد، وأنه كلما تقرب الإنسان لربه تبارك وتعالى زاده الله عَزَّ وجل إيماناً وتوفيقاً وسداداً ورشداً، وأنه كلما نقصت طاعته نقص إيمانه، فيقل توفيقه. فمن أراد الخير فليزداد قرباً من الله تعالى بطاعته عَزَّ وجل، والامتثال له جَلَّ جلاله. كما أن الإيمان هو القوة والمحور والركيزة للطاعة والامتثال. فقد امتدحهم الله تعالى بصفة الإيمان، لأنها القوة والقاعدة الثابتة للطاعة والامتثال. مما يفيد ويدل على أهمية الإيمان، وقوته وأثره في التوفيق والتسديد، وأن على العبد التوكل على الله تعالى، فإنه متى ظهر منه صدق عزيمته أعانه الله تعالى ووفقه وسدده، وقوَّاه على فعل الخير، ونصره على الشر والأذى، وعلى أهل الكفر وطالبيه وناشريه.

ومن مزيد فضل الله تعالى عليهم أنه ربط على قلوبهم ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أي: قواها وعضدها وشدَّ عزيمتهم سبحانه وتعالى بالصبر والامتثال، فهجروا نعيم الدور والمساكن والأهل، وأصبحت قلوبهم مطمئنة على كل ما يثير مخاوفهم، والأنس بوحدتهم، ومفارقة مطارحهم ولذائذهم. مما يبين أن الله تعالى إذا ربط على قلب عبده حصلت له السكينة والطمأنينة التي تُكسبه الرضا، والحماس للطاعة، والأنس بها، وتقديمها على ملذات الدنيا، من غير حسرة على ما يفوتها من زينة الدنيا وزخرفها. وكان هذا الربط من الله تعالى بالشد على قلوبهم حين عزموا على مفارقة ما كان عليه قومهم من الباطل ﴿إِذْ قَامُواْ﴾ فوصف الله تبارك وتعالى عزيمتهم وإرادتهم بالقيام الذي يمثل الابتدار والمبادرة، وابتداء الشروع في الطاعة بالنهوض لها، فاتضحت عزيمتهم، بالامتثال ﴿فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا﴾ فقرروا عند قيامهم ونهوضهم للامتثال والطاعة بقولهم ﴿رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا﴾ فقرروا أولاً بربوبية الله تعالى، وأنه رب السموات والأرض، فيشمل كل ما علا وارتفع وسما، وكذلك الأرض وما فيها وما عليها، وما في باطنها. فهو تقرير بأن الله تعالى رب كل شيء ومالكه، ثم قرروا توحيدهم لربهم عَزَّ وجل ﴿لَن نَّدْعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا﴾ فنفوا عن أنفسهم الشرك بالله

تعالى، وقرروا وحدانية الله تعالى لا شريك له عَزَّ وجل، وامتناعهم عن أن يدعوا غيره ﴿لَن نَّدْعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا﴾ فنفوا أن يدعوا أحداً غيره تبارك وتعالى، سواء لطلب خير أو دفع شر، فلن نتوجه في العبادة لغيره عَزَّ وجل، أو في الدعاء والتضرع، وسواء لطلب خير، أو لدفع شر.

وأفاد حرف ﴿لَن﴾ جزمهم على نفي وقوع الشرك منهم البتة، وبأنهم عازمون على تحقيق التوحيد مهما كانت الأمور والأحداث. ومبررين ذلك بأنه لو حصل منهم الإشراك بالله تعالى لكان ذلك حياداً عن الحق ﴿لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا﴾ فلو دعونا غير الله تعالى، لكان دعوانا بعيدة عن الحق والصواب، لأن الشطط الميل والغلو والإفراط والمجاوزة للحد. فيكون قولنا باطلاً وكذباً وبهتاناً. مما يدل على أهمية التوحيد، وتحقيقه في العبادة والدعاء، وفي كل شأن. وأن مخالفة توحيد الله تعالى ووحدانيته عملاً واعتقاداً باطلاً وفاسداً، لا يقبله الله تعالى، وأن قبول العمل مقترن بتوحيد الله عَزَّ في علاه، وإفراده وحده لا شريك له بالعبادة كما أمر جَلَّ جلاله.

ثم أوضح وبين الفتية الفرق بينهم وبين قومهم، وذلك لإظهار علة الخروج عنهم واعتزالهم، بالالتجاء والهروب منهم إلى الكهف ﴿هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ فهذا البيان من الفتية عن قومهم تأكيد على الإنكار عليهم هذا الشرك، وتحقير لفعلهم وفكرهم وعبادتهم.

ومن دقائق البيان هو إشارتهم لقومهم باسم الإشارة ﴿هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا﴾ لإفادة البعد العقدي بينهم وبين قومهم ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ وفي الإشارة إليهم باسم الإشارة مع بيان شناعة فعلهم ما يفيد التنبيه واللوم والنقد والتشنيع لفعلهم، مع بغضهم له، وعدم رضاهم لهذا المسلك الممتلئ بالكفر، وتباعد العقيدة الإيمانية بينهم وبين قومهم ﴿هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾ فقد اتخذوا معبودات غير الله تعالى، وليس معبوداً واحداً، بل معبودات متعددة، ليتبين غلوهم وإفراطهم في الجهل الذي أوداهم في هاوية الشرك، مع تعدد الآلهة المعبودة من دون الله تعالى، ليدل على فساد عقولهم.

ثم اتجه الفتية في إثبات باطل قومهم، وخروجهم عن الحق، بأن ليس لديهم حجة بينة وواضحة تدل على صحة ما هم فيه من الشرك ﴿لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ﴾ وهو سؤال استنكار وتعجيز لقومهم، لبيان شدة ما هم فيه من الباطل من غير دليل، وهو ﴿بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ﴾ فهلا يأتون بحجة وبرهان يُؤيد ويُثبت صحة ما هم عليه من الشرك، فإنهم لا يستطيعون ذلك، مما يبين أنهم على باطل وظلم لأنفسهم بشركهم،

وكذلك بظلمهم لغيرهم بدعوتهم لذلك، وتنشئة أجيالهم على الشرك، وعدم توحيدهم لله رب السماوات والأرض.

واختيار كلمة ﴿لَّوۡلَا﴾ تُعطي إفادة الطلب بشدة، والحث على الإتيان بالحجة على سبيل التقريع، بأنهم لن يستطيعوا، فليس عندهم حجة. مما يبين أن الحق من الله تعالى واضح وجلي بالحجة والبرهان القاطع والهالك لكل باطل، وأن هذا الدين هو دين علم، وقائم على الحجة والبرهان، ويربي في أتباعه العدل بالحجة والبرهان في القول والعمل والاعتقاد. وكلمة ﴿بِسُلۡطَٰنِۭ﴾ تفيد القوة في الحجة، بحيث تكون لحجتهم قوة ورفعة وسلطة على كل حجة مخالفة لهم. وقد أُردِفَ السلطان بكلمة ﴿بَيِّنٖ﴾ ليفيد الوضوح، والجلاء، الذي لا لبس فيه، وذلك منعاً لكل خداع، فيكون سلطان الحجة واضح لا شبهة فيه، لدحض وإبطال غيرها. وكل ذلك رفعة للحق، وإثبات لبطلان ما عليه قومهم من الشرك.

ثم اتجه الفتية إلى الاستنتاج بعد المحاكمة لجهل قومهم بسلطان الحجة والبرهان ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا﴾ فلا أحد أشد ظلماً من أي أحد أو قوم افتروا الكذب على الله تعالى، فيزعمون أن له شريك من الأصنام بزعمهم وافترائهم، بينما الله سبحانه وتعالى منزه عن الشريك. فالنص الكريم هو ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا﴾ فليس هناك أكثر ظلماً في الافتراء ممن يفتري ويصطنع الكذب على الله عَزَّ وجل. فاشتمل النص العظيم على تقرير أنه لا أحد أشد ظلما من أن يفتري على الله تعالى الكذب، كما ورد النص الكريم على صورة سؤال، ليفيد الاستنكار، والتشنيع العظيم على من افترى الكذب على الله جَلَّ جلاله، وخص الافتراء على الله تعالى بأنه أكبر أنواع الكذب، وأعظمها ذنباً، بأن يقول الإنسان قال الله تعالى، وهو لم يقل ذلك، فكيف إذا كان الافتراء على لله سبحانه وتعالى في إشراك غيره معه، إضافة إلى ما يترتب على ذلك من تشريع عبادة غيره، أو التوسل بالله عَزَّ وجل من خلال تلك المعبودات، فقد عَظُم جرمهم ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ﴾ فهل هناك من هو أكثر ظلماً للحق، وللحقيقة، ولنفسه، ولتوحيد الله تعالى ﴿مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا﴾ وورد الافتراء على جهة العموم، ليشمل كل افتراء، بالتحليل أو التحريم، ومنها ما هو متعين بسياق الآية الكريمة بأنه الشرك.

ثم يخبر الله تعالى عن حديث الفتية وتشاورهم فيما بينهم، فيقول بعضهم لبعض ﴿وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأۡوُۥٓاْ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ وَيُهَيِّئۡ لَكُم مِّنۡ أَمۡرِكُم مِّرۡفَقٗا﴾ فبعد أن قرروا ضلال قومهم الواضح المبين، وتقرير إيمانهم بالله تعالى، وإفراده بالعبادة، اتفقوا على اعتزال قومهم

وما يعبدون من الآلهة إلا الله تعالى، فاستثنوا عبادة الله تعالى ﴿ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ بما يفيد أن قومهم كانوا على شرك، فيعبدون الله تعالى، ويُشركون معه غيره من الأصنام، كما هو حال أهل مكة عند مبعثه صلى الله عليه وسلم، فتبرؤا من شرك قومهم من المعبودات إلا عبادة الله تعالى التي يجب أن تكون خالصة له عَزَّ وجل، وذلك بإفراده وحده لا شريك له في ملكه وألوهيته وربوبيته وعبادته. لتشمل المفارقة لقومهم حالتي المعايشة والمخالطة، والحالة القلبية وما تتضمنه من الاعتقاد، وما يتبعه من العبادة، والإخلاص لله تعالى. وقد ذكر ابن الجوزي رحمه الله تعالى قول عطاء الخرساني، والفراء، رحمهم الله تعالى: فإن القوم كانوا يعبدون الله، ويعبدون معه آلهة، فاعتزل الفتية عبادة الآلهة، ولم يعتزلوا عبادة الله[١]

ثم اختاروا وحددوا المكان البديل الذي يأوون إليه، فلجأوا إلى الكهف ﴿ فَأۡوُۥٓاْ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ ﴾ ليكون مقرهم، ومنزلهم الذي يعيشون فيه، ابتعاداً عن قومهم وما يعبدون من دون الله تعالى، مما يبين أن المرء إذا خاف على دينه من غيره، فيعتزل الباطل، بما يحقق له إقامة دينه، وأن إقامة الدين أعظم مقاصد المؤمن. ثم عززوا قرارهم بتوكلهم على الله تعالى، وبأملهم العظيم، وحُسن ظنهم في العزيز الكريم سبحانه وتعالى ﴿ يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ وَيُهَيِّئۡ لَكُم مِّنۡ أَمۡرِكُم مِّرۡفَقٗا ﴾ فإنكم إذا اعتزلتم قومكم الكافرين فإن الله تعالى ﴿ يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ ﴾ أي: يبسط عليكم بالتوسعة من فضله وكرمه. فمن قوة أملهم، وحُسن ظنهم بربهم تبارك وتعالى أنهم وصفوا عطاء الله تعالى بالنشر ﴿ يَنشُرۡ ﴾ والذي يفيد البسط والتوسعة ﴿ يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ ﴾ فيبسط عليكم من فيض رزقه وبركاته، وعموم رحمته التي لا حدود لها، لأن الرحمة هي الإحسان في كل شيء، ومنها الرزق، وأسباب الحياة، وغيرها ﴿ وَيُهَيِّئۡ لَكُم مِّنۡ أَمۡرِكُم مِّرۡفَقٗا ﴾ وييسر لكم الصعاب، بما يقتضي حصول التيسير، فيجعل لكم في أموركم ﴿ مِّرۡفَقٗا ﴾ أي لطفاً ورفقاً ويسراً ومخرجاً، بما يستركم من قومكم، وبما يدفع عنكم أذاهم وكيدهم، فيتحقق لكم ما ترتفقون به من الانتفاع، :أي ما تنتفعون به. مما يبين ويوضح أهمية أن يقرن المؤمن بين الأخذ بالأسباب وبين التوكل على الله تعالى، مع حُسن الظن به جَلَّ في علاه، فكما تولى سبحانه وتعالى شأن أهل الكهف الذين آمنوا بالله تعالى، واخذوا بالأسباب، وتوكلوا عليه عَزَّ وجل، فنجاهم، فإنه كذلك مع كل مؤمن يأخذ بالأسباب، ويتوكل عليه سبحانه وتعالى، ويحسن الظن بربه جَلَّ جلاله، فإن الله عَزَّ وجل آخذ به إلى كل خير، ودافع عنه كل شر.

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٨١/٥)

﴿ وَتَرَى ٱلشَّمۡسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهۡفِهِمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقۡرِضُهُمۡ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمۡ فِي فَجۡوَةٖ مِّنۡهُۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِۗ مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيّٗا مُّرۡشِدٗا ﴿١٧﴾ وَتَحۡسَبُهُمۡ أَيۡقَاظٗا وَهُمۡ رُقُودٞۚ وَنُقَلِّبُهُمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِۖ وَكَلۡبُهُم بَٰسِطٞ ذِرَاعَيۡهِ بِٱلۡوَصِيدِۚ لَوِ ٱطَّلَعۡتَ عَلَيۡهِمۡ لَوَلَّيۡتَ مِنۡهُمۡ فِرَارٗا وَلَمُلِئۡتَ مِنۡهُمۡ رُعۡبٗا ﴿١٨﴾ ﴾

ثم انتقل السياق الكريم إلى بيان شأنهم بعد أن أووا إلى الكهف، ووصف سبحانه وتعالى حالهم بدقة البيان، الذي وصف للمخاطب شأنهم وكأنه يقف عليهم ويشاهدهم، فكلام الله تعالى حقيقة لا مجال ولا مكان لغير الحقيقة فيه ﴿ وَتَرَى ٱلشَّمۡسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهۡفِهِمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقۡرِضُهُمۡ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمۡ فِي فَجۡوَةٖ مِّنۡهُۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِۗ مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيّٗا مُّرۡشِدٗا ﴾ فيا أيها المخاطب المعني بهذا الأمر، إنك لو رأيتهم لرأيت ما نذكره ونصفه لك ماثل أمامك، فإذا نظرت إليهم في الكهف، فإن حالهم وهيئتهم هي ﴿ وَتَرَى ٱلشَّمۡسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهۡفِهِمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ ﴾ فترى الشمس عند طلوعها تميل عن كهفهم ذات اليمين، قال ابن كثير رحمه الله تعالى: هذا دليل على أن باب الكهف نحو الشمال، لأنه تعالى أخبر أن الشمس إذا دخلته عند طلوعها تزاور عنه ﴿ تَّزَٰوَرُ عَن كَهۡفِهِمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ ﴾ أي: يتقلص الفيء يمنة، كما قال ابن عباس وسعيد بن جبير، وقتادة ﴿ تَّزَٰوَرُ ﴾ أي: تميل، وذلك أنها كلما ارتفعت في الأفق تقلص شعاعها بارتفاعها، حتى لا يبقى منه شيء عند الزوال في مثل ذلك المكان. ولهذا قال تعالى ﴿ وَإِذَا غَرَبَت تَّقۡرِضُهُمۡ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ ﴾ أي: تدخل إلى غارهم من شمال بابه، وهو من ناحية المشرق[١] وعند الغروب ﴿ تَّقۡرِضُهُمۡ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ ﴾ أي: تتركهم وتذرهم وتدعهم، فتعدل عنهم ناحية الشمال، فلا تصل إليهم حتى لا تؤذيهم بحرارتها، وتغير ألوان بشرتهم لطول زمن مدة نومهم. وبالتالي يأتيهم نسيم الهواء، ورطوبته. وهذا من حفظ الله تعالى لهم، إذ هيأ المكان قبل أن يفكروا فيه، لعلمه السابق لما سيكون في هذا المكان من أحداث لهؤلاء الفتية.

وقد يكون أن الله تعالى صرف عنهم الشمس لتكون آية من آيات الله تعالى، فعلى أي وجه فإنها آية عظيمة من آيات الله تعالى، سواء كانت التهيئة مسبقة لسابق علمه عَزَّ وجل، أو أنه تبارك تعالى جعل الشمس

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣/٧٩-٨٠)

تميل عنهم فلا تؤذيهم بحرارتها. وفيه من الفوائد مخاطر الشمس الدائمة والمتكررة على النائم، وأنه يلزمه أن يبحث عن الفي والضلال، ويتجنب مخاطر حرارة الشمس وهو نائم، إذ يفقد النائم قدراً من حواسه وقدراته عند نومه، فقد لا يشعر بأثرها حال نومه. ومن الفوائد أن الله تعالى يدبر الأمر، ويصرف الأمور، ويعالجها ويقدرها بما يتوافق مع السنن التي أوجدها تبارك وتعالى، وأنه حكيم عليم قدير عَزَّ وجل.

ثم يُخبر الله سبحانه وتعالى بالمزيد من دقائق حال أهل الكهف في كهفهم، حيث قال تعالى ﴿ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ ﴾ أي: في متسع من الكهف، فلا تؤذيهم حرارة الشمس، ولا يفقدون نسيم الريح، وطيب الهواء، لأن الفجوة: المكان المتسع، ثم يخبر الله تعالى عن تدبيره هذا ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ فإن هذا الأمر الذي فعلناه مع هؤلاء الفتية آية واحدة من آيات الله تعالى الكثيرة المتعددة، الدالة على كمال قدرته عَزَّ وجل، وعنايته بمن سعى في طاعته جلت قدرته، والمتمثل في شأن هؤلاء الفتية الذين فروا بدينهم من قومهم، وتحملوا تبعات ذلك، رجاء رحمة الله تعالى، مع توكلهم عليه عَزَّ وجل، وأنه سيهيئ لهم من أمرهم رشداً. لأن جملة ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ تفيد أن آيات الله تعالى كثيرة، وهذه واحدة منها، لتتناسق مع قوله تعالى في مطلع خبر أهل الكهف ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴾ بما يفيد نفي غرابة قصة أصحاب الكهف مع العلم بعظمة قدرة الله تعالى، لأنها تمثل آية واحدة من آيات الله تعالى الكثيرة والمتنوعة في الآفاق وفي الأنفس، فلا غرابة فيها، لعظيم قدرة الله تعالى.

ثم يذكر جَلَّ شأنه حقيقة الهداية والمهتدين ﴿ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴾ فإن من يهديه الله تعالى ويوفقه، فإنه هو الذي أصاب الهداية حقيقة، فهو المهتدي الهداية التي لا ريب ولا شك فيها، وهو الذي قد أصاب سبيل الحق، وبالتالي فهو الناجي والفائز بالدنيا والآخرة، فإنه تبارك وتعالى هو الذي أرشد هؤلاء الفتية بهدايته وتوفيقه لهم من بين أفراد قومهم الذين ضلوا عن سواء السبيل ﴿ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴾ وأما من يُضلله اللهُ سبحانه وتعالى جزاء له على تمنعه وامتناعه عن الحق، فإنه لن يجد من يتولى إرشاده للحق، فلن يجد حليفاً وخليلاً يرشده لإصابة الحق، حتى وإن كان حاذقاً ومؤثراً في الإرشاد. لأن كلمة ﴿ مُّرْشِدًا ﴾ تعطي دلالة المبالغة، فتفيد تعذر واستحالة أن يجد صفة الولي الذي يتمكن به في الإرشاد ما يبلغ به الحق. لتنحصر الهداية والتوفيق بيد الله تبارك وتعالى. وبالتالي فإن من طغى وآثر الحياة الدنيا، فعاقبه الله تعالى له بالإضلال، فلا يستطيع أحد من الخلق مهما بذل له من النصح أن يغير فكره واتجاهه نحو الحق، حتى ولو كان ولياً ومحباً له. مما يبين أن الهداية الحقيقية فيمن وفقه الله تعالى، وثبته

على الحق، وأن من سعى إلى الله تعالى وفقه وهداه إلى سبيل الرشاد، كما وفق أهل الكهف وهداهم، وتولاهم بعنايته الخاصة. وأن من عاند وكفر، فعاقبته من الله تعالى أن يثبته على الضلال، فلن يجد من يستطيع أن يأخذ بيده للحق والخير، ولو كان من أحب وأقرب الناس إليه.

ويخبر الله تعالى عن هيئة نوم أهل الكهف، واختلاف ظاهر نومهم عن حقيقته، لحكمته البالغة سبحانه وتعالى ﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ ۖ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ ۚ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴾ وتحسبهم، أي فتظنهم يا أيها الناظر لو نظرت إليهم أنهم أيقاظاً منتبهين، وهم في حقيقة الأمر نائمون ﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ﴾ قال بعض أهل العلم: أنه لما ضرب الله تعالى على آذانهم بالنوم لم تنطبق أعينهم، لئلا يسرع إليها البلى فتفسد، فإذا بقيت ظاهرة للهواء كان أبقى لها[١] وفي هذا من الحكمة والفوائد، أن طيلة تغميض العين عن المقدار المحدد بالنوم المعتاد ما يضر بها، كما أن من حكمة ذلك أن الناظر إليهم لا يشك في أنهم أيقاظاً، خاصة وأن ذلك من رعاية الله تعالى لهم، حتى أنه عَزَّ وجل يقلبهم في منامهم ﴿وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ ﴾ أي: يحركهم سبحانه وتعالى من جهة إلى أخرى وهم رقود، حتى لا تفسد أجسادهم. وكلمة ﴿وَنُقَلِّبُهُمْ ﴾ أدق من التحريك، وأوضح بياناً، لأن التقليب هو تحويل، وقد نسب الله تعالى هذا التحويل له عَزَّ وجل، لبيان إكرامه لهم، وتولي أمرهم، وفيه بيان لعظيم قدرته وعظمة تدبيره، ومدى عنايته بهم، فيقلبهم جهة أيمانهم وجهة شمائلهم، بما يحفظ أجسادهم من أثر الأرض وأثر طيلة زمن الرقاد على جهة واحدة. فإن الله تعالى إذا اعتنى بعبده أكرمه بكمال التدبير والتقدير والعناية التي لا يستطيع الإنسان تدبيرها في نفسه. وهذا يبين ويفيد حكمة تقلب النائم في منامه، والتي أودعها الله تعالى في عباده أثناء نومهم.

ثم يخبر الله تعالى عن هيئة كلبهم المرافق لهم في كهفهم ﴿وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ ﴾ فكلبهم الذي كان معهم رابض بذراعيه المبسوطتين عند فناء الكهف، لأن الوصيد هو فناء الباب، أو فناء الكهف، وهي المساحة التي تكون أمام الباب، فهو باسط ذراعيه أمام الباب، ليشعر من يراهم أن كلبهم يقظ مثلهم، فيهابهم، ولذلك قال عنهم سبحانه وتعالى ﴿لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴾ فالرعب يحصل لمن يراهم من هيئة كلبهم، ومن عيونهم التي يظهر عليهم منها أنهم أيقاظ. وفي وجود الكلب معهم ما يفيد جواز اقتناء الكلب للحراسة، وأن موقعه خارج البيت وليس داخله، أي: داخل الفناء

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣/٨٠)

وخارج البناء. وفي قوله تعالى ﴿ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ أي: لو قُدِّرَ لك أيها المخاطب أن تنظر إليهم ﴿ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا ﴾ لهربت منهم هروباً لا تنظر فيه إلى خلفك، لأن كلمة ﴿ لَوَلَّيْتَ ﴾ تعني المباشرة في الهروب مع السرعة في الابتعاد عن المكان ﴿ وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴾ وامتلأ موضع ومكان الخوف منك أيها الإنسان فزعاً ورعباً، مما يفيد أن الله تعالى قد حماهم بالرعب لمن يقترب منهم، فلا يستطيع الوقوف للتأمل، بل يأخذه الفزع الذي يملأ صدره رعباً، فيولي عنهم مدبراً، فلا يتجاسر على الوقوف أمامهم، كل ذلك حماية ورعاية من الله تعالى لأولئك الفتية الذين آمنوا، ففروا بدينهم عن فتنة من يفتنهم من قومهم. حتى لا يكشف أمرهم أحد من الناس. وجملة ﴿ وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴾ تفيد امتلاء الصدر بالخوف إلى حد أنه لم يعد فيه مكاناً فارغاً يتحمل به الوقوف عليهم، ليعلم العبد أن نوع ودرجة حماية الله تعالى لمن أراد حمايته ليس لها مثيل. وأن الخوف والرعب جند من جند الله تعالى.

﴿ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُواْ بَيْنَهُمْۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْۖ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍۚ قَالُواْ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾ ﴾

ينتقل السياق الكريم إلى مبعث أهل الكهف من نومهم، وبيان حالهم، وما دار بينهم من حديث. فقال الله تعالى ﴿ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُواْ بَيْنَهُمْۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْۖ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍۚ قَالُواْ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴾ وكما فعلنا بهم من جليل الكرامات بالنوم الطويل، وحمايتهم من غيرهم ﴿ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ ﴾ كذلك أيقظناهم من نومهم الذي طال بهم زمناً، ومع ذلك لم يشعروا بمدته، فحدث النقاش والحوار بينهم بالتساؤل ﴿ لِيَتَسَآءَلُواْ بَيْنَهُمْ ﴾ فأفاد البيان الكريم أنه قد دار نقاش بينهم عن مدة نومهم، وأن أهم محاور النقاش وألصقه بصلب الموضوع هو مدة نومهم، وفي الاقتصار عليه لا ينفي غيره، وليدل ذلك على الاستغراب الذي أذهلهم عن مدة نومهم ﴿ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ﴾ فقد وجّه أحدهم سؤالاً لبقية أصحابه ﴿ كَمْ لَبِثْتُمْ ﴾ ما المدة التي

مكثناها نائمين؟ ولأنه غير معلوم لديهم مدة نومهم، كان وجه السؤال على سبيل التخمين والتوقع، ولذلك دار الاختلاف بينهم عن مدة لبثهم، مما يدل على أنهم أدركوا أنهم ناموا نوماً طويلا، غير معروف لديهم مدته، وأن نومهم كان نوماً مخالفاً للنوم الطبيعي للإنسان ﴿قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ فلما رأوا من أنفسهم أن نومهم غير النوم المعتاد منهم، ومن حال الناس، استزادوا في المدة المعتادة، ولم يرفعوا سقفها أكثر من يوم، ولم يُنْزِلُوا مدتها عن جزء من يوم.

فأدرك البعض منهم أن أمر المدة قد يكون خلاف ذلك، ولا قدرة لهم على تعيينها وتحديدها، فانتقلوا إلى شأن حاجتهم إلى الطعام بعد أن أوكلوا شأن مدة نومهم إلى علم الله تعالى ﴿قَالُواْ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾ وهذا من قوة إيمانهم بالله تعالى، وقوة توكلهم على ربهم عَزَّ وجل، وتخصيص الله تعالى بكمال العلم، فعلقوا أمر معرفتهم لمدة نومهم إلى علم الله تعالى. ولم يقولوا ربكم يعلم، بل قالوا ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ﴾ فخصوا الله تعالى بكمال العلم، وأنه ليس هناك من هو أعلم منه تبارك وتعالى ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾ وبعد أن قطعوا شأن مدة لبثهم في نومهم، وإحالة العلم وتفويضه إلى لله تعالى، انتقلوا إلى شأن طعامهم ﴿فَٱبْعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾ فاختاروا واحداً منكم، وأرسلوه ﴿بِوَرِقِكُمْ﴾ أي: بنقودكم، أو دراهمكم التي معكم إلى سوق المدينة، ويتخير لكم أفضل وأطيب الطعام، ويأتيكم بشيء منه، وليكون لطيفاً مع البائع وغيره ممن يقابلهم، حتى لا ينكشف أمرنا، ولا يعرف بنا أحد من الناس.

وقد بدأ كلام القائل منهم بالخطوة الأولى، وهي اختيار من يصلح للتبضع والانتقاء والشراء من السوق ﴿فَٱبْعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ﴾ مما يفيد أهمية انتقاء الشخص المناسب للأمر المناسب، واختيار الأفضل كفاءة من غيره في الأمر الذي يُوكل إليه، ومن قدرة الله تعالى أن أموالهم لم تتأثر، بل بقيت كما هي ﴿فَٱبْعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ﴾ وهي النقود، والدراهم التي كانت معهم، والورِق، والورَق، الفضة، قال ابن قتيبة رحمه الله تعالى: الوَرِق: الفضة، دراهم كانت، أو غير دراهم(١) وتم تحديد الغاية من ذهاب الذي يختارونه إلى المدينة ﴿فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ﴾

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٨٤/٥)

والنظر يتطلب البحث والفحص عن الطعام المتصف بالأفضلية، فجمعت دلالة ﴿فَلۡيَنظُرۡ أَيُّهَآ أَزۡكَىٰ طَعَامٗا﴾ مجامع الأفضلية، سواء من حيث حِل الطعام، وأنه ليس بحرام، أو من حيث الجودة، أي: الأجود، والأطيب، والأرخص، والأكثر فائدة، والأكثر كمية. فكلمة ﴿أَزۡكَىٰ﴾ تجمع أنواع ودرجات الأفضلية من كل وجه. وهذا من دقائق الألفاظ والجمل التي تجمع مقاصد المراد بكل دقة، وهي فصاحة إعجازية بيانية قرآنية عظيمة. مما يعلم الإنسان منهجية التوصيف، ومنهجية الاختيار.

فإذا تَحَصَّل عليه ﴿فَلۡيَأۡتِكُم بِرِزۡقٖ مِّنۡهُ﴾ أي: بما تأكلونه، فيسد جوعكم وحاجتكم، وقد سموه رزق ﴿بِرِزۡقٖ﴾ فالرزق هو عطاء الله جَلَّ ثناؤه، وهو عام لكل ما ينتفع به الإنسان ﴿فَلۡيَأۡتِكُم بِرِزۡقٖ مِّنۡهُ﴾ فليأتيكم مما في السوق من طعام، ولم يحددوا له نوعاً، ولا كمية، ليكون وفق ما يراه ممن اختاروه وبعثوه للإتيان به. وفي هذا ما يفيد أنه عند التوجيه قد يقتضي المقام عدم التحديد، لإعطاء الْمُفَوَّض قدراً من مساحة الانتقاء بحسب ما يتوفر أمامه، وبما يراه مناسباً لما معه من النقود. وهذا في أغلب أو في كثير من شؤون الحياة وإدارة العمل.

ثم بينوا للذي اختاروه لشراء الطعام المسلك وطريقة التعامل، وهيئة الخروج، والسير في المدينة ﴿وَلۡيَتَلَطَّفۡ﴾ فليسلك مسلك اللطف والترفق، بأن يتكلف التلطف في الطريق، وعند الشراء، حتى لا ينتبه له أحد ممن يعرفونه من أهل المدينة، فعليه أن يتخفى عنهم، ولا يتعرض لهم ﴿وَلَا يُشۡعِرَنَّ بِكُمۡ أَحَدًا﴾ وعليه أن يمتنع عن كل ما يؤدي إلى علمهم بوجودنا. فيبتعد عن الأسباب التي تُشعرهم وتُعَرِّفهم بنا. وهي دقة في التوجيه، ودقة في ألفاظ القرآن الكريم التي بينت حرصهم الشديد على ألا يعرف عن أمرهم أحد من قومهم. وهذا يبين أهمية النصيحة، وأهمية التوجيه، وأن الْمُكَلَّف بأمر قد يكون حاذقاً في شأن، وقد يفوته أمر وأمور، وأن النصح والتنبيه قوة له، وليس تقليلاً من شأن فهمه. وفيه أن التلطف مطلب، وأن التستر عن الأسباب التي تجلب شراً أمر في غاية الأهمية، وأنه يجب التحرز منها، وأن الأخذ بالأسباب لا ينافي التوكل على الله تعالى. وأن الجمع بينهما هو المسلك الصحيح.

ثم أوضح وبين المتحدث منهم علة التلطف التي تقتضي أن لا يشعر بهم أحد، وهي مخافتهم من جبروت قومهم، مما يبين أهمية بيان العلة عند الأمر والنهي إذا احتاج الأمر لذلك، حتى يكون أدعى للمُكَلَّف في الحرص على أداء الأمر كما أُمِرَ به ﴿إِنَّهُمۡ إِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ يَرۡجُمُوكُمۡ أَوۡ يُعِيدُوكُمۡ فِي مِلَّتِهِمۡ وَلَن تُفۡلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدٗا﴾ فإن عرف قومكم حالكم ومكانكم رجموكم بالحجارة، فيقتلونكم برجمكم بها، والتي هي أبشع

أنواع القتل، مما يشير إلى أنها الوسيلة المستخدمة عندهم لمن يكون هذا شأنه، ولذلك اختار بيانها وتحديدها وتعيينها عن غيرها من أنواع القتل. أو يُجبروكم على دينهم قصراً، فتصبحوا بعد إيمانكم كافرين مثلهم، وعندها لن يتحقق الفلاح لكم في الدنيا ولا في الآخرة أبداً.

ومن جميل البيان ودقائقه جملة ﴿ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ ﴾ فالظهور يعطي صورة التمكن والعلو من قومهم عليهم، لكثرتهم وقوتهم، بما يفيد الظفر بكم، فإن معرفتهم بكم تمكنهم من الظهور عليكم، ليفيد شدة التحذير، والحيطة بالتلطف لمن سيذهب لشراء الطعام. وأفادت ﴿يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ ﴾ أن هناك أمران لا ثالث لهما، أي: حصر وقصر قرار قومهم في أمرين اثنين فقط، الأول: أن ﴿يَرْجُمُوكُمْ ﴾ بتنفيذ أبشع أنواع القتل فيكم، وهو الرجم، كعقوبة لكم منهم، أو أن يعمدوا إلى الوسائل التي تجعلكم ترجعون عن دينكم إلى دينهم، وهي ملة الكفر ﴿أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ ﴾ فقد أفاد النص الكريم ﴿يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ ﴾ بأن الخيار لقومهم، وليس تخييراً لأهل الكهف، فإما أن ينفذوا فيكم عقوبة الرجم، أو يُجبروكم جبراً على ترك ملتكم والدخول في ملتهم، أي: ملة الكفر. فالنص الكريم نسب الإعادة إلى قومهم، على سبيل تنفيذ أحد الأمرين، وليس على سبيل التخيير، فلم يقل: يرجموكم أو تعودوا في ملتهم، فيكون الأمر بالخيار. فإن قومهم هم الذين يعيدونهم إلى دينهم ﴿أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ ﴾ فنسب فعل الإعادة لقومهم، فهم الذين يُعِدُونهَم في ملتهم، أي: إلى دين قومهم، أي: ربما يعمدون إلى إعادتكم بالتعذيب، وهذا يؤكد ويبين صلابة إيمانهم، بأنهم لن يعودوا عن دينهم مقابل القتل، لأنه جعل الخيار لقومهم، الذين هم أهل المدينة. وهذه دقة في بيان حقيقة الأمر.

ثم أوضح لأصحابه النتيجة إن عادوا عن دينهم ﴿وَلَن تُفْلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدًا ﴾ فإن عدتم عن دينكم فسوف يفوتكم الفوز والفلاح أبداً، فإنه لا فلاح في الخروج من الدين، مهما كانت الأمور، بما يفيد حصر الفلاح فيما هم فيه من الدين والطاعة لله تعالى. وجعلوا امتناع الفلاح في سياق المستقبل، ليفيد مستقبلكم في الدنيا والآخرة. فهي صورة ومشهد يوضح ويبين ما هم فيه من الخوف من قومهم، وأهمية الحذر منهم، ومن معرفتهم بهم وبمكانهم. كما يبين المشهد من حالهم أنهم لم يعرفوا أن قومهم قد بادوا، وزالت قوتهم وجبروتهم وتسلطهم، وأن أجيالاً قد تلاحقت من بعد قومهم، وأن المعالم قد تغيرت بالبناء والهدم والإزالة، وبالتالي لم يعرفوا أن وَرِقهم التي هي نقودهم ودراهمهم قد أصبحت من الماضي السحيق. كما يدل هذا التناجي بينهم على قوة إيمانهم، وخوفهم على دينهم، وحرصهم عليه، وخوفهم على مستقبلهم، وأن رغبتهم في الدنيا محصورة في أن يفارقوا الحياة الدنيا وهم على طاعة الله تعالى، والامتثال له عَزَّ وجل، ليعطوا غيرهم درساً، بل دروساً في التمسك بالدين والمحافظة عليه،

وتحمل المشاق من أجله، وأن مستقبل الإنسان وفوزه هي في طاعة الله تعالى بالتمسك بدينه. وأن الفلاح محصور في طاعة الله تعالى، لا في متابعة العاصين والمخالفين لدين الله تعالى.

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ فَقَالُواْ ٱبْنُواْ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِٱلْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾ وَلَبِثُواْ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ ۖ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ ۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ ﴾

وينتقل السياق الكريم إلى بيان مشهد ما حصل لأهل الكهف بعد أن ذهب أحدهم إلى المدينة ليشتري لهم طعاماً زكياً، ليتبين من ذلك حكمة الله تعالى، وأن إرادته عزَّ وجل نافذة مهما كان الحذر، وأن في إرادة الله تعالى وحكمته ما هو أفضل وأحسن عاقبة من الحذر، فقد يأتي الخير مما يخاف الإنسان، فإن واجب الإنسان الأخذ بالأسباب مع التوكل على الله تعالى، والاستعانة به ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ فَقَالُواْ ٱبْنُواْ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴾ وكما جعلنا النوم يأخذهم بقدرتنا سنين عديدة، وبعثناهم بإرادتنا وحكمتنا فقد أعثرنا عليهم، فأطلعنا أهل ذلك الزمان من الناس عليهم، فإن لله تعالى الحكمة والأمر، وفي استخدام كلمة ﴿ أَعْثَرْنَا ﴾ ما يفيد تحصيل الشيء بعد فقده، قال الإمام الشوكاني رحمه الله تعالى: وسمَّى الإعلام إعثاراً، لأن من كان غافلاً عن شيء فعثر به، نظر إليه، وعرفه، فكان الإعثار سبباً

لحصول العلم[١] ﴿لِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ وعلة إعثار وإطلاع الناس عليهم ليعلموا أن ما وعد الله تعالى به هو حق يقيني، لا جدال ولا كذب فيه، وهو البعث بعد الموت.

ومما أوردته كتب التفسير عن كيفية العثور عليهم: أن الذي بعثه أهل الكهف منهم ليشتري لهم طعاماً زكياً، أنه عندما قَدِم إلى المدينة، وذهب إلى السوق قَدَّم للبائع ما معه من النقود، فأنكر البائع تلك النقود، لكونها قديمة، وغير مستخدمة في وقته، فإنه مضى عليها قرون عديدة، واندثر أهلها، في حين أن الحامل لتلك النقود من أهل الكهف لا يعرف ذلك، فهو يظن أن القوم هم القوم، لاعتقاده أنه ما لبث في نومه إلا يوماً أو بعض يوم، فانكشف بالسؤال والحديث بينهما، وربما استدعى من بجواره وحوله، لغرابة هذا الأمر، فانكشف أمر أهل الكهف لأهل ذلك الزمان، وعرفوا منهم، ومن أحوالهم، وحال قومهم شأنهم. ليتبين أن الأسباب من التلطف والتخفي لا تغني عما أراد الله تعالى للإنسان من الخير، فقد يأتي الخير مما يخاف الإنسان، كما قد يأتي الشر مما يأمن الإنسان، ليدرك أهمية التوكل والالتجاء إلى الله تعالى وسؤاله التوفيق والعون والسداد. ففي انكشاف أمرهم لأهل ذلك الزمان عِلْمٌ لهم في الصلاح والإصلاح لعقائدهم، بإثبات البعث بعد الموت. وبالتالي ينال أهل الكهف أجر من صدق وآمن بالبعث مما رأوا من حال أهل الكهف. يقول الإمام ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: كذلك أطلعنا عليهم الفريق الآخر، الذين كانوا في شك من قدرة الله تعالى على إحياء الموتى[٢] فالذي أَعْثَرَ الناس عليهم هو الله سبحانه وتعالى ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾ والذي أخر بعثهم إلى ذلك الوقت هو الله سبحانه وتعالى ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ﴾ والذي هيأ الأسباب، ووقت المواقيت هو الله سبحانه وتعالى، ليتحقق لأولئك القوم ما يحتاجون إليه فيما كانوا يختلفون عليه من البعث بعد الموت ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ﴾ ليحصل لهؤلاء الناس العلم الذي يُصدِّقُون به ﴿أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ﴾ فحال أهل الكهف مثال واقعي يبين لهم البعث بعد الموت، ويُؤكد لهم أن أمر الساعة التي هي يوم القيامة أنها حقيقة لا ريب ولا شك فيها، وأن وعد الله تعالى بها حق كائن لا ريب ولا شك فيه. ويقطع بذلك ما كانوا يتمارون فيه.

فقد كان القوم يتجادلون فيما بينهم عن البعث، فمنهم المنكر له، ومنهم المؤمن به ﴿إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ﴾ فإن أحداث بعث أهل الكهف كانت في الحال التي كانوا يتنازعون بينهم في أمرهم المتعلق بشأن

---

(١) الشوكاني، فتح القدير (٢٧٧/٣)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢١٥/١٥)

إحياء الموتى، وقيام الساعة، قال الإمام ابن جرير رحمه الله تعالى: وكذلك أعثرنا هؤلاء المختلفين في قيام الساعة، وإحياء الموتى بعد مماتهم...فما الله فاعل بمن أفناه من عباده، فأبلاه في قبره بعد مماته، أهو منشئهم أو غير منشئهم[١] ومن دقائق السياق أنه يحتمل دلالة أخرى، فتعطي فائدة ثانية من غير تعارض بينهما، فيما يحمل النص الكريم من دلائل، فقد ذكر ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: أنهم تنازعوا في البنيان، والمسجد، فقال المسلمون: نبني عليهم مسجداً، لأنهم على ديننا، وقال المشركون: نبني عليهم بنياناً، لأنهم من أهل سنتنا[٢]

وهذا من عمق البيان في شموله لدلالتين متضمنتين في النص الكريم، إذ قال تعالى ﴿إِذۡ يَتَنَٰزَعُونَ بَيۡنَهُمۡ أَمۡرَهُمۡۖ فَقَالُواْ ٱبۡنُواْ عَلَيۡهِم بُنۡيَٰنٗاۖ رَّبُّهُمۡ أَعۡلَمُ بِهِمۡۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِمۡ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيۡهِم مَّسۡجِدٗا ﴾ أي: كان تنازعهم هو في شأن البنيان على أهل الكهف تعظيماً لأمرهم وشأنهم من كلا الطرفين، فالهدف هو سترهم ﴿ٱبۡنُواْ عَلَيۡهِم بُنۡيَٰنٗاۖ رَّبُّهُمۡ أَعۡلَمُ بِهِمۡ ﴾ احفظوهم واستروهم بالبنيان عن الناس، فتجعلوهم خلف ذلك البنيان، وفوضوا شأن فتية أهل الكهف إلى علم الله تعالى ﴿رَّبُّهُمۡ أَعۡلَمُ بِهِمۡ ﴾ فهو العالم بحقائق نومهم، وبعثهم، وموتهم، وقال أهل الرأي الآخر، وهم الذين لهم الطاعة والرئاسة والشأن ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِمۡ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيۡهِم مَّسۡجِدٗا ﴾ مما يبين أنهم أهل الإسلام، وقد كانت لهم الرئاسة والشأن في بلدتهم. وقد يدل على أنه قد كَثُر أهل الإسلام، وزادوا بعد رؤيتهم لأهل الكهف، فأصبحت الغلبة لهم، بكثرة وقوة المطالبة ببناء المسجد. وإن كان حدث ذلك في ذلك الزمان، فإنه عليه الصلاة والسلام نهى عن بناء المساجد على القبور، وكان نهيه نهي تحريم إذ قال عليه الصلاة والسلام (ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد، إني أنهاكم عن ذلك)[٣] وحديث النهي في هذا الشأن كثيرة.

ثم يخبر الله تعالى بما قال الخائضون المجادلون في شأن عدد فتية أهل الكهف ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٞ رَّابِعُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ وَيَقُولُونَ خَمۡسَةٞ سَادِسُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ رَجۡمَۢا بِٱلۡغَيۡبِۖ وَيَقُولُونَ سَبۡعَةٞ وَثَامِنُهُمۡ كَلۡبُهُمۡۚ قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا قَلِيلٞۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمۡ إِلَّا مِرَآءٗ ظَٰهِرٗا وَلَا تَسۡتَفۡتِ فِيهِم

(١) المرجع السابق (٢١٦/١٥)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٨٦/٥)

(٣) مسلم، صحيح مسلم (٣٦/١-٣٧) برقم (٥٣٢)

﴿مِّنْهُمْ أَحَدًا﴾ فانقسم الخائضون جدلاً في عددهم إلى ثلاثة أقسام، الفريق الأول ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ فحصروا العدد في ثلاثة من غير دليل، وأن رابع الفتية كلبهم الذي كان باسط ذراعيه بالوصيد، وأما الفريق الثاني ﴿وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ﴾ وهؤلاء حصروا عدد الفتية في خمسة، وأن سادسهم في العدد هو كلبهم الذي كان معهم، وكلا القولين باطلين وفاسدين، لأن مصدرهم هو ﴿رَجْمًا بِالْغَيْبِ﴾ وهو القول بلا علم، وإنما مبني على الظن والتخمين، من غير دليل ولا برهان.

ومن دقة الحكم، وبلاغة بيانه هو تسمية قولهم ﴿رَجْمًا بِالْغَيْبِ﴾ وهو كناية عمن يرمي رميه من غير علم بمكان وحقيقة من يرميه، فيتوجه إليه بلا علم، فقد يصيب وقد يُخْطِئ. وورد الوصف في كلمتين، إعجازاً في دقة الوصف، مع دقة الحكم ﴿رَجْمًا بِالْغَيْبِ﴾ وأما الفريق الثالث ﴿وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ حصروا العدد في سبعة، وأن ثامن الفتية كلبهم الذي كان باسط ذراعيه بالوصيد. قال الإمام ابن كثير رحمه الله تعالى عن القول الثالث: ثم حكى الثالث وسكت عليه، أو قرره بقوله ﴿وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ فدل على صحته، وأنه هو الواقع في نفس الأمر، وقوله ﴿قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم﴾ ارشاد إلى أن الأحسن في مثل هذا المقام رد العلم إلى الله تعالى، إذ لا احتياج إلى الخوض في مثل ذلك بلا علم[1] فقل يا أيها النبي لمن يخوضون في شأن أهل الكهف من غير علم ﴿قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم﴾ ثم قال تبارك وتعالى عن علم الناس عنهم ﴿مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ فأثبت تبارك وتعالى علم القليل من الناس، ولعل في هذا تدليل وإثبات بأن القول الثالث هو من القليل الذين يعلمون عددهم. وعن قتادة ذُكِر لنا أن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما، كان يقول: أنا من أولئك القليل الذين استثنى الله تعالى، كانوا سبعة وثامنهم كلبهم[2]

ثم يوجه الله تبارك وتعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بقوله عَزَّ وجل ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا﴾ أي: لا تجادل من يجادلون في شأن عدد فتية أهل الكهف، بما يفيد أنه ليس في المجادلة في هذا الشأن أمر كبير، ولا يترتب عليه أمر ذي أهمية. مما يفيد أهمية ترك المراء والجدال، وخاصة فيما ليس فيه فائدة، ثم نهى سبحانه وتعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يسأل منهم أحداً على سبيل

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٨٢/٣)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢١٩/١٥)

الاستفتاء ﴿ وَلَا تَسۡتَفۡتِ فِيهِم مِّنۡهُمۡ أَحَدٗا ﴾ قال الإمام الشوكاني رحمه الله تعالى: ثم نهاه سبحانه وتعالى عن الاستفتاء في شأنهم ﴿ وَلَا تَسۡتَفۡتِ فِيهِم مِّنۡهُمۡ أَحَدٗا ﴾ أي: لا تستفت في شأنهم من الخائضين فيهم أحد منهم، لأن المفتي يجب أن يكون أعلى من المستفتي، وها هنا الأمر بالعكس، ولا سيما في واقعة أهل الكهف. وفيما قص الله عليك في ذلك ما يغنيك عن سؤال من لا علم له[١]

ثم استثنى سبحانه وتعالى من ذلك المراء ما ظهر فيه الدليل والحجة ﴿ إِلَّا مِرَآءٗ ظَٰهِرٗا ﴾ أي: إلا بما أظهرناك عليه من أمرهم، وهي الحجة الواضحة، فحسبك ما قصصنا عليك من شأنهم. والمراء يعني الجدال ﴿ إِلَّا مِرَآءٗ ظَٰهِرٗا ﴾ أي حجة واضحة. مما يفيد أن على المؤمن ألا يجادل إلا في شيء متحقق من صحته بالحجة والدليل، والعلم بحقيقة الأمر. مما يفيد أن الله تعالى قد القى إليك ما لا يشوبه باطل. ثم نهى سبحانه وتعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يستفتي في عدد فتية أهل الكهف أحداً من أهل الكتاب ﴿ وَلَا تَسۡتَفۡتِ فِيهِم مِّنۡهُمۡ أَحَدٗا ﴾ فلا تستفت في شأن أصحاب الكهف من أهل الكتاب أحد، لأنهم لا يعلمون عدتهم، وإنما يقولون رجماً بالغيب، من التخمين والظن. مما يفيد ألا يُسأل في شأن إلا من عنده علم، وهذا ينطبق في أمور الدين والدنيا، فإن من كانت مصادره التخمين والتوقع، فإنه لا ثقة في قوله ورأيه، وإنما القول الصواب هو ما كان مبني على الدليل والبرهان، مما يبين أن هذا الدين هو دين علم، وأنه يؤسس في المؤمنين العلم، والتثبت، وأخذ الأمور من مصادرها. وألا تكون تصرفات الإنسان في عبادته وعقيدته خاصة إلا بعلم، وكذلك أن لا يكون حكمه على غيره إلا وفق الدليل والبرهان، ويمتد سلطان هذا التوجيه وهذه القاعدة على أمور الحياة المختلفة.

ويستمر التوجيه للنبي صلى الله عليه وسلم بقاعدة عظيمة فيما يعزم على فعله، وهو عام في حق جميع المكلفين من المؤمنين ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيۡءٍ إِنِّي فَاعِلٞ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَهۡدِيَنِ رَبِّي لِأَقۡرَبَ مِنۡ هَٰذَا رَشَدٗا ﴾ فاستفتح النهي بقوله تعالى ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيۡءٍ إِنِّي فَاعِلٞ ذَٰلِكَ غَدًا ﴾ فلا تعزم على فعل تريد فعله إلا وتعلقه بالله تعالى ﴿ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ بأن تَرُدَّ تحقيق الفعل إلى مشيئة الله سبحانه وتعالى، قائلا: إن شاء الله تعالى، فليس العبد مستقلاً في إرادته عن إرادة الله تعالى، بل هي متعلقة بمشيئته عَزَّ وجل، إن شاء أمضاها له، وإن شاء حبسها ومنعها،. فَيُعَلِّمُ اللهُ تبارك وتعالى عباده بأن تحقيق إرادتهم مرهون بمشيئته سبحانه وتعالى، فهي متعلقة بما يشاء عَزَّ وجل، مما يبين

(١) الشوكاني، فتح القدير (٣/٢٧٨)

أن للعبد إرادة، وأن إرادته مرهونة بمشيئة الله تعالى، إن شاء أمضاها له، وإن شاء حبسها ومنعها، مما يوضح للعبد أنه لا يكون في هذا الكون شيء إلا بما يأذن به الله جَلَّ في علاه، ولا يمتنع شيء إلا بإذنه سبحانه وتعالى، فهو صاحب المشيئة المطلقة، وأن كل مشيئة مقيدة بمشيئته سبحانه وتعالى. وأن العبد عندما يُوقِن بذلك، ويربط إرادته وعزمه بمشيئة الله تعالى فإنه ينال بذلك رضاه جَلَّ في علاه، لأنه يستسلم لمشيئة ربه تبارك وتعالى، ويُطَهِّر نفسه من الحول والقوة إلا بإرادة الله تعالى، فيتوكل عليه، ويستعين به، لأنه هو المعين وهو الموفق والقاهر فوق عباده تبارك وتعالى.

وكلمة ﴿ غَدًا ﴾ في قوله ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴾ تشمل زمن المستقبل كله، فهي تعني: ما يُستقبل من الوقت، سواء كان ساعة، أو يوماً أو أكثر. إذ من دقائق البيان أن إضافة ﴿ غَدًا ﴾ تفيد عموم المستقبل، مع التأكيد، فهي تحديد وتأكيد الغد، مع شمولية ما بعده من زمن المستقبل، من غير تحديد، لأنه لو حُذِف من النص كلمة ﴿ غَدًا ﴾ لأصبح السياق: ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك إلا أن يشاء الله. وهذا من عمق النص الكريم، إذ ليس في القرآن العظيم المجيد كلمة زائدة، بل إن لها مقصد دقيق، ودلالة عميقة في معطيات النص. قال الجمهور من العلماء، كما نقله ابن الجوزي رحمهم الله جميعاً: أن المعنى: إذا نسيت الاستثناء ثم ذكرت، فقل: إن شاء الله، ولو كان بعد يوم، أو شهر، أو سنة، قاله سعيد بن جبير، والجمهور[١] فالاستفادة كانت من دلالة إضافة ﴿ غَدًا ﴾ فقد أفادت الاستقبال. فكلمة ﴿ غَدًا ﴾ تعطي دلالة أنه إذا كان هذا لازما في الأقرب الذي هو غداً فهو في الأبعد ألزم، لتأكيد المبالغة في ربط العزم والإرادة على فعل الشيء بقول: إن شاء الله. بل بلغ لزومه إلى حد أنه مطلوب في القريب المعزوم عليه، والذي تقررت الإرادة فعله، فكيف بما هو أبعد زمناً، والذي قد تَحُوُل الصوارف دون فعله وتحقيقه.

فكلمة ﴿ غَدًا ﴾ تفيد القرب الزماني، وتفيد بيان قُرب القدرة والتمكن من فعل الشيء المعزوم على فعله، لأنه بالقياس عند الإنسان فإنه قريب من التمكن والتحصيل. بعكس الشيء البعيد، فإنه كلما تباعد قد تتبعه ضعف القدرة على الفعل، فإذا كان ربط فعل الشيء بمشيئة الله تعالى فيما هو الغد القريب فإن فيما هو أبعد أكثر لزوماً وحاجة إليه. فالأبعد من غد تتطول المسافة الزمنية فيه وله، وكلما طالت قد تضعف معها القدرة على الفعل، فالجزم على فعله أضعف.

ثم يوجه سبحانه وتعالى نبيه صلى الله عليه وسلم والمؤمنون تبعاً لنبيهم صلى الله عليه وسلم بقوله عَزَّ وجل ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾ فاذكر الله تعالى عند حصول النسيان، فإذا نسيت الشيء فاذكر الله

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٥/٨٩)

تعالى لِيُذَكّرك إياه. مما يبين أن في ذكر الله تعالى ما يُزِيل النسيان، وفي هذا معالجة لما يحصل للإنسان من النسيان، مما يبين أن منهج الله تعالى لا ينفي عن الإنسان الطبيعة التي خُلِق عليها، كالنسيان، ولكن يضع لها العلاج المناسب الذي يتحقق به المأمور والمطلوب. فإذا نسي الإنسان شيئاً أو أمراً أو مقولاً يريد قوله فعليه أن يذكر الله سبحانه وتعالى. وهذا يبين مدى افتقار الإنسان لربه تبارك وتعالى، حتى فيما ينساه، بذهابه عن ذاكرته، كما يبين هذا مدى ضعف الإنسان، وأن الذي يقويه ويشد عضده هو الله تبارك وتعالى، فعليه أن يُكثر من ذكر الله عَزَّ وجل. وورد الأمر بذكر الله تعالى عاماً، دون تخصيص لنوع من الذكر ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾ فيستوفي جميع أنواع ذكر الله تعالى، كالتسبيح، والتهليل، والاستغفار.

ومن الفوائد الفقهية ما ذكره ابن جرير رحمه الله تعالى عن الرجل يستثني في يمينه بعد مدة من حال حلفه. حيث قال: بل الصواب أن يستثني ولو بعد حنثه في يمينه، فيقول: إن شاء الله. ليخرج بقيله ذلك مما ألزمه الله في ذلك بهذه الآية، فيسقط عنه الحرج بتركه ما أمره بقيله من ذلك، فأما الكفارة فلا تسقط عنه بحال، إلا أن يكون استثناؤه موصولاً بيمينه[١] وفائد الاستثناء أن يخرج الحالف من الكذب، إذا لم يفعل ما حلف عليه، كما في قصة موسى عليه السلام في سورة الكهف ﴿ قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ ﴾ ولم يصبر، فسلِم من الكذب لوجود الاستثناء في حقه. وقال ابن الجوزي رحمه الله تعالى: ولا تختل الرواية عن أحمد أنه لا يصح الاستثناء في الطلاق والعتق. وأنه إذا قال: أنت طالق إن شاء الله، وأنت حر إن شاء الله، أن ذلك يقع. وهو قول مالك، وقال أبو حنيفة والشافعي: لا يقع شيء من ذلك. وأما اليمين بالله تعالى فإن الاستثناء فيها يصح، بخلاف الطلاق، وكذلك الاستثناء في كل ما يُكَفِّر، كالظهار والنذر، لأن الطلاق والعتاق لفظه لفظ إيقاع، وإذا عُلِّق به بالمشيئة، علمنا وجودها، لوجود لفظ الإيقاع من جهته، بخلاف سائر الأيمان، لأنها ليس بموجبات للحكم، وإنما تتعلق بأفعال مستقبلية.

وأما الوقت الذي يصح فيه الاستثناء فقد اختلف فيه على ثلاثة اقوال: أحدها: لا يصح الاستثناء إلا موصولاً بالكلام، وقد روي عن أحمد نحو هذا. وبه قال أكثر الفقهاء. والثاني: أنه يصح ما دام المجلس، قاله الحسن وطاوس، وعن أحمد نحوه. والثالث: أنه لو استثنى بعد سنة جاز، قاله ابن عباس ومجاهد، وسعيد بن جبير، وأبو العالية. وقال ابن جرير الطبري: الصواب للإنسان أن يستثني ولو بعد حنثه في يمينه، فيقول: إن شاء الله، ليخرج بذلك مما ألزمه الله في هذه الآية، فيسقط عنه الحرج، فأما الكفارة فلا تسقط عنه بحال، إلا أن يكون الاستثناء موصولاً بيمينه[٢]

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٢٧/١٥)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٩٠/٥)

وقد قرن سبحانه وتعالى بين ذكره وبين دعائه ﴿ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَهۡدِيَنِ رَبِّي لِأَقۡرَبَ مِنۡ هَٰذَا رَشَدٗا ﴾ فأمر بالدعاء بعد ذكره سبحانه وتعالى إذا حصل النسيان، فيدعو الله تبارك وتعالى بالهداية ﴿ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَهۡدِيَنِ رَبِّي لِأَقۡرَبَ مِنۡ هَٰذَا رَشَدٗا ﴾ فاسأل الله تعالى مزيد الهداية التي تقربني لأقرب الطرق والسُّبُل الموصلة إلى الهدى والرشاد. مما يفيد أن سلاح المؤمن للوصول إلى الرشد والاستقامة والحق هو معونة الله تعالى له، فليطلبها منه جَلَّ جلاله، فيستجديها العبد من ربه عَزَّ وجل بالدعاء والسؤال. فإن الله تعالى هو المسدد للعبد نحو الصواب والخير، فيقترب من الحق الراشد، ويصيبه.

ثم ينتقل السياق الكريم إلى بيان مدة ما لبثه أهل الكهف ﴿ وَلَبِثُواْ فِي كَهۡفِهِمۡ ثَلَٰثَ مِاْئَةٖ سِنِينَ وَٱزۡدَادُواْ تِسۡعٗا ﴾ فقد لبث فتية أهل الكهف نائمين في كهفهم ثلاثمائة سنة وتسع سنين. فقد أوضح الله تعالى خطأ وجهل من خاض في تقدير مدة نوم أهل الكهف، وأن الحقيقة هي ما ذكر الله سبحانه وتعالى، عالم الغيب والشهادة.

ثم يخبر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بما يقوله إذا سُئل عن مدة نومهم في الكهف ﴿ قُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثُواْۖ لَهُۥ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ أَبۡصِرۡ بِهِۦ وَأَسۡمِعۡۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيّٖ وَلَا يُشۡرِكُ فِي حُكۡمِهِۦٓ أَحَدٗا ﴾ يخبر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بأن يرد علم نوم أصحاب الكهف إلى الله تعالى ﴿ قُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثُواْ ﴾ ثم يصف علم الله تعالى، بأن ﴿ لَهُۥ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ فله علم ما خفي فيهما، وما غاب عن غيره، فإن ما هو غائب عن غيره فلا يغيب عليه سبحانه وتعالى. ثم تزداد المبالغة والتأكيد بمزيد الاستدلال ﴿ أَبۡصِرۡ بِهِۦ وَأَسۡمِعۡ ﴾ قال الإمام الشوكاني رحمه الله: ثم زاد في المبالغة والتأكيد، فجاء بما يدل على التعجب من إدراكه للمبصرات والمسموعات، فقال ﴿ أَبۡصِرۡ بِهِۦ وَأَسۡمِعۡ ﴾ فأفاد هذا التعجب عن أن شأنه سبحانه في علمه بالمبصرات والمسموعات خارج عما عليه إدراك المدركين، وأنه يستوي في علمه الغائب والحاضر، والخفي والظاهر، والصغير والكبير، واللطيف والكثيف. وكان أصله ما أبصره وما أسمعه، ثم نقل إلى صيغة الأمر(١) أي أتتعجب من كمال بصره وسمعه الذي أحاط بكل شيء، فلا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء.

(١) الشوكاني، فتح القدير (٢٧٩/٣)

ثم يخبر الله تعالى بنفي العلم والولاية لأحد من الخلق أن يتولى أمورهم، ممن خاضوا في ذلك. فقال عَزَّ وجل ﴿ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴾ فليس للخلق أحد غيره يتولى شأنهم، سواء أهل الكهف أو غيرهم، فلم يكل شأنهم لأحد غيره، بلطفه وكمال تدبيره وحكمه وحكمته، وليس لمخلوق طريق للعلم بها إلا بما يخبر به عباده سبحانه وتعالى ﴿ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴾ وليس له شريك في حكمه وقضائه وتشريعه تبارك وتعالى. فهو الحاكم في خلقه سبحانه وتعالى، والمتصرف فيهم، وفي شؤونهم وتدبيرهم. وفي هذا نفي لجميع أنواع الإشراك بالله تعالى، وأنه الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد سبحانه وتعالى.

﴿ وَٱتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ ﴾

يخاطب الله تبارك وتعالى نبيه صلى الله عليه وسلم آمراً له بتلاوة ما نزل عليه من القرآن العظيم ﴿ وَٱتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴾ فاقرأ أيها النبي ما أوحاه الله إليك من القرآن، فإنه الكتاب العظيم الذي لا مُبدل لكلماته، فضلاً عن معانيه وتشريعه، لأن كلماته ثابتة من ربك تبارك وتعالى، فلن يستطيع أحد أن يغير شيئاً منها. ولن تجد من دون ربك ملجأ تلجأ إليه.

وورد السياق بصيغة الأمر، ليفيد الاهتمام والتأكيد والمداومة، وتعظيم ما نزل من الوحي بالقرآن الكريم ﴿ وَٱتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ﴾ وتفيد كلمة التلاوة: القراءة والاتباع والتتابع، بما يتحقق به تتبع كلماته، كلمة بعد كلمة، وتتبع آياته، آية بعد آية، وتتبع توجيهاته وإرشاداته وتعاليمه، فإن في ذلك ما يهدي إلى الطريق المستقيم، وما يغنيك به عن غيره.

وقد سمى اللهُ تعالى القرآن ﴿ كِتَابِ رَبِّكَ ﴾ فأفاد بنسبته إليه سبحانه وتعالى التعظيم والتشريف والعناية والقوة والهيمنة لهذا الكتاب، بما يقرر به أنه كتاب الله تعالى لعباده، بل ويقرر عَزَّ وجل انتفاء وامتناع القدرة لأي مخلوق من أن يبدل كلمات الله تعالى ﴿ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ﴾ وفي هذا اثبات أن القرآن كلام

الله تعالى، بل التأكيد بأن كل كلمة هي من الله عَزَّ وجل، فإذا قرأ الإنسان القرآن العظيم فإنما يقرأ ويتلو كلام الله تعالى، كلمة كلمة. ويفيد كذلك التأكيد بأنه كتاب ربك الذي لا يستطيع أحد أن يبدل شيئاً منه، ولو كلمة واحدة، فضلاً عن أن يغير شيئاً منه. فلا أحد يستطيع أن يغير حُكماً، ولا تشريعاً، ولا نهياً، ولا أمراً بما حكمت به كلماته تبارك وتعالى ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ﴾ ولم يقل تبارك وتعالى: ولا مبدل لكتابه، بل من عمق البيان، وقوة امتناع التبديل أنه عَمِد إلى نفي تبديل الكلمة الواحدة منه، والتي تعني الحرف والفعل والاسم، واللفظة الواحدة. مما يبين قوة ثبات القرآن الكريم، وعظيم سلطانه جَلَّت قدرته، وأن القرآن باق كما أنزله الله عَزَّ وجل، وأن الله تعالى متكفل بحفظه من التغيير والتبديل والتحريف، فقد حَكَمَ بذلك من فوق سبع سماوات، فلن يستطيع أحد أن يغير أو يبدل ما حكم به، فهو مستعصي على من عاداه. وبالتالي فلن يتبدل تشريعه عَزَّ وجل، ولن يتبدل نهجه ومضمونه، وألفاظه وسياقه وكلماته. وأن ما أخبر به القرآن الكريم ماض، وما قصه ثابت، وأن ما وعد الله تعالى به من النصر لك ولعباده المؤمنين ثابت.

وجاء التأكيد على هيئة قاعدة عامة ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ﴾ فما وعد الله تعالى به فهو ماض كما وعد، فلا تبديل ولا ناقض لما وعد وحكم به. ولا مبدل لما أخبر به، ولا لقضائه، فإن قضاء الله تعالى نافذ كما يقضي. وفي هذا البيان إثبات معجزة القرآن بحفظه، إذ لم يستطع ولن يستطيع أحد أن يدلس أو يغير كلمة واحدة من كلماته، فمن فعل ذلك كشفه الله تعالى. بل أصبح محفوظاً في قلوب الملايين من المسلمين.

ثم يخبر الله تعالى بأنه يمتنع أن يجد بديلاً يعدل إليه ﴿وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾ لن تجد من دون الله موئلاً تَئِلُ إليه، ومعدِلاً تعدِلُ عنه إليه، لأن قدرة الله محيطة بك، وبجميع خلقه(١) وقال الشوكاني رحمه الله تعالى: إنك إن لم تتبع القرآن، وتتله وتعمل بأحكامه، لن تجد معدلاً تعدل إليه، ومكاناً تميل إليه(٢) قال الزجاج: معدلاً عن أمره ونهيه(٣) فلن تجد أيها النبي من دون هذا القرآن الكريم ملجأ، ومَعْدِلاً عن أمره ونهيه وتشريعه وبيانه. وقد سمى الله تعالى كل شيء غيره هو دونه، بما يفيد امتناع أن يعلو غيره عليه.

وفي هذا البيان تعظيم لشأن القرآن الكريم ومنزلته الرفيعة العظيمة، وهو تحذير في شخص النبي صلى الله عليه وسلم لكل من يعدل عن القرآن العظيم ويتجه لغيره، فإنه بالتالي لن يجد من دون الله تعالى ملجأً يلجأ إليه، فيحفظه ويحميه ويقويه وينصره. كما هو التحذير الشديد لكل من يحاول التبديل في ألفاظه ودلالاته وأحكامه وتشريعه. وإذا كان هذا التوجيه والخطاب لنبيه ورسوله المصطفى صلى الله عليه وسلم، فإنه للمؤمنين أعظم،

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٣٤/١٥)

(٢) الشوكاني، فتح القدير (٢٨١/٣)

(٣) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٩٣/٥)

وأن حاجتهم إليه وافتقارهم إليه لا تنقطع ولا تتوقف، فتمسكوا به، وعضوا عليه بالنواجذ. وفي جملة ﴿ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴾ ما يبين غزارة المعنى، فإنه يأتي بمعنى: لن تجد من دون هذا القرآن معدلا تلجأ إليه في أمره ونهيه وتشريعه، ويشمل المعنى كذلك على: أنك لن تجد من دون الله تعالى ملجأً تلجأ إليه، فيحفظك ويحميك ويقويك وينصرك.

ثم يبين الله تبارك تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم المنهج الذي يتعامل به مع المؤمنين ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴾ يأمر الله تبارك وتعالى نبيه عليه الصلاة والسلام بأن يُثَبِّت نفسه مع المؤمنين الذين اتصفوا بالمداومة في عبادتهم لربهم، والتجاؤهم إليه ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾ فقد ذكرهم الله تعالى بما اتصفوا به ﴿ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾ وفي هذا إثبات لمسلكهم ومنهجهم، وإثبات لِرَضَى الله تعالى عنهم، مع تشريفهم بأن الله تعالى يأمر نبيه صلى الله عليه وسلم بأن يتعاضد معهم، فيما هم عليه من العبادة. ويفيد الأمر بالصبر معهم على المبالغة في حبس النفس وتثبيتها على لزوم جماعتهم وجَمْعَتِهم، وفي الأمر للنبي صلى الله عليه وسلم بالصبر، ما يدل على قدرة الإنسان على مجاهدة النفس بالصبر، وأن الصبر من مقدورات الإنسان، من خلال التحامل على المأمور به ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ ﴾ وهذا يبين للمؤمن أهمية لزوم جماعة المؤمنين، وعدم تركها، وأن يجاهد الإنسان نفسه على بقائها، وبقائه معهم، وعدم تفرقها، فقد جاء الأمر في شخص الرسول صلى الله عليه وسلم مع أصحابه، ليفيد أنه يلزم كل مؤمن أن يحبس نفسه ويثبتها مع المؤمنين، وأن لا ينازعهم، ولا يفترق عنهم، ولا يناكفهم، ولا يعاديهم، بل يصبر على جماعتهم الصالحة.

وقد وصف الله تبارك وتعالى أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام بأنهم ﴿ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾ أي يذكرون الله تعالى بالتهليل والتكبير والتسبيح، والأعمال الصالحة، كالصلوات وغيرها من العبادات. فمنذ أن يصبحوا فإنهم يفتتحون يومهم بذكر الله تعالى ﴿ بِٱلْغَدَوٰةِ ﴾ وهو أول النهار ﴿ وَٱلْعَشِيِّ ﴾ وهو أول الليل. وذكر ابن الجوزي رحمه الله تعالى: أن المراد بالدعاء ﴿ يَدْعُونَ ﴾ الصلاة المكتوبة،

قاله: ابن عمر، وابن عباس رضي الله عنهم[١] والدعاء لله يكون بذكره وتمجيده، والثناء عليه قولاً، وقد يكون عملاً بالجوارح، بما فرض عليهم[٢] فهي شاملة للعبادة مطلقاً. وتخصيص الغداة والعشي من بين بقية الأوقات التي كانوا يذكرون الله تعالى فيها، بياناً لفضل هذين الوقتين من بين جميع الأوقات، حيث ورد التخصيص لهما في أكثر من آية، ومن ذلك قوله تعالى في سورة غافر ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٥٥﴾﴾ وفي هذا ما يفيد مبالغتهم ومتابعتهم في الذكر على وجه الخصوص وعلى وجه العموم، ابتداء من أول النهار لآخره، وتخصيص أول النهار وآخره ﴿بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾ لفضلهما.

ومن شمولية البيان أن جملة ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾ أشمل من أن تُحد بنوع من العبادة والذكر، فقد جعلها الله تعالى عامة، لتفيد العموم، وليس التخصيص، وليتبين من ذلك شدة حرصهم على ما يرضي الله تعالى، بكل ما يستطيعون مما عرفوه من نبيهم صلى الله عليه وسلم من العبادات، ومن رحابة دلالة ما يدعون ربهم به ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾ ورحابة ما تحمله من التنوع، وكثرة عبادتهم رضي الله عنهم لربهم جَلَّ جلاله، أن قد تنوع فهم الصحابة وأهل التفسير في دلالتها: فقيل: أنها الصلاة المكتوبة، وأنه ذِكر الله تعالى، وأنه عبادة الله تعالى عموماً، وأنه تعلم القرآن غدوة وعشية، وأنه دعاء الله تعالى بالتوحيد، والإخلاص له، وعبادته[٣] فيدعونه ويسألونه سبحانه وتعالى الهداية والتوفيق ﴿بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾ أول النهار وآخره، هدفهم أنهم ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ أي: يريدون رضى الله تعالى، فلا يريدون بذلك عرضاً من الدنيا، وفي هذا تزكية لأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ورضي الله عنهم من ربهم جَلَّ في علاه. وكذلك فيه مدح وثناء لهم ولِمَا يقومون به من كثرة العبادة والذكر، كما أن التزكية اشتملت على صحة العمل، وصحة النية بإرادتهم وجه الله تعالى بما كانوا يعملون، مما يفيد أن إرادة وجه الله تعالى بالذكر والعبادة عموماً شرط للقبول.

وبعد التوجيه والبيان لعلة ملازمتهم للعبادة، يوجه الله تبارك وتعالى نبيه صلى الله عليه وسلم إلى دقائق عن هيئة الملازمة والاعتضاد بهم، وذلك بعدم الالتفات لغيرهم ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ أي: لا تتجاوز نظرتك إلى غيرهم، رغبة في ذوي الهيئات من كبراء قريش، طمعاً في إسلامهم ﴿تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: تريد مجالسة أهل الهيئات والمكانة، ممن ترغب في إسلامهم، وهم يتعنتون ويتكبرون. وهذه قاعدة عملية في

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٣٣/٣)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٦٩/٩)

(٣) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٣٣/٣)

كيف تتعامل أيها النبي وغيرك من المؤمنين مع طالبي زينة الحياة الدنيا، فلا تجعل رغبتك في إسلام ذوي المكانة والهيئات من قومك الذين يطلبون منك ترك الفقراء والضعفاء من المؤمنين، بل الزم جماعة المؤمنين الذين اتصفوا بمحبتهم لله تعالى، وعبادتهم له، ولا يكن طمعك في اسلام غيرهم له أثر في استرضائهم والاتجاه لمعيتهم، وفي هذا تشريع وبيان بأن الضعيف والفقير من المؤمنين خير في كل وجه من الكافرين، مهما بلغ نفوذهم.

كما فيه تشريع لوجوب لزوم جماعة المؤمنين، وألا يكون دعوة ومحبة إسلام الغير مفضية ومؤدية إلى الإخلال بتماسك جماعة المسلمين. وفي هذا بيان لمنهجية التعامل، والتكاتف بين المسلمين على أي مستوى كانوا، وفي أي مكان كانوا. وفي هذا التوجيه من الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم في شأن المؤمنين ما يبين منزلتهم ومكانتهم عند الله تعالى، حتى أن الله عَزَّ وجل وَجَّهَ نبيه عليه الصلاة والسلام في شأنهم، وشأن الحفاوة بهم. فسبحان الله تعالى الذي أعزَّ نبيه وأعزَّ أصحابه رضي الله عنهم، وأبغض من يُبغضهم ويتنقص منهم، فلم تغن عنهم منزلتهم الدنيوية شيئاً. وفيه بيان بأن لا يغتر المؤمن بزينة الحياة الدنيا، وأن القوة من الله تعالى، وليست بما يتوقعه الإنسان.

ثم يأتي التوجيه العظيم الآخر من الله تعالى ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴾ فلا تطع أحداً أيها النبي من الذين عاندوا الحق، واستحبوا الكفر على الإيمان، فأغفل الله تعالى قلوبهم عن أن يذكروا ربَّهم تبارك وتعالى، فاتبعوا أهواءهم. وفي هذا نهي من أن يطيع عليه الصلاة والسلام أحداً من المشركين، فيلبي له مطلباً مخالفاً للدين، ووصفهم الله تعالى بما هم عليه من غضبه عَزَّ وجل ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا ﴾ فلا تطع من جعلناه غافلاً عن ذكرنا، جزاء له على عناده وتكبره على الحق، كمثل الذين يشترطون أن يكون لهم مجلساً لا يجلس فيه فقراء وضعفاء المؤمنين. فقد كان من أشراف العرب من طلب تنحية الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي، وقد ذكر ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى بعض الروايات التي تدل على أن أشرافاً من العرب، كانوا يطلبون من النبي صلى الله عليه وسلم أن يُنحي فقراء المسلمين عنهم، أو أن يجعل لهؤلاء مجلساً ولهؤلاء مجلساً، تكبراً منهم[1] فنهاه الله تبارك وتعالى عن مطاوعة المشركين في ذلك.

ومن صفات هؤلاء المشركين قوله تعالى عنهم ﴿ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴾ فإن أمرهم وشأنهم ضياعاً وهلاكاً وحسرة وندامة، لأنه مخالف للحق. فيعطي هذا التوجيه الكريم قواعد مهمة في قضية التعامل مع مثل هذه المواقف. والتي منها: لزوم جماعة المسلمين، وعدم الحياد عنها، فضلاً عن السعي أو التسبب في فرقتها،

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٥/٢٣٩-٢٤١)

ومنها كذلك عدم الغرور بزينة الحياة الدنيا، وبأهل الباطل، وأفكارهم ومناهجهم، ومطالبهم الظالمة، وعدم تقديمهم على المؤمنين.

ثم يتدرج التوجيه الكريم إلى بيان المنهج الذي يلتزمه النبي صلى الله عليه وسلم، ويلتزمه المؤمنون جميعاً ﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ أي: قل يا أيها النبي للناس: أن هذا الحق الذي جئتكم به هو من ربكم ﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ﴾ فإن هذا الهدى الذي أتيتكم به، هو من ربكم تبارك وتعالى، وهو الحق الذي لا ريب ولا جدال فيه. وكلمة ﴿ ٱلْحَقُّ ﴾ تفيد أنه حق، فينكشف به الضلال، وأنه الحق الذي يُبطل الباطل، وأنه الرُّشد الذي يدحض الغي، وهو الذي يتميز به أهل الصراط السوي عن أهل الانحراف، وينفصل به أهل السعادة عن أهل الضلالة والشقاوة. وفيه تعيين وإثبات علو المصدر، بأنه ﴿ مِن رَّبِّكُمْ ﴾ فإن هذا الحق الذي جئتكم به هو من الله تعالى، وليس من عندي، فأتطاول به عليكم. بل إنني عبد الله ورسوله.

فأنتم أمام طريقين: الأول: طريق مفضي إلى الجنة، والثاني: الطريق المفضي إلى النار والعذاب الشديد ﴿ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ فلكم ما تشاؤون وما تختارون ﴿ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن ﴾ فمن أراد طريق الحق والجنة فعليه بطاعة الله تعالى، فيؤمن بما جاء به رسوله محمد صلى الله عليه وسلم من الحق ﴿ وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ ومن أراد الكفر وما يفضي إليه من النار والعذاب الشديد، بالامتناع عن الطاعة والامتثال فله ما يَتْبَعُهُ من العذاب والعقاب. وفي هذا وعيد وتهديد، ولست عليكم بوكيل. مما يفيد أن للإنسان مشيئة في اختيار الإيمان أو الكفر، والاستقامة أو الانحراف، وأنه هو الذي يختار ما يريد، إما طريق الجنة أو طريق النار، فيكون الجزاء وفق اختياره ومسلكه، لأن الله تعالى لا يظلم أحداً من عباده. وفيه بيان بأن النبي صلى الله عليه وسلم ليس مُلْزِمٌ للناس على الإسلام، بل هو مبشر ونذير لهم. فمن اختار الكفر فقد قامت عليه الحجة، ومن آمن فقد وفقه الله تعالى للخير والهدى.

وفي هذا البيان من الله تعالى تهديد ووعيد لمن اختار الكفر عن الإيمان ﴿ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ فهو تهديد لمن اختار الكفر، وبشارة لمن آمن، لما يترتب على كل واحد منهما من الثواب والعقاب. مما يبين أن هذا البيان يوضح مسؤولية الإنسان عن نفسه التي يُحَاسَب ويجازى عليها، لأن بعثت المرسلين عموماً وبعثته صلى الله عليه وسلم للناس هي من أجل أن يؤمنوا، بعد إيضاح الحق لهم بالدليل والحجج.

حيث أعقب هذا البيان عظيم التهديد والوعيد لمن سلك الكفر بعد معرفته للحق بآياته وحججه الساطعة ﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمۡ سُرَادِقُهَاۚ وَإِن يَسۡتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٖ كَٱلۡمُهۡلِ يَشۡوِي ٱلۡوُجُوهَۚ بِئۡسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتۡ مُرۡتَفَقًا ﴾ وفي هذا بيان لحال من عاند وكفر ﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا ﴾ فقد أعدَّ اللهُ تبارك وتعالى للظالمين الكافرين ناراً ﴿أَحَاطَ بِهِمۡ سُرَادِقُهَا ﴾ أي: أحاطت بهم في النار أسوارها، فلا مجال للخروج والهروب منها. وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال (سُرَادِقُ النار أربعة جُدُرٍ، كِثْفُ كُلِّ واحد مِثْلُ مَسِيرَةِ أربعين سنة)[١]

ومن صفة عذاب من كفر، أنهم ﴿وَإِن يَسۡتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٖ كَٱلۡمُهۡلِ ﴾ وإن يطلبوا العون والغوث مما هم فيه من شدة العطش ﴿يُغَاثُواْ بِمَآءٖ كَٱلۡمُهۡلِ ﴾ أي كالرصاص المذاب، والزيت العكر، الشديد الحرارة، مما يبين قبح لونه، وشكله ورائحته. إذ أن الْمُهل، هو ما أُذيب من مكونات الأرض بالنار، كالحديد والرصاص والنحاس، والسوائل الثقيلة كالزيت العكر. ومن شدة حرارته أنه ﴿يَشۡوِي ٱلۡوُجُوهَ ﴾ فيشوي وجوههم.

ثم يأتي وصف مآلهم، بأشنع الوصف وأبشعه ﴿بِئۡسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتۡ مُرۡتَفَقًا ﴾ ودلالة ﴿بِئۡسَ ﴾ مستوفية لكمال الذم، كما أن "نعم" مستوفية لكمال المدح، وهو من البؤس الذي يمثل وصف سوء الحالة. فبئس الشراب، وسوء المرتفق ﴿وَسَآءَتۡ مُرۡتَفَقًا ﴾ أي: ساءت مُجْتَمَعَاً ومجلساً ومتكأً، فبئس ما اختاروا لأنفسهم حتى كانت جهنم هي المصير لهم. فنسأل الله تعالى العافية. وفي هذا ما يفيد التحذير لهم من المآل، والتحذير من مسلك الكفر والعناد. وأن فيما وقع لهم عبرة لغيرهم ولكل مُعْتَبِر. وهذا الترهيب بالجزاء يُحذِّر الْمُخاطب من الكبر والهوى المنافي لرضوان الله تعالى، كما أنه يوطد ويزيد من إيمان المؤمن، والتحذير له من المعصية، ومما قد يطرأ عليه من ضعف قد يحل به عند رؤية مغريات الدنيا الفانية، ومن كل مرغوب ومَطْمَعٍ تضعف أمامه مقاومته له، فإذا تذكر ترهيب الله تعالى ووعده ومجازاته انكفأ عن مراده الخاطئ. مما يعزز أهمية بيان العقوبة وحجمها، حتى تكون رادعاً له، وحجة قائمة عليه.

---

[١] الحاكم، المستدرك (٦٠١/٤) والطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٤٧/١٥)

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ مَنۡ أَحۡسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَيَلۡبَسُونَ ثِيَابًا خُضۡرٗا مِّن سُندُسٖ وَإِسۡتَبۡرَقٖ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِۚ نِعۡمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتۡ مُرۡتَفَقٗا ﴿٣١﴾ ﴾

ثم ينتقل السياق إلى بيان جزاء من آمن وعمل صالحاً، ليكون بشارة للمؤمنين، وترغيباً وحجة على الناس ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ مَنۡ أَحۡسَنَ عَمَلًا ﴾ يبشر الله تعالى عباده الذين أطاعوه، فجمعوا بين الإيمان والأعمال الصالحة بأنه سبحانه وتعالى لن يُنقِصَهم عما يستحقون من الأجر شيئاً، فإنه سيوفيهم كمال المثوبة. فقد جمع الله تعالى في صفة الذين لهم كمال المثوبة صفة الإيمان وصفة عمل الصالحات. فصفة الإيمان التي تعني التصديق الكامل لأركان الإيمان التي ذكرها النبي صلى الله عليه وسلم في حديث جبريل، عندما سأله عن الإيمان، فقال صلى الله عليه وسلم (أن تؤمن بالله، وملائكته، وكُتبه، ورُسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره)[١] وفي رواية للبخاري رحمه الله تعالى: إضافة الإيمان بلقائه (الإيمان: أن تؤمن بالله وملائكته وبلقائه، ورسوله، وتؤمن بالبعث)[٢]

وأما ﴿ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ فإنها جامعة للعبادات جميعها، وكل ما يحبه الله تعالى ويرضاه من الأقوال والأعمال الصالحة، فيدخل في ذلك شهادة ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وصوم رمضان، وإيتاء الزكاة، وحج البيت من استطاع إليه سبيلا، والنوافل والسنن، ومكارم الأخلاق، والإحسان في كل وجه يحبه الله تعالى. فهؤلاء الذين آمنوا وعملوا الصالحات قال الله تعالى عن ثوابهم ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ مَنۡ أَحۡسَنَ عَمَلًا ﴾ فهؤلاء لن يفقدوا شيئاً من ثواب أعمالهم، فهو كمال الاستيفاء لكل ما قاموا به من قليل أو كثير، فهو استقصاء دقيق لأعمالهم، وإثابتهم عليها بأكمل الثواب.

ومن جميل البيان ودقائقه أن خصص سبحانه وتعالى صفة العمل ﴿أَجۡرَ مَنۡ أَحۡسَنَ عَمَلًا ﴾ بعد أن عممه حين أشركه مع الإيمان ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ فالتخصيص لمن أحسن عملاً أفاد التنافس والتشجيع والترغيب في إحسان العمل على أكمل وجه، وعدم الاكتفاء بحد الأداء. وكذلك من دقائق التوجيه الكريم أن في ذلك وصف من الله تعالى لأعمالهم بالْحُسن ﴿مَنۡ أَحۡسَنَ عَمَلًا ﴾ فالإحسان

---

(١) مسلم، صحيح مسلم (٣٦/١-٣٧) برقم (٨)

(٢) البخاري، الجامع الصحيح (٣٣/١) برقم (٥٠)

في العمل يعني استيفاؤه، والذي وصفه صلى الله عليه وسلم بالإحسان، وهو قوله عليه الصلاة والسلام (أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك)[١] فاستحضار هيئة التعامل مع الله تعالى، ترفع مستوى ودرجة إحسان العمل. بأنك أيها المؤمن تتعامل مع الله عَزَّ وجل وكأنك تره، وهو يراك، فيثيبك على الكمال، ويحاسبك ويعاقبك على التقصير، ليتحقق به الإخلاص والكمال في الأداء، فيندفع المؤمن بتلك الحال إلى استيفاء الكمال. مما يفيد تحريض الله تعالى وتشجيعه لعباده على الأكمل والأحسن والأجمل في كل قول وفعل. كما تفيد الآية الكريمة أنه لا فصل بين الإيمان وبين طاعة الله تعالى بعمل الصالحات في فرائضه وغيرها لتحصيل جميل الثواب، فقد ربط الله تعالى بينهما كشرط لكمال المثوبة.

فهناك شرطان لتحصيل ذلك الفوز العظيم، فالشرط الأول: الإيمان ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ أي: صَدَّقُوا بقلوبهم، فآمنوا بجميع موجبات الإيمان وحقائقه، من غير استثناء. فآمنوا بالله تعالى، وبرسوله صلى الله عليه وسلم، وبالقرآن، وبيوم القيامة، والبعث، والحساب، والجزاء، والجنة والنار، وبجميع كتبه ورسله، وكل ما هو متعلق بالإيمان. وأما الشرط الثاني: فهو ﴿ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ التي هي الطاعة لله تعالى. وهي: الأعمال التي أمر الله تعالى بها، لأن جميع ما أمر الله تعالى به هو من الصالحات، لتستوفي صفة الصلاح جميع شرعه، وما فيه من الأوامر والنواهي. وفي هذا تقرير بأن منهج الله تعالى قد انتفى منه وعنه الباطل من كل وجه، وثبت صلاح ما فيه للفرد والمجتمع، وفي الدنيا وفي الآخرة، فإن قوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ قد جمعت كل الصلاح. وهي غاية في كمال دلالتها، وبلاغة مضمونها، وجزالة ألفاظها. فإن أهلها ﴿ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ ﴾ مما يبين منزلة طاعة الله تعالى.

ثم يستأنف البيان الكريم تفاصيل الأجر الذي أعده الله تبارك وتعالى للذين آمنوا وعملوا الصالحات من أنواع النعيم المقيم ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ فأولئك الموصوفون بالإيمان والعمل الصالح ﴿ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ فإن مكان إقامتهم ومساكنهم هي ﴿ جَنَّٰتُ عَدْنٍ ﴾ أي: في وسط الجنة الذي هو أعلاها، وهي إقامة دائمة لا تنقطع، وهي أعلى درجة في الجنة، وسقفها عرش الرحمن جَلَّ وعَز، وفيها عين التسنيم، والجنان حولها محدقة بها[٢] وهي جنات

(١) المرجع السابق (٣٣/١) برقم (٥٠)

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٣٠/٨) وابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٣١٨/٣) ملخص

استقرار وثبات، قال أبو عبيدة أي: في جنات خُلْد، يُقال: عَدَن فلان بأرض كذا، أي: أقام[١] فكلمة ﴿ عَدْنٍ ﴾ استوعبت معنى العلو، وشملت الإقامة الدائمة، التي لا تحول ولا تزول، فلا نهاية لها.

ومن جليل أوصافها أنها ﴿ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَـٰرُ ﴾ أي: تجري من تحت أشجارها ومن تحت منازلهم الأنهار، وكلمة ﴿ ٱلْأَنْهَـٰرُ ﴾ تفيد الكثرة، فليس نهر واحد، بل أنهار متعددة، كما أفادت كلمة ﴿ تَجْرِى ﴾ أنها أنهار متدفقة، لا ينقطع ماؤها، ولا يقل، بل دائمة الجريان، وأفادت كلمة ﴿ مِن تَحْتِهِمُ ﴾ أن مكان جريانها هو من دونهم، وبين أيديهم، ومن بين أشجارها، مما يعني علو وارتفاع المساكن التي يسكنونها الذين آمنوا وعملوا الصالحات.

ثم يزداد فضل الله جَلَّ جلاله على الذين آمنوا وعملوا الصالحات، بأن يجملهم بالزينة ﴿ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ ﴾ فيتجملون بأحسن الزينة، وأكملها منظراً وجمالاً، فيلبسون من الحلي أساور من ذهب. قال سعيد بن جبير رحمه الله تعالى: يُحَلَّى كل واحد منهم بثلاثة من الأساور، واحد من فضة، وواحد من ذهب، وواحد من لؤلؤ ويواقيت[٢] وقد ذكر الله تعالى تلك الأنواع من الأساور في آيات أخرى من كتابه العظيم، فقال تعالى في سورة فاطر ﴿ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ ﴾ وقال تعالى في سورة الإنسان ﴿ وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ ﴾ ثم يزداد وصف الفضل والنعيم ﴿ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ ﴾ فإن ملابس الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴿ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ ﴾ لونها أخضر، قال الإمام القرطبي رحمه الله تعالى: وخص الأخضر بالذكر لأنه الموافق للبصر[٣] ﴿ مِّن سُندُسٍ ﴾ قال ابن كثير رحمه الله تعالى: ثياب رفاع رقاق، كالقمصان وما جرى مجراها، وأما ﴿ وَإِسْتَبْرَقٍ ﴾ فغليظ الديباج، وفيه بريق[٤]

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٣/٣١٨)
(٢) المرجع السابق (٥/٩٦)
(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٠/٢٥٨)
(٤) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣/٨٧)

وكذلك من فضل الله تعالى عليهم، أنهم ﴿ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ ﴾ متكئين في جنات عدن على الأرائك، وهي: السرر في الحجال[1] والحجال: هي مواضع تزين الثياب والستور، أو الستائر، والأسرة. أي أنها السرر المزينة بالفاخر من الثياب، فتكون أريكة إذا تجملت بتلك الثياب. وكلمة ﴿ مُّتَّكِـِٔينَ ﴾ تعني الاتكاء، والاضطجاع، وهذا يدل على كمال النعيم، وكمال الراحة والاستمتاع الذي لا تعب ولا نصب فيه، فهم في كمال السرور والمتعة. ثم يصف الله تعالى ما هم فيه من الثواب، بأنه أحسن الثواب وأكمله ﴿ نِعۡمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتۡ مُرۡتَفَقًا ﴾ فإن نعمة الجنة ثواباً عظيماً للذين آمنوا وعملوا الصالحات، فأنعم بها من مثوبة عظيمة ﴿ وَحَسُنَتۡ مُرۡتَفَقًا ﴾ وحَسُنَة منزلاً ومُقاماً.

وفي هذا البيان من نعيم البشارات الربانية لعباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات ما يدفعهم للمسارعة في الطاعة، بل بذل الجهد لتحقيق أعلى درجات الإحسان، الذي به ترتفع درجات المؤمن إلى أعلى عليين. فاسأل الله تعالى أن يرزقنا أعلى جنة الفردوس، ويجعلنا بمنه وكرمه من أهله وخاصته، وألا يحرمنا مرافقة النبيين والصديقين والصالحين والشهداء.

﴿ وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلٗا رَّجُلَيۡنِ جَعَلۡنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيۡنِ مِنۡ أَعۡنَٰبٖ وَحَفَفۡنَٰهُمَا بِنَخۡلٖ وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمَا زَرۡعٗا ﴿٣٢﴾ كِلۡتَا ٱلۡجَنَّتَيۡنِ ءَاتَتۡ أُكُلَهَا وَلَمۡ تَظۡلِم مِّنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ وَفَجَّرۡنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرٗا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٞ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدٗا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهَا مُنقَلَبٗا ﴿٣٦﴾ ﴾

ينتقل السياق الكريم إلى بيان المفارقات بين مسلك النفس البشرية الكافرة المتغطرسة، والمتفاخرة، والمتعالية المتكبرة، التي اغترت بما حباها الله تعالى من الخير، وبين النفس البشرية المؤمنة العابدة المتواضعة، المدركة أن الفضل بيد الله تعالى، يؤتيه من يشاء تفضلاً وابتلاء واختباراً، لتكون هذه المقارنة درساً وعبرة وموعظة لمن أراد أن يعتبر ويستقيم كما أمر الله تعالى. فقال جَلَّ جلاله ﴿ وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلٗا رَّجُلَيۡنِ جَعَلۡنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيۡنِ مِنۡ أَعۡنَٰبٖ وَحَفَفۡنَٰهُمَا بِنَخۡلٖ وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمَا زَرۡعٗا ﴾ يوجه تبارك وتعالى الخطاب إلى لنبي صلى

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٥٥/١٥)

الله عليه وسلم بأن يضرب للناس عموماً، مثلاً لرجلين من الأمم السابقة: أحدهما مؤمن والآخر كافر، وينقل لهم ما دار بينهما من حوار بنص كريم يتلوه عليهم من سورة الكهف المباركة.

فقد امتن اللهُ تبارك وتعالى على الكافر بحديقتين من أعناب، وأحاطها بنخل كثير، وأنبت سبحانه وتعالى في وسطها زرعاً كثيراً. وبدأ التوجيه الكريم لنبيه صلى الله عليه وسلم بفعل الأمر ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم ﴾ أي: اذكر لهم تشبيها يكشف لهم وجه الشبه بين مسلك الكفر ومسلك الايمان، وأثره على فكر ونهج صاحبه، ويكشف لهم به عاقبة البطر والتمرد على الحق، وكلمة ﴿وَٱضْرِبْ ﴾ تفيد القوة، أي: قوة المثل في إيصال الموعظة والحق، وكشف الغي والباطل، ليعطي قوة المثل المضروب في تأثيره على فهم وفكر المخاطبين. وفي كلمة ﴿وَٱضْرِبْ ﴾ ما يفيد الإيراد والإخبار، فأَوْرِد، وقُصَّ على المخاطبين ﴿مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ ﴾ والمثل هو البيان للحالة والصفة التي يمثلها الرجلين: الكافر والمؤمن. وهو الكلام المشتمل على التشبيه. مما يفيد أهمية ضرب المثل للمُخَاطب، من أجل إيصال الحق له، وتعريفه وتعليمه الحقائق، بنقل الفهم بالمثل من الجهل إلى العلم، ويفيد كذلك أهمية ضرب المثل في التعليم، وفي النصح والإرشاد. ومن جميل البيان أنه لم يذكر ما لا حاجة ولا فائدة للمتلقي في ذكره، فلم يعين الرجلين باسميها، ولا مكانها، لأنه لا حاجة ولا فائدة للمتلقي في ذلك، مما يفيد أهمية الاختصار والاقتصار في الوعظ على ما ينتفع الإنسان به، دون الخروج به وبفكره إلى ما لا نفع فيه له، بل يجعل ذهنه في محور الهدف والقضية الأصلية. وهذه من مميزات أساليب القرآن الكريم.

وفي استخدام كلمة الضرب ما يشد الانتباه، لما في الكلمة من القوة والبيان والدلالة، واسم الإشارة ﴿لَهُم ﴾ تشير إلى المتغطرسين المتكبرين من المشركين والكافرين عموماً، من الذين يرفضون الحق بطراً، ليدركوا خطر ما هم فيه، وأن الله تعالى قد يحرمهم ما هم فيه من النعيم بهلاكهم، وكذلك ليزداد المؤمنين بهذا المثل إيماناً وتوكلاً وطاعة وامتثالاً، وعلماً بتدبير الله تعالى، وبعقابه لمن عصى، فلا يغرهم مالٌ، ولا غِنى من أغناه الله تبارك وتعالى. وإن ضرب المثل في القرآن الكريم يعطي الصورة المماثلة للحقيقة، مما يبين أهمية ضرب الأمثال في المواعظ والتعليم والإرشاد، فإنها مما يقرب المعنى والحال والصورة إلى الذهن، وليس هناك أبدع من أمثال كتاب الله تعالى في ألفاظه ومعانيه، وبلاغته، وأثر دلالاته، وقوة مخاطبته للعقل، وإثارة الحس والنفس نحو دلالاته ومعانيه. اللهم انفعنا بكتابك وسنة نبيك محمد صلى الله عليه وسلم.

فالغاية من ضرب الأمثال للناس هو ليحققوا بها في أنفسهم ما يتذكرون به الحقيقة التي توصلهم إلى طاعة الله تعالى، وإلى ما ينفعهم، باتباع نبيه عليه الصلاة والسلام، وذلك من خلال مفهوم الأمثال المضروبة لهم، وما تُوصلهم إليه تلك الأمثال من الحقائق والمعاني بأدق بيان، وأوضح صورة، فيتعظوا ويعتبروا. لأن في ضرب الأمثال ما يقرب الحقيقة والمعاني في أدق صورة لها. مما يبين أن منهج الإسلام قائم على الحقائق والإقناع، بتوضيح الصورة والواقع بأدق الأساليب، والتي منها ضرب المثل لمعرفة وإدراك الحق والأخذ به وترك الباطل.

ثم شرع البيان العظيم في شرح وتفصيل حال الكافر الذي أنعم الله تعالى عليه بجنتين ﴿ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴾ أي: أنعم الله عَزَّ وجل عليه بحديقتين، أو مزرعتين، أي: بستانين عظيمين بما فيهما من الخير العظيم، سواء من حيث الكثرة، أو من حيث تميزهما بالترتيب والتنسيق وبأفضل الثمار، وهما الأعناب والنخيل. وبمنظرهما البديع ﴿ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴾ وورد تصوير شكل البستانين بأدق التفاصيل الموضحة لهيئتهما وشكلهما البهيج، فالجنتان ممتلئتان بأشجار العنب المعروش على العريش، لأن العنب من المعروشات الممتدة، كما قد أحاط بالأعناب سياج من أشجارُ النخيل الباسقات في ارتفاعها، فجملة ﴿ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ ﴾ تفيد الإحاطة، أي: أحاط النخيل بالأعناب، وما ينتج عن تلك الإحاطة بالنخيل من الظلال على الأعناب والزروع، و ما يحصل بذلك من الوقاية والحماية لها، ثم جعل سبحانه وتعالى الزروع في وسط الجنتين ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴾ أي: أن الله تعالى جعل زروعاً كثيرة ومتنوعة بين تلك الجنتين المحفوفتين بالأعناب المحاطتين بالنخيل. وكلمة ﴿ زَرْعًا ﴾ وردت عامة، لتفيد تنوع ذلك الزرع الذي كان في وسط الجنتين، من أنواع الخضار والفواكه. فكانت صورة وهيئة بهيجة للجنتين، فهي في غاية الجمال والتخطيط والتنظيم، الذي يُدخل البهجة والسرور على من دخلها.

ثم يُخبر الله تعالى عن فيض عطائه وكرمه وجميل تدبيره في هاتين الجنتين ﴿ كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا ﴾ فكل واحدة من الجنتين ﴿ آتَتْ أُكُلَهَا ﴾ أي: أعطت منتوجها من الثمار التي حوتها من الأعناب والتمور، وغيرها من بقية الزروع المختلفة، وأفادت جملة ﴿ آتَتْ أُكُلَهَا ﴾ أن ثمارها قد أصبحت صالحة للأكل، ومن جليل كرم الله تعالى أنه لم ينقص من ثمرها شيئاً ﴿ وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا ﴾ فلم يتلف منه شيئ، فاستوفت منتوجها السنوي بالكامل من غير نقص، وفي تخصيصها بوصف كمال منتوجها ما يبين أن البستانين على خلاف ما يحصل لغيرها من وسائل التلف في بعض زروعها، نتيجة ما يصيب الشجر أو الثمار من العوارض المختلفة التي يتلف بها بعض ثمارها، وهذا الكمال في انتاجها آية كريمة، وعظيمة.

ومن قوة البيان في إثبات كمال منتوجها أن ورد نفي النقص بالأسلوب القطعي، الذي اشتمل على النفي بأداة الجزم ﴿ وَلَمْ ﴾ كما أن كلمة ﴿ شَيْئًا ﴾ أفادت نفي أدنى الظلم، حتى في القليل واليسير، فنفت النقص

بأسلوب الجزم والوصف القطعي. والمجزوم الذي وقع عليه النفي هو الظلم ﴿ وَلَمْ تَظْلِمِ ﴾ ليعطي دلالة انتفاء النقص الذي يتحقق به الظلم لصاحبها، فانتفى الظلم منها في الإنتاج البتة، ليدل على عظيم كرم الله تعالى على صاحبها. ومن جميل البيان وعمقه أن ورد لفظ الظلم ﴿ وَلَمْ تَظْلِمِ ﴾ لتقابل ظلم صاحبها في توحيده وعبادته لربه تبارك وتعالى، وتُذكِّر به وبظلمه وبشأنه، فإن كان صاحبها ظالم لنفسه، فإن فضل الله تعالى عليه بهذه الجنة قد انتفى منه ظُلم الْمُنتَج. فإنها مقارنة ومقابلة تستثير التأمل في عطاء الله تعالى وكرمه من غير ظلم، بينما يقع الظلم من صاحبها لنفسه، وفي توحيده لربه تبارك وتعالى، وعدم طاعته وشكره، والامتثال لأمره ونهيه.

ومن مزيد كرم الله تعالى أن أجرى بين الجنتين ماء يتدفق ﴿ وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴾ أي: أجرينا وسط الجنتين نهراً من الماء يتدفق، بما يفيد أنه لا عناء على صاحبها في سقيا الجنتين. وكلمة فجرنا تعطي صورة وحالة القوة في تدفق الماء الدائم من غير انقطاع، بل وردت بصيغة المبالغة في وصف تسخير تدفق الماء، فإن كلمة ﴿ وَفَجَّرْنَا ﴾ تفيد المبالغة، وذلك بتشديد حرف الجيم الذي أعطى بياناً بليغاً عن قوة تدفق الماء وجريانه بلا انقطاع. فكان الماء نهر متدفق بين تلك الجنتين، فجاء تصوير هيئة وشكل البستانين بأدق التفاصيل الموضحة لصورتها وجمالها البهيج، فإنها ممتلئتان بأشجار العنب المعروش على عريشه، ويزيده جمالاً ونعمة ما يحيط به من أشجار النخيل الباسقة في ارتفاعها، والتي أحاطت به عناية ونعمة وجمالاً وظلالاً وارفة على معروشات العنب، فتعطيها قوة وحماية ووقاية. ثم جاء الزرع في وسط الجنتين ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴾ أي: جعل الله تعالى له بين تلك الجنتين من الأعناب المحاطة بالنخيل زروعاً. وكلمة ﴿ زَرْعًا ﴾ أفادت التنوع في النوع والأشكال لذلك الزرع الذي توسط الجنتين، سواء من الخضار أو الفواكه أو غيرها من الزروع المختلفة. فكانت صورة الجنتين غاية في جمال التخطيط والتنظيم، الذي يُدخل البهجة والسرور على من دخلها. وأما الماء فإنه نهر متدفق بين تلك الجنتين، فإنها نعمة عظيمة، ومنظر بديع، قد وصفه القرآن الكريم وكأن الْمُخَاطَب ينظر إلى تلك الجنتين، ويشاهدها من كل ناحية. فسبحان من أعجز بكلامه عباده.

ومن كرمه وفضله جَلَّ في علاه أن أعطى كل أحد من خلقه ما يعيش به، حتى العصاة والكافرين، فلم يكن عطاؤه محظوراً ومحبوساً وممنوعاً على أحد، فيمد هؤلاء وهؤلاء كما ورد في سورة الإسراء ﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ﴾

ثم يُخبر الله تعالى بعموم ما أنعم به على صاحب هذه الجنتين، وما كان منه من التفاخر والتعالي على صاحبه المؤمن الذي كان أقل منه عطاء، فيفاخر الكافر عليه بما حباه الله تعالى، مقارناً له بنفسه على غيره من

الناس، وذلك على سبيل التفاخر ﴿ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴾ فقد كان له رزق كثير متنوع ﴿ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ ﴾ أي كان له رزق متنوع من الذهب والفضة والثمار والحيوان. قال ابن عباس رضي الله عنهما: يعني أنواع المال[١] وقال مجاهد رحمه الله تعالى: الذهب والفضة[٢] فيدخل في ذلك جميع أنواعه. ولكنه كان مغروراً بما حباه الله تعالى ﴿فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴾ أي: كان هناك حواراً وحديثاً بينه وبين صاحبه المؤمن. وكلمة الحوار ﴿ يُحَاوِرُهُۥٓ ﴾ تفيد المحاورة والمجاوبة، فيراجعه بالكلام ويجاوبه، أي: هو الحديث المتبادل بالاستماع والرد بالجواب بين الطرفين.

وقد تفاخر على صاحبه بما حباه الله تعالى ﴿ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴾ أي: قال متفاخراً ومقارناً بالكشف عن إجمال ما عنده من الخير بكلمة ﴿ مَالًا ﴾ التي تعني التنوع في صنوف الخير، فدل ذلك على تنوع الخير الذي عنده، وأنه رجل متفاخر على غيره بماله، ثم أضاف إلى فخره بالمال فخره بأتباعه وخدمه وولده ﴿ وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴾ قال الإمام القرطبي رحمه الله تعالى: النفر: الرهط، وهو ما دون العشرة، وأراد هاهنا الأتباع والخدم والولد[٣] مما يعني تفاخره بمكانته ومنزلته بين قومه وعشيرته بما عنده.

ومن دقائق الوصف أنه حين قال لصاحبه المؤمن ﴿ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا ﴾ لم ينف المال عن المؤمن، بل وصف نفسه بالأكثرية، مما يدل على أنه كان عند المؤمن خيراً ورزقاً، ولكن الكافر المتكبر كان أكثر منه مالاً بكثير، فلم يقل له: لا مال عندك، أو وصفه بالفقر، بل وصف نفسه بالكثرة، وكلمة ﴿ أَكْثَرُ ﴾ تفيد التفضيل والأفضلية، وتثبت أن عند كل واحد منهما مالاً، غير أن الكافر كان أكثر منه بكثير، ومما يؤكد ذلك ما سيأتي فيما هو قادم من الحوار الذي قال فيه المؤمن للكافر المنكر للبعث ﴿ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴾ فأثبت لنفسه مالاً وولداً، غير أنه أقل مما عند الكافر المنكر للبعث.

كما أن جملة ﴿ وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴾ تفيد المبالغة في التفضيل، بأنه أعز نفراً في قومه، فليس فيكم من هو أفضل مني، وكذلك في المال جاء بصورة التفضيل. وكلاهما صورتان ووصفان يدلان على الكبرياء والمبالغة في

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٥/٢٦٠)

(٢) المرجع السابق (١٥/٢٥٩)

(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٠/٢٦٢)

المفاخرة بأسلوب المقارنة بينه وبين غيره. ونسأل الله تعالى العافية، والتواضع لله تعالى، فهو المنعم بفضله. كما يبين هذا الوصف لحال الكافر أنه حصر التفاضل في جانب المال وما يحيط به من الناس، كالخدم والأولاد، وغيرهم من أصحاب المصالح من الناس، من أبناء العشيرة وغيرهم. بينما المؤمن يجعل التفاضل بين الناس في الإيمان والعبادات، وما يقدمونه من نفع لغيرهم، ورأس كل ذلك التقوى.

وهذا يفيد الحذر من المفاخرة، وحالاتها وأوجهها التي منها المقارنة على سبيل الافتخار والاعتزاز الذي يمثل الكبر، والتَّنَقُّص من الغير. فإن كل نعمة هي من عند الله تعالى، هبة وإحساناً واختباراً، بدليل تباين واختلاف تحصيل الساعين في الأرض، فلو كان السعي وحده كاف في التحصيل لتماثل الساعين في كمية ومقدار الرزق، ولكن الله تعالى هو الرزاق الذي يهيئ الأسباب، ويسخر العطاء للعباد. اللهم إنا نسألك من فضلك، وأن ترزقنا الرضا والتواضع فيما أعطيتنا من النِّعم التي لا تُحصى بفضل منك ورحمة بنا، وأن تجعلنا من الشاكرين الذاكرين لك، وأن تزيدنا من فضلك بمنك وكرمك.

ويخبر الله تعالى بهيئة هذا الكافر عند دخوله جنته ﴿وَدَخَلَ جَنَّـتَهُۥ وَهُوَ ظَـالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَـٰذِهِۦٓ أَبَـدًا﴾ فدخل بستانه وهو يعاينه وينظر إليه مع صاحبه المؤمن، وهو في مباهاته وطغيانه بما عنده، وكفره بالبعث وبما أنعم به عليه سبحانه وتعالى ﴿وَهُوَ ظَـالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ قال الطبري رحمه الله تعالى: وظلمه لنفسه كفره بالبعث، وشكه في قيام الساعة[1] وفي هذا تقرير وإثبات لحالته من الله تعالى بأنه ظالم لنفسه، بما يدل على أنه أجحف في حق نفسه، بخروجه بها عن الحق إلى التمرد والعناد الذي أوقعها في الظلم. حتى أخذه الإعجاب والغرور بجنتيه وثمارهما إلى درجة التطاول في الحكم ببقائها ونفي زوالها ﴿قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَـٰذِهِۦٓ أَبَـدًا﴾ أي: ما أعتقد أن تفنى وتزول هذه الحديقة الغناء، مما يترتب على هذا القول إنكاره فناء الدنيا، فكان تبعاً لذلك أنكر فناء جنته. مؤكداً ذلك الاعتقاد بقوله ﴿أَبَـدًا﴾ التي تفيد القطع والجزم بصحة ما يعتقد من عدم الفناء ﴿قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَـٰذِهِۦٓ أَبَـدًا﴾ وبهذا المنطق قد تجاوز في طغيانه بفرط غفلته إلى أن تجرَّأ في الحكم الذي هو لله تعالى، فَعَرَّض نفسه لسخط الله عَزَّ وجل.

ويدل السياق وما بعده كذلك على أنه بعد أن تحاور مع صاحبه المؤمن وتفاخر عليه، دخلا سوياً بستانه، لِيُرِيه حقيقة ما حكم به لنفسه، بأنه أكثر من صاحبه مالاً. فقد تفاخر أمامه إلى درجة الفرط في الحكم، والتجاوز في القول والوصف لحديقته. وقد تم تسميتها في هذه الآية على أنها جنة واحدة ﴿وَدَخَلَ جَنَّـتَهُۥ﴾

---

(1) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٥/٢٦٢)

بينما هما حنتان، وهذا من دقة الوصف الذي يبين الإعجاز القرآني في ألفاظه ودلالاته، فحين ذكرها باسم الجنتين للبيان والتفصيل، حتى يستوفي المخاطَب صورتها الكلية، ثم تسميتها بالجنة باعتبار وحدتها، وباعتبار استحالة دخول الجنتين في وقت واحد، فيكون قد دخل الجنة التي عن يمين النهر أو التي عن شماله.

ثم أنكر هذا الكافر البعث بعد الموت، ومتعجرفاً، متغطرساً، بأنه فيما لو صَدَّق قيام الساعة، وأنه يُبعَث بعد الموت، لوجد عند الله تعالى خيراً وأفضل من جنته في الدنيا، وذلك على سبيل التهكم والسخرية ﴿ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴾ فنفى بلسانه الذي يعبر عن اعتقاده أن يكون هناك بعث ﴿ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً ﴾ فما أظن الساعة كائنة، بما يفيد الشك، قال الطبري رحمه الله تعالى: وظلمه لنفسه كفره بالبعث، وشكه في قيام الساعة[١] مما يفيد أنه بإنكاره البعث فقد أنكر الحساب والجزاء، ومن أنكر البعث فقد كفر.

ثم يزيد من إصراره ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴾ وهذا السياق يدل على استمرار الحوار مع صاحبه المؤمن، مخاطباً ومحاوراً له على سبيل ضرب المثل فيما لو صدقتك وجاريتك على البعث بعد الفناء الذي تؤمن به، فإنني أقدِّر وأفترض أن أجد ما هو خير منها ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴾ وكأنه نظر للخير الذي عنده فَرَتَّب لنفسه بناء عليه ما يحب ويشتهي لذاته من المنزلة والمكانة والمقام الذي يراه لنفسه عند الله عَزَّ وجل، وبالتالي يقول في غير إيقان، وإنما على سبل التقدير، فإن سايرتك ووافقتك على ما تقول. فإن عدت إلى ربي لن أجد إلا ما هو خير من جنتي التي في الدنيا ﴿لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴾ أي مرجعاً وعاقبة. فهو يصير إلى ما هو خير مما هو عليه في الدنيا، فإنه لن يتغير حاله، وفيما لو تغير حاله بالبعث بعد الموت على مذهب المسايرة لقول المؤمن وليس يقيناً منه، فيما لو افترضتُ أنني صدقتك فيما تقول فإنني سأكون ذو حظوة ومكانة أعز وأفضل.

ومن يؤمن بالله تعالى وينكر البعث فإنه كافر، مما يدل على خطورة الغرور، ويدل على أن الإيمان بالبعث يولد في المؤمن مشاعر التواضع، والخوف، وإدراك حقيقة الزوال، بذهاب الشيء قبل صاحبه، أو ذهاب صاحبه قبله، فيكون تعامله فيما عنده وفق مرضاة الله تعالى، وكذلك يكون تعامله مع غيره وفق منهج الله تعالى، فينعكس على أخلاقه وتصرفاته مع غيره، وعلى إدارته لما يملك، مُدركاً أن الله تعالى هو الذي أعطى، وهو الذي يُعطي، وهو الذي يأخذ، وهو الذي يقبض ويبسط، بيده ملكوت كل شيء، وأنه لا يخفى عليه من عباد شيء،

(١) المرجع السابق (١٥/٢٦٢)

وأما من كفر بالبعث، فيكون حاله كحال صاحب الجنتين. ونسأل الله تعالى العافية والسلامة من كل شر، والغنيمة بكل خير، وحُسن التدبير، وحُسن الخاتمة.

﴿ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرۡتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشۡرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوۡلَآ إِذۡ دَخَلۡتَ جَنَّتَكَ قُلۡتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤۡتِيَنِ خَيۡرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرۡسِلَ عَلَيۡهَا حُسۡبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصۡبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوۡ يُصۡبِحَ مَآؤُهَا غَوۡرًا فَلَن تَسۡتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾

وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصۡبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيۡهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِى لَمۡ أُشۡرِكۡ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلۡوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلۡحَقِّۚ هُوَ خَيۡرٌ ثَوَابًا وَخَيۡرٌ عُقۡبًا ﴿٤٤﴾ ﴾

ويستمر الحوار بين المؤمن وبين هذا الكافر، حيث يَرُدُّ عليه المؤمن بالحقيقة التي تخاطب فكره وتكشف له بها طريق الحق ودلالاته وحقائقه، بما يعيده إلى الصواب، وذلك من خلال إعادته إلى أصل خلقته وتكوينه، وبأسلوب لطيف منه في الخطاب الممتلئ حكمة إيمانية عالية الأثر، ورفيعة الدلالة ﴿ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرۡتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴾ كيف تكفر بالذي خلق أصلك من تراب، ثم أنشأك من نطفة والديك، حتى أصبحت رجلاً بعد أن كنت لا وجود لك. ويدل هذا الحديث على مرافقة المؤمن لصاحبه المنكر للبعث ولزوال الدنيا، حين دخوله جنته، وأن الحوار بينهما ابتدأ قبل دخوله جنته، واستمر أثناء دخوله إليها، ثم وهما في داخلها. فقال صاحبه المؤمن نصحاً له، وجواباً على ما دار في الحوار من إنكاره لفناء الدنيا والبعث بعد الموت ﴿ أَكَفَرۡتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴾ فحاوره بسؤال استنكاري يفيد تعظيم ما تجرأ عليه، ووقع فيه من جحود لله تعالى الذي خلقه فسواه وعدله. وفي نفس الوقت يقرره بحقيقته التي لا ينكرها، والتي تستوجب الإيمان بكمال قدرة الله عَزَّ وجل ﴿ أَكَفَرۡتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴾ أيحصل الكفر منك ﴿ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ﴾ أي: خلق أصلك من تراب، وهو آدم أبو البشرية عليه السلام ﴿ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٍ ﴾ ثم أنشأك من نطفة أمك وأبيك ﴿ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴾ ثم أنشأك وكونك رجلاً سوياً، فأفادت ﴿ ثُمَّ ﴾ الترتيب لأطوار التكوين المتدرج، الذي

يدل على الدقة في الإنشاء والخلق، وأن هذه الأطوار لا تنتهي بالموت، بل تستمر بالبعث، الذي يعود بالإنسان إلى هيئته، ثم يحاسب، ويجازى بما يستحق إلا أن يعفو الله تبارك وتعالى عمن يشاء من عباده بلطفه ورحمته.

أكفرت بمن امتن عليك بالوجود، وبنعمة الخلقة، بما يفيد أفمن كونك بهذه الصورة والهيئة، أيعجز أن يعيدك ويبعثك بعد موتك؟ أفلا تتفكر في آية خلقك وتكوينك، فإنها دالة على كمال قدرة الله تعالى، وأنه لا يعجزه شيء، فمن أنشأك بهذه الأطوار المتعاقبة، ومن تلك النطفة من الماء المهين حتى كونك رجلاً، وبكامل قوة الرجولة، فإنه لا يعجزه أن يعيدك بعد أن تصبح رمياً؟ فكيف تجحد ربك، ونعمته ودلالته وحجته عليك ظاهرة واضحة. فقد كنت عدماً، وأصبحت حقيقة. فلم تكن أنت الذي أوجدت نفسك، ولا أنت الذي تحدد زمن وفاتك، ورحيلك من الدنيا. ولا تستطيع أن تمنع أجلك أو تؤخره. وبالتالي كل موجود كان عدماً، فأنشأه الخالق تبارك وتعالى، حتى جنتيك. إنه استدلال يثير في النفس والفكر سلسلة من الحقائق المتعاقبة، والتي تقود إلى غيرها من الحقائق، وتبين الأصل الضعيف لهذا الإنسان، بأنه من نطفة، فإذا به خصيم مبين، إنه سؤال يقرره ويَرُدُّ صاحبه إلى الحقيقة التي هي كمال قدرة الله تعالى الثابتة الظاهرة في كل شيء.

ثم يؤكد المؤمن إيمانه واختياره الإيمان المنافي للكفر ﴿ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي وَلَآ أُشۡرِكُ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا ﴾

لكنني لا أقول بما تقول أنت، بل إنني مؤمن بأن الله تعالى هو ربي ﴿ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي ﴾ فإن كنت تكفر بالذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم أنشاك وكونك رجلاً، وتزعم أنه لن يبعثك، وإن بعثك سيعطيك خيراً مما أنت فيه، فإنني لست مثلك فإنني أعترف بأن الله تعالى هو ربي الذي خلقني، والذي يميتني ثم يحيني بالبعث للحساب والجزاء، ثم أكد هيئة عبادته بأنها خالصة لله تعالى، فلا يعبد غير ربه سبحانه وتعالى ﴿ وَلَآ أُشۡرِكُ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا ﴾ فنفى عن نفسه الشرك، ونزه ربه تبارك وتعالى عن الشريك، ليدل على إخلاصه العبادة لله تعالى وحده لا شريك له.

ثم يستنهض المؤمنُ صاحبه الكافر إلى الحقية التي يجب أن يكون عليها، ليتلافى عقوبة الله تعالى ﴿ وَلَوۡلَآ إِذۡ دَخَلۡتَ جَنَّتَكَ قُلۡتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالٗا وَوَلَدٗا ﴾

يقول المؤمن للكافر ﴿ وَلَوۡلَآ إِذۡ دَخَلۡتَ جَنَّتَكَ ﴾ هلا حين دخلت جنتك، فأعجبتك واستثارك حسنها وسعتها، ابتدأت إعجابك بأن تقول ﴿ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾ أي: ما شاء الله كائن وحاصل، فإن الأمر عائد لمشيئة الله تعالى، فكان الأولى أن تقول: هذا ما شاءه الله تعالى لي من الخير، ولا قوة لي على تحصيله إلا بمعونة الله وفضله وتوفيقه وكريم إرادته. مما يفيد أن الإنسان إذا أعجبه شيء من حاله فليقل ﴿ مَا شَآءَ ٱللَّهُ

﴿لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ وبهذا فهو يحث صاحبه ويحضضه على الاعتراف بأن جنته وما فيها من الخير هي بمشيئة الله تعالى وإرادته وتوفيقه، فلو شاء لأفناها، وإن شاء أبقاها، ليعترف الإنسان وليُظهر حقيقة قوته وإرادته بأنها من الله تعالى، وأنه ضعيف من غير معونة الله عَزَّ وجل له، وأنه لم يتحقق لأحد ولن يتحقق من خير لأحد من خلقه إلا بمشيئته وإرادته عَزَّ وجل، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن. فلا يقوى أحد على أمر وشأن يملكه إلا بالله جَلَّ جلاله، فإنها تربي في المؤمن الإخلاص والتوحيد والتوكل، والتوجه إلى الله تعالى بالدعاء والسؤال حفظاً للنعمة وزيادة لها، وطلباً لحصولها، وإيداع البركة فيها. فإن فقر الإنسان لربه ملازم له، فلا ينفك عنه أبداً.

ثم انتقل المؤمن من تحضيضه لصاحبه بما يجب عليه من الإيمان، والتواضع لله تعالى، وإسدال الخير لله تبارك عَزَّ وجل، والتأدب مع الرحمن الرحيم جَلَّ في علاه إلى نصحه بحقيقة ما يتعلق بالتباين والتفاخر بالمال والولد ﴿إِن تَـرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾ فإن كنت في نظرك وحساباتك وتقييمك أنّني أقل منك في المال، وفي عدد الأولاد، وحصرت مفهوم النعمة والمكانة والجاه في شأن الكثرة من المال والولد، حتى أغرتك وأودت بك إلى الطغيان والتفاخر عليَّ بها ﴿فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤۡتِيَنِ خَيۡرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرۡسِلَ عَلَيۡهَا حُسۡبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصۡبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا﴾ فإن كنت أيها الرجل مُعجب بمالك ونفرك من الولد والخدم، فإني لأرجو الله تبارك وتعالى أن يُعطيني في الآخرة خير من جنتك التي تتباهى بها في الدنيا ﴿وَيُرۡسِلَ عَلَيۡهَا حُسۡبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ ويُرسل على جنتك عذاباً من السماء ﴿حُسۡبَانًا﴾ وهي ما يُرمى به، فتكون جنتك مرمى عذاب من السماء فتُهلك بها جنتك ﴿فَتُصۡبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا﴾ فتصبح هذه الجنة الخضراء ﴿صَعِيدًا﴾ أرضاً مستوية لا نبات فيها ولا شجر، ولا شيئاً من الزرع، بل أرضاً ﴿زَلَقًا﴾ وهي التي لا تثبت فيها قدم، فيمتنع فيها الزرع، وتمتنع الأقدام أن تثبت عليها وتنتفع بها، لوعورة حالها، قال الإمام القرطبي رحمه الله تعالى: وهي أضر أرض، بعد أن كانت جنة، أنفع أرض، ﴿زَلَقًا﴾ تأكيد لوصف الصعيد، أي تزل الأقدام لملامستها[١] فتكون بعد صلاحها وجمالها ورغبة الناس فيها تتحول إلى أرض يتجنبها من يمرون بها، ويحذرون من الدخول فيها.

وإن لم يكن الأمر كذلك فقد تكون بشأن آخر، وهو ﴿أَوۡ يُصۡبِحَ مَآؤُهَا غَوۡرًا فَلَن تَسۡتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا﴾ أو أن يمتنع الماء عن سقيها، بحيث يصبح ماء النهر الذي تستقي منه الجنتين غائر في الأرض، أي:

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٢٦٥/١٠)

ينزل في باطن الأرض، فيمتنع عليه تحصيل ما فيه من الماء، وبالتالي يمتنع الانتفاع به ﴿فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا﴾ فلا تستطيع أن تدرك ماء النهر بأي حال من الأحوال حتى تسقي به الجنتين، فتهلك أمامك وأنت تنظر إليها، بل وأنت حاصر اليدين والإرادة، حتى تُدرك قوة الله تعالى ونعمته التي تنكرها، وتنكر معها زوال هذه الجنتين، وتجزم ببقائها، وتكذب بالبعث بعد الموت، والجزاء والحساب. ليكون ذلك عبرة ودرساً وجزاء وفاقاً في الدنيا. وهذا يدل على أهمية التناصح بين الأصحاب.

ثم يخبر الله تعالى بتحقق ما قاله المؤمن، من هلاك ما تفاخر به الكافر ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾ فقد أحاط الهلاك بجمع ما يملك، والإحاطة تفيد استيفاء الهلاك لما يملك من كل جانب، وأفادت كلمة ﴿بِثَمَرِهِۦ﴾ جميع ما يملك من أنواع الرزق، من المال وغيره، كما سبق بيانه في مطلع هذا المثل المضروب من الله تعالى.

ثم يخبر الله تعالى عن حاله وهيئته وهو يشاهد ما أصاب ثمره من الهلاك عياناً ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا﴾ أي: يضرب يد على يد، بما يفيد شدة الحسرة والندامة التي يعيشها تلك اللحظة، من ذهاب ما أنفقه فيها من مال وتعب وجهد، فأصبحت عدماً بعد وجود ﴿وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ فينظر إليها وهي متهدمة خالية من الحياة، قد تساقط بعضها على بعض، فتهشمت الأسقف وتساقطت الأبنية على أسقفها، وتساقط النخيل والعنب والزروع على عروش العنب. ومعنى كلمة ﴿خَاوِيَةٌ﴾ بالسقوط والتهدم ﴿عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ أي: تهدمت الأبنية على سقوفها. أي صارت ركاماً لا حياة فيها. وحينها تمَنَّى لو لم يكن مشركاً، وكان موحداً لربه تبارك وتعالى ﴿وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾ فصار التوحيد أمنية له. فعبَّر عن حاله بالنطق وباليدين، أي: بالقول وبالحركة والهيئة، فباليدين كان يقلب كفيه بعضها على بعض ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا﴾ بما يفيد الحسرة على ما أنفق فيها من الجهد والمال، وباللفظ قوله: يا ليتني اتبعت نصيحة صاحبي المؤمن، فلم أشرك بربي أحداً ﴿يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾ فمن شدة تحسره أن ورد الوصف منه بلفظ ﴿يَٰلَيْتَنِى﴾ الذي أفاد النداء المشتمل على التوجع والتحسر.

بل من شدة توجعه وتحسره أنه بالغ في أمنية تحقيق التوحيد إلى حد النفي القطعي للشرك، بإضافة لفظة ﴿ أَحَدًا ﴾ التي أفادت: ولم أكن أشركت مع ربي أي أحد مهما كان نوعه ﴿ لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّيٓ أَحَدًا ﴾ فلم يقتصر على نفي الشرك فقط، بل أضاف القطع له بكلمة ﴿ أَحَدًا ﴾ من أجل إفراد الله تعالى في الوهيته وربوبيته وعبادته، حتى أُفْرِدُ ربي بكمال التوحيد، وأخصه بكمال الطاعة وحده لا شريك له، وأن أُسْدِال النعمة إليه وحده عَزَّ وجل.

لقد بين المثل حال من كفر، وحال من زالت عنه النعمة، وما حصل له من سرعة الزوال لها، وما انتابه من الهلع والحسرة الشديدة، والألم العظيم، ثم تمنى أن قام بالحق ولكن بعد أن فاته ما كان يجب أن يكون عليه. وكذلك يكون حال الكافر يوم الحساب والعذاب، إذ يتمنى لو أنه ما كفر، وما أشرك، وأنه وحد الله تبارك وتعالى، وأخلص العبادة له سبحانه وتعالى. وحينها لا تنفعه الحسرة ولا الندامة. بما يفيد أن على المؤمن أن يحافظ على نعم الله تعالى بالشكر والطاعة، وعدم التفاخر والتباهي، واستعراض قوته ونشاطه، وأن ما حصل عليه من خير هو بسبب جهده ونشاطه. بل عليه أن ينسب النعمة للمنعم تبارك وتعالى، فهو الذي يعطي بحكمته وإرادته. فيشكر من أنعم عليه بالنعم سبحانه وتعالى، ويحذر من الكبر والتفاخر على غيره، واستصغار من هو أقل منه مالاً أو ولداً، أو جاهاً، أو علماً، أو مكانة وقدراً عند الناس، فإن الملك لله تعالى وحده لا شريك له، يُعطي من يشاء بقدر ما يشاء، فإنه الحكيم الخبير، والرزاق العظيم. اللهم نسألك أن تهدينا وتوفقنا لطاعتك، وحُسن عبادتك، والتوفيق لجميع ما تحبه وترضاه. إنك سميع مجيب.

ثم يخبر الله تعالى عن زوال واضمحلال قدرة من كان يفاخر بهم من الأولاد والخدم والعشيرة، الذين كان يفاخر بأنهم قوة ونصرة ومنعة له ﴿ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴾ فلم يكن له منهم أحد ينصرونه ويمنعون عنه ما أصابه من عقاب الله تعالى الذي نزل به، وبما كان متفاخراً بهم ﴿ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴾ ولا ممتنعاً بأي مانع من عذاب الله تعالى الذي حال بثمره، ليدرك أن القوة لله تعالى وحده لا شريك له، وأنه لا قوة تحول دون أمر الله تعالى وقضائه وحكمه. وفي قوله تعالى ﴿ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴾ بيان تأكيدي بوقوع العقوبة وانتفاء وامتناع أن يفوز بشيء مما كان يفاخر به، فيسترده ﴿ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴾ قال الإمام القرطبي في دلالة ﴿ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴾ أي: ممتنعاً، قاله قتادة، وقيل مُسْتَرِدّاً بدل ما ذهب منه[1] فلا ناصر ينصر أحداً مما يقضي به الله تعالى، ولا مانع من أحد لما يعطي الله تعالى، ولا مُعطي لما يمنعه الله تعالى.

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٢٦٧/١٠)

ثم يخبر الله تعالى بأن الولاية الحق والقوة والسلطان الحق قاصر على الله القوي العزيز ﴿ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴾ فالولاية لله تعالى، وليس لغيره أبداً، ففي مثل تلك الحال وفي ذلك الشأن والأمر والمقام الذي يقضي الله تعالى فيه بحكمة تظهر أن الولاية لله تعالى، وليس لغيره أبداً، فأين الذين كنت ترى أنهم يتولون الدفاع عنك، ويمنعون عن جنتيك الزوال التي جزمت بأنها لن تزول أبداً، فتعديت بطغيانك، وتجاوزت لزوم الحق، فإن سلطان الله تعالى هو الأظهر والأقوى الذي يتحقق به ما يحكم ويقضي به ﴿ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴾ فثواب الله تعالى هو الثواب الحقيقي، وهو أفضل ثواب مِن كل أحد يُرجى ثوابه، فهو خير للطائعين المنيبين في العاجل والآجل ﴿ وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴾ وخير عاقبة للمطيع في عاجله وآجله إذا صار إليه، أي: أن عاقبته ومنتهاه عَزَّ وجل هي الخير الذي يصير إليه المطيع لربه جَلَّ جلاله. فعاقبة طاعة الله تعالى خير من عاقبة طاعة غيره. وفي هذا بيان للحقيقة التي مفادها الترغيب والتحفيز لاختيار طاعة الله تعالى، وتقديمها على طاعة النفس والهوى، وطاعة المخلوقين.

ويُستفاد من قوله تعالى عن تحسر صاحب الجنتين ﴿ وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّيٓ أَحَدًا ﴾ أن في تحسره على ما كان من شركه ما يدل على الاعتراف بالخطأ الجسيم، مع الندم الشديد على شركه، وما تبع ذلك من إنكار البعث، وما نجم عنه من التعالي على غيره، فلعله بذلك الندم قد آمن وحقق في نفسه إفراد الله تعالى بالعبادة، وآمن بالبعث بعد الموت، وفناء الدنيا، وأن الله تعالى على كل شيء قدير، وأن إرادة الله تعالى وقهره وسلطانه قائم على كل أحد، وعلى كل شيء. فتكون تلك العقوبة خير له في آخرته من جنتيه، ومن جميع نعيم الدنيا. ورحمة الله تعالى واسعة لمن تاب، وفضله عظيم، فلا يحيط به أحد.

﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَاۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًاۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ ﴾

ويضيف الله تعالى على المثل المضروب بصاحب الجنتين مثلاً آخر، لتعميق صورة الدنيا وحقيقتها وتوضيح قصرها وفنائها ﴿ وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ فَأَصۡبَحَ هَشِيمًا تَذۡرُوهُ ٱلرِّيَٰحُۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقۡتَدِرًا ﴾ فاذكر أيها النبي صلى الله عليه وسلم للناس ما يشبه هذه الحياة الدنيا في زينتها وبهجتها ثم في سرعة زوالها وانقضائها، وزوال حُسنِها وجمالها ونضارتها وبهجتها، بما يفيد لا تنخدعوا بها، فتركنوا إليها وهي الزائلة المنتهية، وتتركوا الآخرة الباقية ﴿ وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ ﴾ واذكر للناس أن مثل الحياة الدنيا كماء ينزل من السماء على الأرض ﴿ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ ﴾ فاختلط الماء بنبات الأرض ﴿ فَأَصۡبَحَ هَشِيمًا تَذۡرُوهُ ٱلرِّيَٰحُۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقۡتَدِرًا ﴾ فأصبح نبات الأرض بعد ذلك الاخضرار والرطوبة والليونة والنشاط والبهجة والانشراح يابساً متفتتاً متكسراً ﴿ تَذۡرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ﴾ تنسفه وتُطيِّره الرياح، فيتفرق ويتبعثر أشتاتاً في الأرض، لا قوة ولا قدرة له، بعد أن كان ثابتاً قوياً نظراً، فيصبح أشتاتاً. فكذلك مثل الحياة الدنيا كمثل هذا المثل الذي تشاهدونه وترونه في حياتكم: في سرعة حركتها وبهجتها، ثم في سرعة انقضائها وزوالها، وزوال من عليها، فما هي إلا أوقات يسيرة فيصبح الفرد مقبوراً، فتأكل الأرض جسده، كما هو حال نبات الأرض الذي يصبح هشيماً، ثم تنسفه الريح نسفاً، بعد أن انتهت حياته، فكذلك الإنسان، فعندها يفنى المال والجاه، وتنقضي الشهوات، وتنتهي بالحي الحياة، أو أن يُتلف الله تعالى ماله قبل موته وفنائه، فيصبح مِثْلُ الأرض التي أزهرت وأينعت بما عليها من الزرع الفاني، فإذا بها أرض قاحلة لا نظارة فيها. فاعتبروا يا أولي الأبصار بهذا المثل المضروب لكم، فإن فيه عبرة وآية.

ثم يخبر الله تعالى عن عظيم قدرته، وكمال تدبيره ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقۡتَدِرًا ﴾ فإن الله تعالى منذ الأزل على كل شيء مقتدراً: إنشاء وإزالة وفناء وإعادة، فلا يمتنع عليه شيء، ولا يعجزه شيء، فكل ما يريد يكون كما أراد سبحانه وتعالى. فلا تقيسوا قدرة الله تعالى على قدرة المخلوق، ولا تغتروا بالدنيا ولا بزينتها، فإن الذي أنشأها يزيلها، فإن الذي زينها بما ترون من الزينة يزيلها كيف شاء، ومتى شاء، وبقدر ما يشاء، فإن من أحيا الأرض اليابسة، وَزَيَّنَهَا وأبهجها بما ينزله عليها من الماء الممطر من السماء، ثم ينسفه عنها، فيجعلها صعيدا لا نبات عليها، فإنه هو الذي أنشأكم من العدم كما أنبت الزرع من بعد العدم، وهو الذي يميتكم كما أمات الزرع بعد الوجود، وهو الذي يحييكم كما أحيا الأرض بالنبات بعد أن كانت صعيداً لا نبات فيها. فأين مكمن الاستحالة؟ غير جحود من جحد البعث بعد الموت، فإن إنكار البعث هو إنكار جحود للحقيقة الماثلة أمامكم.

وفي هذا درس وعبرة، يُسْتَثَارُ بها العقل، ويُستنهض بها الفكر، من خلال المثال الحاصل أمام المخاطبين، كما يبين هذا أن منهج الله تعالى قائم على الحق والحقيقة التي لا ينكرها إلا جاحد للحق والحقيقة. كما يبين هذا أهمية ضرب المثل في تصوير الحقيقة وتقريبها من ذهن المتلقي والْمُخَاطَب، مع كشف غيمة الجهل، وتعليم الحقيقة، وإقامة الحجة بالبرهان والدليل المحسوس بالحواس. كما يكشف هذا المثل المضروب من الله تعالى لعباده العلاقة بين تقلبات الدنيا، وتقلبات أحوال الإنسان. وأن الملك لله تعالى، وأن على الإنسان الذي أكرمه الله تعالى بالعقل أن يفكر في الحقيقة، ولا يُقدم الفاني على الباقي، فيقدم زينة الحياة الدنيا القصيرة على نعيم حياة الآخرة المستديم، الذي لا ينقضي ولا يزول. اللهم إنا نسألك التوفيق والثبات على الحق الذي نظفر به على نعيم الآخرة، إنك سميع عليم، مجيب، رحمن رحيم.

وينتقل السياق في ترابط متدرج إلى مفردتين عظيمتي التأثير من زينة الحياة الدنيا، والتي يتباها بها الجاهلون، ويغتر بكثرتها وجمالها وزينتها كثير من الناس، يل ويجعلها البعض وسيلة التقييم والقياس للناس وللحياة برمتها، فيجعل قيمة الإنسان على هذا الاعتبار الفاني الزائل، والمتقلب، إنه المال والبنون الذي قال الله عَزَّ وجل عنه ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ فقد أجمل وحصر الله تبارك وتعالى أعظم مؤثرات زينة الحياة الدنيا في مؤثرين شديدي التأثير ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ فأثبت الأثر العظيم للمال وللبنين في الحياة الدنيا، بما يعطي التنبيه والحذر من الغرور بهما، خاصة وأن مآلهما إلى الزوال، والتغيير، قلة وكثرة، ووجوداً وعدماً، وأن مآل صاحبها إلى الزوال عنها، أو أن تزول عنه قبل أن يزول عنها، بل ونسب تبارك وتعالى بهجتها وزينتها للحياة الدنيا﴿زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ بأن أثرها ملتصق بالدنيا الفانية. وفي إفرادهما بالذكر من بين غيرها ما يفيد شدة إغرائها من بين بقية زينة الحياة الدنيا الأخرى. وفي هذا تعليم وتنبيه وتحذير من الرحمن الرحيم لعباده من أن يغتروا بها. لينظروا إليها ويستخدموها وفق منهج الله تعالى الذي ضبط شأنها بأحكامه وتشريعه العظيم.

ومن بلاغة البيان أن كلمة ﴿ٱلْمَالُ﴾ تشمل جميع ما يتمول به الإنسان، ويملكه سواء من الذهب أو الفضة، أو النقود، أو المباني، أو المزارع، أو الأنعام والحرث، وغيرها. وكلمة ﴿وَٱلْبَنُونَ﴾ وردت بصيغة الجمع، لتعطي التكاثر، فكلما كثر الأبناء زادت زينتهم، لأن الرجل يتقوى بهم، ويتزين بكثرتهم، وهم عون له في الشدائد.

وأفادت صفة الزينة ﴿زِينَةُ﴾ أن للمال والبنين محاسن وجمال وفتنة جاذبة للإنسان، يتوق إليهما، ويعجب بهما، ويتزين بهما. فلم ينف عنهما سبحانه وتعالى الأثر والحقيقة لِيُزَهِّد الناس فيها، بل نوه إلى قوتهما في التأثير من أجل التحذير من الانشغال بهما عما ينفع العبد، أو أن يستخدمهما في غير ما يعود عليه بالنفع. فهو ليس بيان تزهيد

فيها، بل بيان تصحيح وتوضيح لحقيقتها، ليُحْسِن العبد استخدامهما واستعمالهما وفق منهجه سبحانه وتعالى. وفي هذا البيان منهج تعليمي من الله تعالى لعباده في استخدام ما يرزقهم به من الخير والفضل.

ثم أرشدهم إلى الباقي الذي يستمر أثره إلى الآخرة، فلا ينقطع بسبب بقاء أصوله وثبوته، ومحبة الله تعالى له ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ فإن الباقيات الصالحات هي التي يستمر نفعها، وتبقى ذخراً للمؤمن عند الله تعالى، وسمى الله تعالى ما يحث عباده عليه ويرغبهم فيه بالباقيات الصالحات ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾ لبقائها وثبوتها، وعدم زوالها، بينما زينة الحياة الدنيا فانية ومنتهية ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾ شاملة لجميع الطاعات الواجبة والمستحبة، وقيل هي سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: هي ذكر الله، قول: لا إله إلا الله، والله أكبر، وسبحان الله، والحمد لله، وتبارك الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، واستغفر الله، وصلى الله على رسول الله، والصيام، والصلاة، والحج، والصدقة، والعتق، والجهاد، والصلة، وجميع أعمال الحسنات، وهن الباقيات الصالحات التي تبقى لأهلها في الجنة ما دامت السماوات والأرض. وقال ابن جرير رحمه الله تعالى بعد أن أورد الأقوال في ذلك: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال هُنَّ جميع أعمال الخير[١] فأرشد الله تبارك وتعالى عباده إلى ما ينفعهم في حاضرهم ومستقبلهم.

ومن حكمة الله تعالى وعظيم توجيهه، أنه لم يزهدهم في المال والبنين، إذ هما نعمتان عظيمتان لمن أحسن فيهما، بل ورد السياق بما يفيد الحذر من غرورهما، والتفاخر بهما، وأنها مما يتزين بها الإنسان في الدنيا، وينحرف بها البعض إلى التفاخر على الغير، ويذهب بها إلى ما يُفسد دينه وحياته وآخرته، وقد تغريه وتشغله عن الباقيات الصالحات، وربما استخدمهما فيما يفسد عليه شأنه وآخرته.

وقد وردت المقارنة بينهما بأسلوب المفاضلة ﴿خَيْرٌ﴾ لتعطي أن في كل منهما خير، غير أن الباقيات الصالحات أكثر حقيقة في الخيرية عند الله تعالى، لأن الباقيات الصالحات لا تأتي من المؤمن إلا على وجه الخير، من صلاة وصيام وذكر لله تعالى، مع غيرها من الباقيات الصالحات، بينما المال والبنون قد يخالطها الرياء والسمعة والعجب، ويأتي من خلالها الشر، بالبطر والكبر، والتطاول على الغير، واستخدامهما في المعصية. ثم ربط سبحانه وتعالى مكان الخيرية به عَزَّ وجل ﴿خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ﴾ فإذا كان المال والبنون زينة متعلقة بالحياة لدنيا، فإن الباقيات الصالحات مرتبطة في مكانها وثوابها ومنزلتها بما عند الله تعالى، مما يدل على قيمتها ومكانتها ومنزلتها التي لا تدانيها منزلة، وفي ذلك حث وترغيب للمؤمن على الإكثار من تحصيلها، والمداومة عليها.

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٥/٢٨٠-٢٨١)

ثم وصفها جَلَّ في علاه بأعلى درجات الثواب والمنزلة ﴿خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ أَمَلٗا﴾ فهي خير ﴿ثَوَابٗا﴾ أي: جزاء ﴿وَخَيۡرٌ أَمَلٗا﴾ وخير ما يأمله المؤمن ويرجوه من النعيم، وكذلك تشمل خير مما تُؤمِّلُون وتتوقعون. لأن نعيم الآخرة لا يمكن أن يتصور الإنسان حقيقته قبل أن يراه، وذلك لعظيم السرور الذي يجده بما يعطيه الله تعالى من الجنان والنعيم المقيم. فاللهم نسألك خير الدنيا وخير نعيم الآخرة، وأجرنا من فتنة المال والبنون يا رب العالمين.

ومن دقائق البيان تكرار الخيرية مرتين ﴿خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ أَمَلٗا﴾ لتفيد التنبيه، إذ لم تُجمع في كلمة واحدة: خير عند ربك ثواباً وأملا. بل خُصصت بالثواب، ثم خُصصت بما يأمله الإنسان، وفي ذلك لفت وشد الانتباه، مع العناية بكل مقصد منها أشد عناية. فإنه جمال في السياق، وجمال في الدلالة، وجمال في الموعظة والنصيحة، وجمال في الإثابة، وجمال من كل وجه. فالحمد لله تعالى على فضله وكرمه وجوده وإحسانه.

ثم ينتقل السياق إلى وصف يوم القيامة، عندما تزول الجبال عن أماكنها، ويصبح ظاهر الأرض صعيداً جرزا، فَيُحْشِر الناس جميعاً ﴿وَيَوۡمَ نُسَيِّرُ ٱلۡجِبَالَ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ بَارِزَةٗ وَحَشَرۡنَٰهُمۡ فَلَمۡ نُغَادِرۡ مِنۡهُمۡ أَحَدٗا﴾ واذكر لهم أيها النبي صلى الله عليه وسلم ذلك اليوم ﴿وَيَوۡمَ نُسَيِّرُ ٱلۡجِبَالَ﴾ أي: حين تُقتلع الجبال، فتسير عن وجه الأرض، قال ابن عباس رضي الله عنهما: تُسَيَّر الجبال عن وجه الأرض، كما يُسَيَّر السحاب في الدنيا، ثم تُكَسِّر، فتكون في الأرض كما خرجت منها(١) وأن من مشاهد يوم القيامة كذلك ﴿وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ بَارِزَةٗ﴾ أي ظاهرة للأعيان، من غير ساتر ولا حاجب، وبالتالي لا يكون فيها شجر ولا بناء، ولا آكام، ولا جبال، فيكون هناك الحشر ﴿وَحَشَرۡنَٰهُمۡ﴾ أي: يحشر الله تعالى الناس جميعاً، وذلك بجمعهم على صعيد الأرض ﴿فَلَمۡ نُغَادِرۡ مِنۡهُمۡ أَحَدٗا﴾ فلا نترك منهم أحداً، من الأولين والآخرين، مما يعني أنه لن يغيب أحد أبداً، لا صغير ولا كبير، ولا مؤمن ولا كافر، وذلك بإخراجهم من قبورهم، ليحصل الحساب على أعمالهم.

ومن عظيم البيان أن المتعهد بإخراجهم وجمعهم هو خالقهم سبحانه وتعالى ﴿فَلَمۡ نُغَادِرۡ مِنۡهُمۡ أَحَدٗا﴾ بل جاء الاستقصاء لهم بأدنى العدد، وهو الواحد ﴿فَلَمۡ نُغَادِرۡ مِنۡهُمۡ أَحَدٗا﴾ بما يفيد لن يتغيب أحد، حتى من أكلته النار، ومن أكله الحوت، ومن أكلته السباع، فالجميع سيكون حاضراً، إذ يعيدهم الله تعالى كما خلقهم أول مرة. فسبحان الله العظيم. وفي هذا بيان لمستقبل الناس جميعاً، وأن البعث بعد الموت حق، وأن الحساب حق،

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٠٥/٥)

والجزاء حق، وفي هذا البيان من الله تعالى للناس ما ينذرهم به ومنه، حتى يتهيؤوا له، ويعدوا له العدة، ويحسبوا لهذا الموقف ما يستحقه من العمل الصالح.

ثم يخبر الله تبارك وتعالى بالمرحلة الأخرى من يوم البعث، وهو يوم العرض، التي يتم فيها اصطفاف الناس لربهم، فإنه يوم عظيم ﴿ وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴾ وأحضرت الخلائق يا أيها النبي إلى ربك مصفوفين، في صف واحد متتالين، ويحتمل أن تكونوا في صفوف متعاقبة. فيتم عرض الخلائق على ربهم. وقد ورد العرض بصيغة الماضي، الذي لم يُذكر فاعله ﴿ وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا ﴾ فبصيغة الماضي ليُعبر عن مشهد تحققه وكأنه تم وانتهى العرض، بما يؤكد تحققه، وليستثير في المخاطَب صورته وكأنه يراه قد حدث، وأنه أحد المصطفين مع غيره من الخلق. وورد العرض بصيغة الذي لم يُذكر فاعله ﴿ وَعُرِضُواْ ﴾ للتركيز على استحضار العرض وهيئته، وليس على من يقوم بالفعل ذاته، فالمهم هنا هو العرض الذي تتبعه المحاسبة ثم النتيجة، إما إلى الجنة وإما إلى النار. فإنه بيان ممتلئ بدقائق الإعجاز البياني والبلاغي.

ومن جلال العرض وهيبته، أن العرض على مقام رب البرية وخالقها سبحانه وتعالى ﴿ وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ ﴾ يُعرضون على ربك أيها النبي صلى الله عليه وسلم، فأخبرهم بذلك. وفي إضافة ضمير المخاطب إلى كلمة الرب ﴿ رَبِّكَ ﴾ تشريف للنبي صلى الله عليه وسلم بهذا الخطاب لأمته وللناس أجمعين، وبلفظ الربوبية الذي يبين أن الله تعالى هو رب كل شيء ومالكه، والمتصرف فيه بما يشاء.

وأما هيئة الناس فهم مصطفين ﴿ صَفًّا ﴾ في غاية النظام والتنظيم من الدقة المتناهية، بل وفي غاية الرهبة من الموقف، ومن جلاله وعظمته وقوة هيبته. ومن الإعجاز البياني أن كلمة ﴿ صَفًّا ﴾ تُجمِلُ حالات الاصطفاف، ذكر ابن الجوزي رحمه الله تعالى أن في معناها أربعة أقوال: الأول: بمعنى جميعاً. والثاني: وعُرِضوا على ربك مصفوفين. والثالث: عُرضوا على ربك صفوفاً. والرابع: أنه لم يُغِب منهم أحد، فكانوا كالصف. وقد قيل أن كل أمة، وزُمْرَة، صف[1] ولا تعارض بينها، وذكر لإمام ابن كثير رحمه الله تعالى: أن جميع الخلائق يقومون بين يدي الله تعالى صفاً واحداً، ويحتمل أنهم يقومون صفوفاً صفوفاً[2] وقال الإمام الشوكاني رحمه الله تعالى: أي:

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٠٦/٥)

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٩٢/٣)

مصفوفين كل أمة وزمرة صف، وقيل عرضوا صفاً واحداً جميعاً، وقيل قياماً[١] فيحتمل أن يكونوا جميعاً صفاً واحداً، أمة تلي أمة، أو أمة أمام أمة. ولهم هو الاصطفاف الذي يدل على الخضوع والخشوع والتذلل والخنوع لله تعالى، مع التنظيم الذي هو نسق الكون، ونسق مخلوقات الله تعالى، وفق تنظيم بديع.

ثم يقول الله تعالى مخاطباً عباده الذين صَفَّهُم صفا، موبخاً المنكرين منهم للبعث ﴿لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ فالخطاب عام، والتوبيخ مقصود ومعني به من أنكر البعث، وعموم الكافرين المتكبرين عن طاعة الله تعالى. وعلى هذا قال لهم تعيناً ﴿بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا﴾ فهو انتقال للمزيد من التوبيخ والتقريع والتأنيب التفصيلي على ما كان منهم من الإنكار ليوم الآخرة، وللبعث والنشور، فقد زعمتم في الدنيا أن لن نجعل لكم موعداً نحاسبكم ونجازيكم على أعمالكم، فها أنتم اليوم واقفون ﴿كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ فلقد جئتمونا أيها المكذبون المنكرون حفاة عراة كمجيئكم للدنيا عندما خلقناكم أول مرة. فيستثير هذا الموقف الحسرة والندامة، ساعة لا تنفع الحسرات ولا الندامة. ليكون هذا الإخبار من الله تعالى صورة لما هو كائن وكأنه كان، وهذه من أبلغ المواعظ ليشاهد المخاطب الحقيقة القادمة وكأنه يعيشها تماماً. ففي ذلك شديد التحذير، والترهيب، وقوة الموعظة من كل وجه. فسبحان من أعجز بكلامه ومواعظه وحقائق ما هو كائن وكأنه كائن أمام المخاطبين. فله الملك وحده لا شريك له. ومن جميل الوصف كلمة ﴿زَعَمْتُمْ﴾ التي تعطي دلالة الادعاء الكاذب الباطل الذي لا حقيقة له، فقد كنتم تنكرون البعث بزعمك الفاسد الذي يخالف الحق والدليل والبرهان.

ثم يخبر الله تعالى بالمرحلة التالية للاصطفاف وتوبيخ المكذبين، فيخبر سبحانه وتعالى بحال المجرمين بعد أن يصطف الناس لرب العالمين ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ فيوضع الكتاب ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ وهي صحائف الأعمال، فيوضع كتاب أعمال كل واحد في يده، فالمؤمن يأخذ كتابه بيمينه، والكافر يأخذ كتابه بشماله، فهي تلك الكتب التي كتبتها ودونتها الملائكة، التي فيها العظيم والصغير من أعمال الخير، والعظيم والصغير من أعمال الشر، فتكون حال الكافرين المجرمين كما بينها جلَّ جلاله ﴿فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾ فحال المجرمين الخوف والوجل مما في كتبهم، لما يعلمون من أعمالهم الخبيثة المشينة ﴿وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا﴾ فيتحسرون ويتفجعون من هول ما سيكون من الفضيحة،

---

(١) الشوكاني، فتح القدير (٢٩٢/٣)

ومما سيلحق بهم من العذاب الشديد، لإدراكهم عظيم جرمهم، فيقولون ﴿يَٰوَيۡلَتَنَا﴾ أي: يا للهلاك، والشر الذي سيحل بنا، فهي كلمة تَحَزُّن وتَحَسُّر، والويل هو الهلاك والخزي من الأمر الفظيع الذي أمامهم، فهو يحمل كذلك صورة التعجب الذي يحمل التحسر من عدم اهتدائهم كغيرهم ممن اهتدى، وقد فات الأمر عليهم.

وكذلك يحصل التعجب من دقة إحصاء أعمالهم في كتبهم ﴿وَيَقُولُونَ يَٰوَيۡلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَا﴾ فيقولون: يا حسرة، يا ندامة، ثم يتساءلون عن دقة هذا الكتاب ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَا﴾ فقد فُجِعُوا بدقة إحصائه لذنوبهم، فلم ﴿يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَا﴾ وذلك بكتابتها وضبطها ضبطاً دقيقاً، وتدوينها، إثباتاً عليهم. مما يبين عظيم عدل الله تعالى، وأن كل ما يعمله الإنسان من خير أو شر مكتوب له في صحائفه، وأن الله تعالى لا يظلم أحداً من خلقه ﴿وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرٗا﴾ ووجدوا ما عملوا في الدنيا من المعاصي ﴿حَاضِرٗا﴾ مكتوباً مُثبتاً في صحائفهم.

ثم يُثبت الله تعالى لعباده ما ثَبَتَ عنهم، وبالتالي ينتفي الظلم بما هو موجود في صحيفة كل أحد من خلقه، وبأنه لم يظلمهم في شيء ﴿وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا﴾ فأثبت سبحانه وتعالى كمال عدله، بنفي الظلم لعباده، فلا يعاقب احداً بغير ما اكتسب العبد من الإثم الذي يستحق عليه العقوبة المناسبة لجرمه. كما لا ينقص فاعل الطاعة شيئاً مما يستحق من الثواب. بل وردت صورة النفي بالأسلوب القطعي المبالغ فيه ﴿وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا﴾ فعلى كثرة العباد إلا أنه سبحانه وتعالى لن يظلم أحداً أبداً بذنب لم يرتكبه ويكتسبه. فكلمة ﴿أَحَدٗا﴾ أفادت أقل العدد، وهو الواحد من الناس، فلن يكون لأحد يوم العرض ظلماً، بأن يُزاد عليه ذنب لم يفعله، أو يُنقص من عمله شيء قد قام به ﴿وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا﴾ فالحساب بالميزان القسط العدل، الذي يستوفي كل أحد ما يستحق.

﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمۡ لَكُمۡ عَدُوُّۢۚ بِئۡسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلٗا ٥٠ مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلۡمُضِلِّينَ عَضُدٗا ٥١﴾

ثم ينتقل السياق الكريم إلى امتناع إبليس عن السجود لآدم سجود تحية وتكريم، فدخل في معصية الله تبارك وتعالى حسداً وأنفة وكبراً، فيحذرهم جَلَّ شأنه من شره، ومن عداوته لذرية آدم ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴾ واذكر أيها النبي صلى الله عليه وسلم للناس قولنا حين أمرنا الملائكة بالسجود لآدم حين خلقناه ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ ﴾ اسجدوا لآدم سجود تحية وتكريم ﴿ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ﴾ فسجد جميع الملائكة لآدم امتثالاً وطاعة لأمر الله تعالى، إلا أبليس. مما يفيد مبادرة الملائكة للطاعة من غير سؤال، ولا تردد، امتثالاً لأمر الله تعالى، وهكذا يجب أن يكون الإنسان مقتدياً بهم في الامتثال لأمر الله تعالى، وسرعة الاستجابة للطاعة، وأما إبليس فقد أبى وامتنع ﴿ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ﴾ إلا إبليس الذي كان من فئة الجن، فإنه أبى، وامتنع عن السجود لآدم، ولم يمتثل لأمر ربه تبارك وتعالى كما امتثلت الملائكة عليهم السلام، فهو من عالم غير عالم الملائكة، فإنه من عالم الجن ﴿ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ ﴾ ففي تعيين إبليس بأنه كان من الجن ما يعطي بياناً أنه ليس من جنس الملائكة، بل هو من جنس وعالم الجن، فهو مخلوق من نار، بينما الملائكة مخلوقة من نور. وسمَّى الله عَزَّ وجل امتناع إبليس بالفسق ﴿ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ﴾ وهو خروجه عن طاعة ربه، كما يُقال: فسق الرطب، إذا خرج عن قشره. وفي هذا تحذير من الكبر الذي تمثل به إبليس، فإنه يقود إلى الاستعلاء على الحق، ليقع في المعصية. وكذلك فيه الأمر بالطاعة كما كانت عليه الملائكة عليهم السلام، والتحذير من إبليس ومن مشابهته في مسلكه، فإنه يؤدي إلى الفسوق، والخروج من الحق إلى الباطل.

ثم يَنهَى اللهُ تعالى ويحذر من موالاة الإنس لإبليس في صيغة سؤال تحذيري، واستنكاري ﴿ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴾ أبعد هذا البيان لفسقه وتمرده على ربه وخالقه تبارك وتعالى تتخذونه وذريته أولياء وأصفياء لكم ﴿ مِن دُونِى ﴾ من غيري، وكل شيء هو أدنى من الله العلي العظيم، فتتخذون الأدنى وتتركون خالقكم وربكم المنعم عليكم بما أنتم فيه من الإنعام العظيم، وهم مع تلك الولاية والاصطفاء أعداء لكم ﴿ وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ﴾ فهم عدو لكم، والعدو يتمنى ويريد لك الشر، ويسعى في تحقيقه لك سعياً حثيثاً، بل ويسعى إلى صدك عما ينفعك. فإنه سؤال استنكار وتعجب ممن يتخذ عدوه ولياً له، ويترك الرحمن الرحيم، القوي العظيم ﴿ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴾ فبئس ذلك البدل عن الله

تعالى. فبئس من كان تفكيره ونهجه ذلك النهج، وبئس المصير الذي يقود به نفسه إليه، فيظلم نفسه بهذا البديل من الأعداء، ويترك مَنْ إذا أطعته أثابك وأعانك وجزاك خير الجزاء في الدنيا والآخرة.

وكلمة ﴿ بِئْسَ ﴾ مستوفية لكمال الذم، وهو من البؤس الذي يمثل وصف سوء الحالة التي يؤول إليها الظالمين أنفسهم بولايتهم لإبليس. فلن يقودهم إلا لهلاكهم. كما أفاد قوله تعالى ﴿ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ ﴾ أن لإبليس ذرية، وأن له نسل. قال قتادة رحمه الله تعالى: وهم يتوالدون كما يتوالد بنو آدم، وهم أكثر عددا[١] فنسأل الله تعالى أن يجيرنا منه ومن ذريته، وأن يجعلنا من عباده الذين ليس للشيطان عليهم سلطان، إنه هو القادر القدير على ذلك، وهو السميع، المجيب.

ثم يخبر الله تعالى عن حقيقة إبليس وأعوانه الذين أطاعهم بعض الإنس، فانحرفوا بهم عن الحق، وأفسدوا عليهم دنياهم وآخرتهم ﴿ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴾ يخبر الله تعالى عباده بما يجب عليهم معرفته عن إبليس وذريته ﴿ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ فنفى سبحانه وتعالى شهودهم وحضورهم خلق السماوات والأرض، وإعلامهم وإخبارهم بذلك، بل لم يكونوا ذلك الوقت موجودين أصلاً، وليس الله جَلَّ جلاله في حاجة لهم، ولا لغيرهم في تدبير شأن شيء من خلقه سبحانه وتعالى. مما يدل على عجز إبليس وذريته، وجهلهم وضعف قدرتهم، وهونهم على الله تعالى، وجهل من يعبدهم أو يستعين بهم. وفي هذا بيان لعظيم قدرته جَلَّ في علاه. فهو الغني عن خلقه في كل شأن وأمر، فلا حاجة في خلق السماوات والأرض لأحد من عباده. بل ﴿ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ ﴾ ولا أحضرتهم لأشاورهم، ولا أشهدت بعضهم على خلق بعض، ولا استعنت ببعضهم على خلق بعض، بل تفردت بخلق جميع ذلك.

ثم يبين الله تبارك وتعالى تفرده بالخلق والملك، وعدم حاجته لغيره مما خلق ﴿ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴾ ولست في حاجة لأتخذ ﴿ ٱلْمُضِلِّينَ ﴾ أي: الشياطين ﴿ عَضُدًا ﴾ أنصاراً وأعواناً، فالعضد يستعمل في التعبير عن العون والقوة، والاعتضاد بالغير يعني الاستعانة بهم كما يستعين الإنسان بقوة عضده ليده، لأن العضد قوام اليد وقوتها. فأفادت الآية الكريمة قوة سلطان الله تعالى، وغناه الكامل المطلق عما سواه، فلا حاجة له في أحد من خلقه، وأن جميع خلقه فقراء إليه، بل عبيده، وتحت قهره وسلطانه. وفيه تساؤل لمن استعان، أو أشرك معه غيره في ملكه. فكيف اتخذتم هؤلاء الضالين، المضلين أولياء من دوني، وهم عبيد أمثالكم،

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٩٣/١٥)

فلم أُحضرهم عند خلق السماوات والأرض، ولم يكونوا أصلاً موجودين، ولا أشهدت بعضهم على خلق بعض، فكيف تُشركوهم في ملكي، وكيف تعبدونهم من دوني، وترجونهم، وتخافونهم، وتتركون خالقهم وخالقكم، ومُوجِدكم وموجدهم. فإنها محاجة قوية عظيمة، تستثير فكر وعقل كل من له عقل، وكل من يبحث عن الحق ويريده. مما يفيد أن هذا القرآن وهذا الدين يُعلم الإنسان الحق بالحق. ويفصل له الأدلة تفصيلاً دقيقاً.

﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾ ﴾

يخبر الله جَلَّ جلاله بما يُخاطب به المشركين يوم القيامة توبيخاً وتقريعاً لهم، وذلك على رؤوس الأشهاد ﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴾ فيقول تبارك وتعالى للمشركين ﴿نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ ﴾ يا من أشركتم معي غيري في عبادتي، وتوسلتم إليهم ﴿نَادُوا۟ ﴾ أطلبوا وأحضروا ﴿شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ ﴾ فاطلبوا من ادعيتم أنهم شركاء لله تعالى. فقد ادعيتم باطلاً وكذباً، وزوراً بأنهم شركاء لي في ملكي، وأشركتوهم في عبادتي، فأحضروهم إن كنتم فيما زعمتم صادقين، حتى ينفعونكم، وينجوكم مما أنتم فيه، ويدفعون عنكم العذاب. ومن جميل البيان ودقائقه أن ربط سبحانه وتعالى بين إضافة الشركاء وبين زعمهم ﴿شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ ﴾ فبحسب زعمكم أنهم شركاء، فأثبتوا حقيقة ذلك إن كنتم صادقين. وفي هذا ترهيب وإنذار في الدنيا بتصوير الموقف وكأنهم يُشاهدون المشهد أمامهم، ليفيد التحذير والتقريع الموضح والمبين للحقائق، وكأنهم يعيشونها الساعة. وهذا من لطف ورحمة الله تعالى بعباده إذ يبين لهم الحقائق بأدق ما يكون.

وبعد أن أمرهم الله تعالى بأن يطلبوا أولئك الشركاء الذين زعموا أنهم شركاء له بزعمهم يقول عَزَّ وجل ﴿فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ ﴾ فقد طلبوهم واستغاثوا بهم فلم يُغيثوهم ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴾ أي: حاجزاً ومانعاً من الهلاك، قال الزجاج رحمه الله تعالى: جعلنا بينهم من العذاب ما يوبقهم، أي: يهلكهم، فالموبق:

الْمُهْلِك[١] أي: الحاجز الْمُهلِك، وهو موافق لقول ابن عباس رضي الله عنهما، أنه: مَهْلِكاً[٢] فلا سبيل للالتقاء بين المشركين وبين من عبدوهم من دون الله تعالى. مما يفيد استثارة الحسرة والندامة، يوم لا تنفع الحسرة ولا الندامة. فأوجب لكم هذا البيان من الله تعالى أيها الناس أن تتعظوا، وتأخذوا حذركم من الشرك، وعليكم لزوم الطاعة كما أمركم ربكم تبارك وتعالى، وكما بينه لكم رسوله صلى الله عليه وسلم. وفي هذا ترهيب وإنذار في الدنيا بتصوير الموقف وكأنهم يُشاهدون المشهد أمامهم، ليفيد التحذير والتقريع الموضح للحقائق، وكأنهم يعيشونها الساعة.

ثم يتوالى مشهد يوم القيامة فيما يخص المشركين والكفرة عموماً والملحدين ﴿ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴾ فقد أبصر المجرمون النار بأبصارهم أمامهم ﴿ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ ﴾ فيشاهدونها وهي تتغيظ زفيراً من شدة لهبها وقوة اشتعالها، حنقاً عليهم من شدة معصيتهم لله تعالى، وهنا أيقنوا ﴿ فَظَنُّوٓاْ ﴾ أي: أيقنوا وتأكدوا بأنه لا مناص لهم عنها ﴿ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا ﴾ أي: داخلون في النار، بل جاء البيان بلفظة ﴿ مُّوَاقِعُوهَا ﴾ التي تفيد المخالطة والملابسة بشدة، بالوقوع فيها، وأنه لا مناص لهم عنها، إلى درجة أنهم ﴿ وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴾ فلم يجدوا أي سبيل يمكنهم أن يلجؤوا إليه عنها، فلا سبيل إلى الفرار. فإن حتمية الانغماس فيها حقيقة ثابتة، وهذه الفاجعة أول العذاب النفسي، من هول ما يرون من زفير ولهيب النار وغيظها. فواجب الإنسان الاتعاظ بما وعظ الله تعالى به، وبينه لهم، فقد قامت عليهم الحجة البينة الواضحة.

ثم يؤكد الله تعالى على عباده بكثرة ما تناوله القرآن الكريم من تعدد وتنوع ما وعظهم به، وكشفه لحقيقة الدنيا والآخرة، بما لا يدع للشك والريبة مكاناً لأحد ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴾ فلقد نوعنا ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا ﴾ أي: نوعنا وكررنا ورددنا ﴿ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ ﴾ في هذا الكتاب العظيم الذي أنزله الله تبارك على عبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم، ثم حدد وعَيَّن سبحانه وتعالى المستهدفين بما فيه من التصريف، بأنهم الناس أجمعين ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ ﴾ ثم أكد وبين عَزَّ وجل أن هذا الذي صرفه تبارك وتعالى لهم كان متنوعا ﴿ مِن كُلِّ

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٠٩/٥)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٩٦/١٥)

مَثَلٍ ﴾ من المواعظ، والقصص، ومن تشريعه وأحكامه، وتوجيهه وإرشاده، ترغيباً وترهيباً، بشارة وإنذاراً، أمثالاً، وقصصاً ومواعظاً، وإرشادا، وتوجيها، وحِكماً وأحكاماً، وإعجازا من كل وجه، وما تضمنه ذلك من دلائل الربوبية والألوهية، وأنه واحد أحد، فرد صمد، وأنه ليس له ولد، فلم يلد، ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد. وفي هذا البيان للعباد ما يبين قوة حجة القرآن الكريم، وأنه مليء بالزواجر لهم من عدم الامتثال والانتفاع بما فيه من التصريف المؤدي والموصل للحق والخير والهدى الذي تتحقق به سعادتهم في الدنيا والآخرة.

ثم بعد أن ذكر عَزَّ وجل ما تضمنه القرآن العظيم من كمال التوجيه، الذي يستوجب الاتعاظ به، والطاعة له تبارك وتعالى ولرسوله ولكتابه، أوضح جَلَّت قدرته موقف هذا الإنسان ﴿ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴾ أي: خصومة، ورداً، فمع كل ما تضمنه القرآن الكريم مما يوجب الطاعة والامتثال إلا أن هذا الإنسان يقابل هذا الهدي العظيم بالجدال. وقد ورد التعميم هنا لعموم جنس الإنسان، باعتبار أكثر الناس هم الكافرين، لجدالهم في الحق بالباطل، فلا يدخل فيهم أهل الإيمان الذين اتعظوا واستسلموا لله تعالى، وأطاعوا رسوله صلى الله عليه وسلم، واتبعوا كتاب الله تبارك وتعالى، واهتموا به، وأجَلُّوه إجلالا كبيراً، حفظاً وتلاوة، وامتثالاً. قال الإمام القرطبي: قال الزجاج رحمهما الله تعالى: أي الكافر أكثر شيء جدلاً، والدليل على أنه أراد الكافر قوله تعالى في هذه السورة ﴿ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ ۖ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُوا۟ هُزُوًا ﴿٥٦﴾ ﴾[1]

ثم يذكر الله سبحانه وتعالى امتناع الناس عن الإيمان بسؤال استنكار وتعجب عن امتناعهم عن الإيمان مع كثرة وعِظم هذه الحجج والبراهين التي تحمل الهدى ﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴾ فما الذي يمنع الناس من أن يتحقق منهم الإيمان، وقد جاءهم الهادي والمبشر والنذير محمد صلى الله عليه وسلم، ومعه القرآن العظيم ﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ ﴾ سؤال تعجب واستنكار من حال هؤلاء الناس الذين امتنعوا عن الحق الواضح الجلي بأدلته وحججه وبراهينه، فما الذي يمنعهم من الإيمان بالتصديق لما جاءهم من الحق ﴿ وَيَسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّهُمْ ﴾ فيستغفروا من ذنوبهم، بسؤال الله تعالى أن يمحوا ما كان منهم من الذنوب، ويعزموا على الطاعة والامتثال، والإقلاع عما كانوا عليه من الكفر والمعاصي. مما يبين أنه لم تكن هناك مطالب مُعضلة

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٦/١١)

تحول بينهم وبين الإيمان والتصديق والطاعة، فلم يكن هناك عقوبات وُضِعَت عليهم، ومطالب تُثقلهم لقبول إيمانهم، فإنه شيء عجيب، وأمر مستنكر.

فهل ينتظرون ﴿إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمۡ سُنَّةُ ٱلۡأَوَّلِينَ أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ قُبُلٗا﴾ فهل يريدون أن يصيبهم ما أصاب الأقوام السابقة التي كفرت بأنبيائها، فأذاقهم الله تعالى العذاب، بالغرق والخسف، وأشكاله المتنوعة. قال مقاتل رحمه الله تعالى: ﴿سُنَّةُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ عذاب الأمم السالفة. ﴿أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ قُبُلٗا﴾ أي: عياناً قتلا بالسيف يوم بدر[1] وهذا يدل على دقة البيان، والمقصد الذي تضمنته الآية الكريمة، ورحابة دلالتها الواعظة. وفي هذا التوجيه الكريم من الله تعالى ما يفيد الإنذار بعد البيان، والتهديد والوعيد بعد مجيء الهدى بالدليل الذي لا حجة لأحد في الامتناع عنه. فواجب الإنسان أن يستجيب لهذه الحجج البالغة من الله تعالى، كما يفيد هذا عناية الله تعالى ورحمته بالناس، إذ أرسل الأنبياء، وخاتمتهم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وأيده بالوحي، وبكتابه الكريم، وبنصره المؤزر، وبالحجج والبراهين العظيمة الوفيرة. فقامت الحجة، ووضحت المحجة، وأصبح الإنسان غير معذور من بعد ما جاءهم الهدى والبينات من الحق.

﴿وَمَا نُرۡسِلُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّۖ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوٗا ٥٦ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعۡرَضَ عَنۡهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُۚ إِنَّا جَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗاۖ وَإِن تَدۡعُهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ فَلَن يَهۡتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدٗا ٥٧ وَرَبُّكَ ٱلۡغَفُورُ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۖ لَوۡ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلۡعَذَابَۚ بَل لَّهُم مَّوۡعِدٞ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوۡئِلٗا ٥٨ وَتِلۡكَ ٱلۡقُرَىٰٓ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَعَلۡنَا لِمَهۡلِكِهِم مَّوۡعِدٗا ٥٩﴾

يخبر الله تبارك وتعالى عن مهمة الرُّسل، وما يقابلهم به الكفرة من الباطل، وذلك لمحاربة الحق، وكرههم له، بما يفيد كشف حقيقة هؤلاء المتمردين على رُسل الله تعالى، وإنذار لهم من عذاب الله تعالى ﴿وَمَا نُرۡسِلُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّۖ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوٗا﴾ فيخبر الحق جَلَّ في علاه أن مهمة المرسلين ليست هي إجبار الناس على الحق، ولا ليدعوهم

(1) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١١١/٥)

لأنفسهم، وإنما هم دعاة وهداة إلى الحق الذي أُرسِلوا به من الله العزيز الحكيم ﴿ وَمَا نُرۡسِلُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾ فمهمة الرُّسُل إرشاد الناس، ودلالتهم على الخير، الذي يوصلهم إلى رضوان الله تعالى وجنته، وهي البشارة ﴿مُبَشِّرِينَ ﴾ لمن آمن وعمل صالحاً، فيبشرون الناس بالجنة وعظيم الثواب لمن امتثل لما جاءهم به المرسلين من الحق. وينذرون الكافر الصَّاد عن سبيل الله تعالى بغضب الله تعالى عليه، ثم العذاب الشديد، والعاقبة الوخيمة في الدنيا والآخرة. وقد ورد البيان الإيضاحي لمهمة المرسلين بأسلوب الحصر والقصر، الذي يحصر ويقصر مهمتهم في البشارة والإنذار ﴿ وَمَا نُرۡسِلُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾ وفي ذلك تأكيد لهذه المهمة، ونفي أن يكون لهم حق تحقيق الهداية لغيرهم، أو القدرة على ذلك، أو أنهم يطلبون من الناس ما يقابل ذلك، وبالتالي يكون امتناع من امتنع عن الهدى أنه من باب العناد والتمرد، ومعاداة من لا يحمل لهم إلا الخير، ويحذرهم من عواقب الشر، فما الشيء الذي يمنع المعاندون من اتباع الحق إلا محبتهم للباطل، وإيثاره على الحق.

ثم يخبر الله تعالى بما يحدث من الكافرين من الجدال في الحق بغير علم ولا دليل ﴿وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ ﴾ أي: أن الكافرين ينازعون ويخاصمون المرسلين بالباطل المنافي والمضاد للحق، فيبادرونهم بالمنازعة والمخاصمة. في حين أن المرسلين لم يقوموا إلا ببيان الحق الذي يبشرون به من أطاع بالجنة والعاقبة الحسنة في الدنيا والآخرة، وينذرون من عصى الله تبارك وتعالى بالعاقبة السيئة، التي مآلها النار وبئس القرار. فما مقام المجادلة هنا إلا العناد والكبرياء، بل وصف تبارك وتعالى مضمون جدالهم أنه الباطل ﴿وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ ﴾ الذي انتفى عنه الحق، فليس في مضمون مجادلتهم شيء من الحق، بل إنه باطل محض، ثم بين تبارك وتعالى الهدف والغاية من المجادلة بالباطل ﴿لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ ﴾ فالهدف هو هدم الحق، وتغييبه عن الناس، وطمس أثره، لصرف الناس عنه، فهم فقط أعداء للحق، الذي يكشف الباطل وزيفه الذي هم فيه يهيمون.

ويستخدمون في ذلك أساليب السخرية والاستهزاء لصد الناس عن الحق الذي جاء به الرُّسُل ﴿وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوٗا ﴾ فاستهزؤا بآيات الله تعالى القائمة على الحجج والبراهين، لإضعاف وتغييب قوة الحجة عن عقول غيرهم، والتشويش عليهم، فلم يكتفوا بعدم الإيمان، بل انساقوا إلى جدال المرسلين، ثم تجاوزوا ذلك إلى الاستهزاء والاستخفاف بالحجج والبراهين، لتصغيرها وإضعافها في عقول الناس، حتى يصدوهم عن الحق، مما يكشف وينبه إلى خطورة هؤلاء المتمردين، وأن على الإنسان أن ينظر إلى الحق بنفسه،

ولا ينقاد إلى غيره، فإنه المسؤول عن نفسه، وأنه المقصود بهذه البينات والحجج التي جعلها الله تعالى على أيدي المرسلين آيات وحجج بينات على صدق ما جاؤوا به من الحق.

ثم يوضح تبارك وتعالى لعباده شناعة من أعرض عن دين الله تعالى بعد أن جاءهم الحق الواضح الذي لا لبس فيه ولا ريب ولا شك وذلك بأسلوب السؤال الاستنكاري ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴾ فهل هناك أكبر ظلماً ممن تم تذكيره بالحجج والبراهين من الله تعالى ثم يُعرض عنها، بالانصراف والرفض والتولي عن الحق ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا ﴾ سؤال يستدعي محاكمة النفس، ومحاكمة العقل، ومحاكمة هذا النوع من الناس الذين يرفضون الحجج والبراهين العظيمة التي يُذَكِّرهم بها المرسلون، والتي لا مجال للشك فيها، لأنها آيات ربهم سبحانه وتعالى، وأن مصدرها من الله تعالى، مما يدل على قوتها، وقوة حجيتها. فهو استنكار لمن يكفر وينكر الآيات، قال الإمام الشوكاني رحمه الله تعالى عن دلالة آيات الله تعالى: لا أحد أظلم لنفسه ممن وُعِظ بآيات ربه التنزيلية أو التكوينية، أو مجموعها، فتهاون بها، وأعرض عن قبولها، ولم يتدبرها حق التدبر، ولم يتفكر فيها حق التفكر[1] فهي شاملة لآيات الله تعالى في الأنفس والكون، والتي منها حجية القرآن الذي هو آية باقية إلى أن تقوم الساعة، فهو آية في عظمة أحكامه، وتشريعه، وتعاضد وتناسق ما فيه، وقوة أساليبه، ومواعظه وأمثاله، وحقائق قصصه، وبلاغة بيانه، وإعجاز أساليبه، وإيضاحه وبيانه لحال السابقين بدقة وعناية، وكذلك إخباره بالحقائق، والمغيبات، والاستدلال بالأدلة القطعية التي لا ينفيها عاقل، بل إن إعجازه ظاهر في كل باب من أبواب ما صَرَّف اللهُ تعالى فيه من الآيات والذكر الحكيم.

فليس هناك أعظم ظلماً للنفس وللحق ممن أعرض عن آيات الله تعالى ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا ﴾ وقد ورد البيان بصيغة الاستفهام الذي يفيد النفي والإنكار على من ذُكِّر بآيات وحجج ربه فأعرض عنها. فهل هناك أظلم ممن هذه حاله، ليكون الجواب: لا. ليس هناك أظلم ممن تم تذكيره بآيات الله الواضحات فأعرض عنها. بل وردت لفظة ﴿ أَظْلَمُ ﴾ بصيغة المبالغة في الظلم، الذي يفيد علو وارتفاع ظلمه، سواء من حيث صده ورده للآيات والحجج الواضحة، أو إعراضه ومعاندته لربه تبارك وتعالى. ومن الفوائد الدلالية أن كلمة ﴿ ذُكِّرَ ﴾ تحمل الوعظ والإرشاد والبيان، وتعطي دلالة التنبيه للشيء المعروف لدى الْمُخَاطَب، فهو

(١) الشوكاني، فتح القدير (٣/٢٩٦)

تذكير بما هو في فطرته التي فُطِر عليها الإنسان، وبآيات القرآن العظيم، وبالآيات الكونية التي يشاهدها ويعايشها، وبالآيات التي في أنفس المخاطبين، لأن قوله تعالى ﴿ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ﴾ لم تقصرها على آيات محددة، بل وردت مطلقة، لتشمل جميع الآيات، وهذا من عمق دلالة النص، الذي يتناسب مع التذكير بجميع آيات الله تعالى المتنوعة، ومنها آيات القرآن التي تتعاضد مع الآيات الكونية، وآيات الأنفس، وآيات التدبير والتصريف للكون كله. فإنه تذكير بالحق والخير الذي تقبله النفوس وتميل إليه، وهو تذكير بالحق الذي يقبله العقل ويميل إليه، فليس ما يُذَكَّر به الْمُخَاطَبُ هو حادث جديد، بل تذكير بما غاب عنه نتيجة انغماسه في الباطل، وأنه تذكير بما يصدقه العقل، ولا يتنافى مع العقل السليم، وأنه تذكير بالحق الذي تقبله النفوس.

ومن قوة ظُلم هؤلاء الجاحدين للحق أنهم يتغافلون عن مساوئ أنفسهم من الكفر والمعاصي والظلم ﴿وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُ﴾ فيتغافل عما كان منه من ارتكاب المعاصي والذنوب من الظلم والكفر وغيره، ولم يتب منها، فلا يتدبر ولا يكترث ويهتم بالعواقب، ومع هذا ينكر ويعارض الهدى الواضح، ويحاربه. ومن دقائق البيان الكريم هو وصف تغافله عما قدمت يداه بالنسيان ﴿وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُ﴾ بما يفيد أنه نسيان تغافل وإهمال وعدم اهتمام، فهو متغافل عن ماضيه، ومتغافل عما بدر منه من عظيم المعاصي، والتي أشدها الكفر.

ثم يُخبر الله تبارك وتعالى عن عقوبته لهؤلاء الذين بالغوا في الظلم وصدهم وَرَدُّهم للحق الذي جاءهم من ربهم تبارك وتعالى ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗاۖ وَإِن تَدۡعُهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ فَلَن يَهۡتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدٗا﴾ فأول هذه العقوبات متعلقة بالقلب الذي هو مناط الفهم ومركزه ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ﴾ فقد عاقبهم الله تعالى بحرمانهم من الإفادة من الحق بعد محاربتهم له، فجعل على قلوبهم ﴿أَكِنَّةً﴾ أي: أغطية وموانع تمنعهم من أن يفقهو ويفهموا الحق، فكما صدوا عن الحق وحاربوه، صدهم سبحانه وتعالى ومنعهم من نعمة الحق، جزاء وفاقاً من جنس صدهم للحق، وهذا متعلق بالقلب الذي هو محل الفهم، وأما العقوبة الثانية: فمتعلقة بالسمع ﴿وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗا﴾ أي: ثقلاً يمنعهم من استماع الحق على سبيل الانتفاع. مما يفيد أن من عقوبات المتمادي في الطغيان والمعصية أن الله تعالى قد يحجب عنه أسباب الإقلاع عن الكفر، جزاء وفاقاً له، لمعرفته بالحق ثم يُضاده، إذ يعرف الحكم، ويصر عليها عناداً واستخفافاً، بما يفيد الحذر من الطغيان والتمادي، وأن على من عصى الله تعالى أن يتوب ويُقلع عن الذنب، وإن تكرر منه تاب وعزم، فيظل الخوف من الله تعالى مسيطر عليه، بما تتمثل به النفس اللوامة، ولا ييأس من رحمة الله تعالى، ولا يقنط، ولا يكون من المحاربين للهدى من أجل معصيته، بل يُقِرُّ بأنها معصية، ولا يناصرها ويستحلها.

وثالث هذه العقوبات: حجب الهداية عنهم بالكلية ﴿وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدًا﴾ فعاقبهم الله تعالى بالطبع على قلوبهم، وتحقق فيهم عدم الاستجابة للهدى والانتفاع بخيرها، ثم أكد تبارك وتعالى عدم انتفاعهم بالبيان قطعاً ﴿فَلَن يَهْتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدًا﴾ فكلمة ﴿أَبَدًا﴾ تبين القطع والجزم بشأن امتناع الهدى عنهم كما امتنعوا عنه وحاربوه بالباطل، فكان الجزاء من جنس العمل. فإن الله تعالى قد عَلِمَ أن هؤلاء لن يحصل منهم الاهتداء.

ثم يخبر الله تبارك وتعالى عن سعة مغفرته ورحمته، وعظيم حلمه على عباده ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا﴾ يوضح تبارك وتعالى لعباده عَمَّا يُطَمّعهم في رحمته، ويستحثهم على التوبة والإنابة إليه، مع بيان عظيم قدرته بالدليل القاطع، فيخبر الله تعالى عباده من خلال مخاطبته عَزَّ وجل لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم عن عظيم مغفرته ورحمته وحلمه على عباده، وأنه يعاملهم بموجب هذه الصفات الجليلة العظيمة، لا بمقتضى ما يستحقون من العقوبة لمن عصى وتكبر وكفر، فبدأ البيان الكريم بقوله عَزَّ وجل ﴿وَرَبُّكَ﴾ ليعطي ويفيد تحقيق كمال الربوبية، الذي هو مالكك، والذي أصلحك وهداك. وقدم سبحانه وتعالى لفظة ﴿وَرَبُّكَ﴾ على ما بعدها ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ ليفيد الاختصاص بما بعدها، والذي لا يكون ذلك لغيره من خلقه، وهي المغفرة للعباد الذين يتوبون، وأنه يرحم عباده، فلا يعاجلهم بالعقوبة، بل يحلم عليهم ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ فإنه سبحانه وتعالى ﴿ٱلْغَفُورُ﴾ المتصف بالمغفرة. أي: صاحب المغفرة الكثيرة لمن تاب من عباده، فيمحوا عنهم الذي اقترفوه من الذنوب إذا أنابوا إلى ربهم، وهو اسم من أسماء الله تعالى الحسنى، وهو من صيغ المبالغة، الذي يفيد كثير المغفرة، سواء من حيث كثرة الذنوب، أو من حيث تعددها وتنوعها، وضخامتها وصغرها، فالمغفرة من صفات الله تعالى، والتي تفيد الستر، والتغطية، فهو سَتَّار سبحانه وتعالى، فيستر ذنوب وعيوب عباده، فيتجاوز عنها، وكأنه لم تحدث منهم تلك الذنوب، مهما كانت ضخامتها لمن تاب وآمن وعمل عملا صالحاً.

وكذلك اتصف سبحانه وتعالى بالرحمة ﴿ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ فهو سبحانه وتعالى المالك للرحمة، وصاحبها، والمختص بها، والذي يمنحها، ويمنعها، فهي صفة من صفاته عَزَّ وجل، قد اتصف بالرحمة الرحمن الرحيم. مما يستدعي من كل أحد من عباده أن يسعى سعياً حثيثاً للحصول على مغفرته ورحمته، وأنه لا يحول حائل بين تحصيلها وتحقيقها لمن أتاه تائباً راغباً، ومؤمناً، يسعى في عمل الصالحات، ومنتهي ومقلع عن الذنوب والسيئات.

ثم يبين سبحانه وتعالى امتنانه على عباده بحلمه عليهم، فلا يعاجلهم العقوبة ﴿لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ﴾ فلو يعاجلهم بما يستحقون من العقاب لعجل لهم العذاب، فلو لم يكن غفوراً رحيما لبادرهم وعاجلهم بسرعة العقاب على كفرهم وطغيانهم، ومحاربتهم لرسوله صلى الله عليه وسلم، فاستحقوا بذلك كمال العقوبة، ولكن يحلم عليهم، لعلهم يتوبون ويستغفرون ويقلعون عن كفرهم ومعاصيهم، ويرجعون إلى الله تعالى بالإنابة والإيمان، والطاعة له سبحانه وتعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم، فيعملوا الصالحات، ويُقلعوا عن السيئات.

ثم يخبر الله تعالى بمن اغتر بحلمه ورحمته سبحانه وتعالى، وبقي على عصيانه وكفره ﴿بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا﴾ بل جعل لهم أجلاً مقدراً يوافيهم فيه بما يستحقون من العذاب، وحينها ﴿لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا﴾ فلن يجدوا من دون هذا العذاب ما يعتصمون به عنه، فلن يجدوا أي ﴿مَوْئِلًا﴾ أي: مكاناً يمتنعون به عن عذاب الله تعالى، فيلجؤون إليه. وفي هذا إخبار وإعلام للعباد بحقيقة ما يجدون من حلم الله تعالى، وعدم مسارعته للعاصين بالعقوبة، وتحذير لهم من ذلك، كما أن فيه ترغيب وحث للتوبة من الذنوب، مهما كانت عظيمة، فإنه لا يحول بين التوبة وبين مغفر الله تعالى حائل.

ثم يؤكد الله عَزَّ وجل لعباده حقيقة ذلك بما سبق للأمم السابقة ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾ وتلك القرى الماضية التي قصصناهم عليك كقوم هود وصالح ولوط وشعيب أهلكنا أهلها المكذبين بعذاب الاستئصال بسبب ظلمهم بالكفر، وجعلنا لهلاكهم وقتاً مقدراً ومحدداً، لا يتقدمون عنه ولا يتأخرون. وبدأ النص الكريم باسم الإشارة ﴿وَتِلْكَ﴾ للتأمل في ماضي قد انتهى، وبلغكم نبأ هلاك أهل تلك القرى ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟﴾ إنها تلك القرى، التي بقيت آثارهم فيها، من العذاب الذي أصابهم بسبب تمردهم على أنبيائهم، كقوم لوط، وهود، وصالح، وغيرهم. وقد أشار إليهم بعموم مساكنهم ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ أي: أهل تلك القرى التي تمرون عليها، وتعرفون أماكنهم، وما بلغكم من قصصهم، الذين حصل لهم العذاب ﴿أَهْلَكْنَٰهُمْ﴾ فجاءهم عذاب الله تعالى فاستأصلهم، فكان هلاكهم هلاك إبادة لهم.

وورد الوصف لعذابهم بالهلاك، الذي يعني أن نوعه هو الاستئصال التام بالهلاك ﴿ لَمَّا ظَلَمُوا ﴾ فكان الهلاك بسبب ظلمهم، الذي تحقق منهم، وليس ظلماً منَّا. فإنهم هم الذين ظلموا أنفسهم، فحق عليهم العذاب. ولم يكن العذاب في حقهم ظلم لهم، بل هم الذين ظلموا أنفسهم بفسقهم ومعصيتهم لله تعالى ولرسله، إذ كفروا بهم. فعليكم الاتعاظ بما حصل لمن قبلكم ﴿ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴾ وقد جعلنا موعداً محدداً للهلاك الذي استأصلناهم به، بما يفيد بعد أن أمهلناهم لعلهم يرجعون عن طغيانهم وعنادهم وكفرهم وبغيهم، ولكنهم تمادوا في كفرهم وطغيانهم، فحل عليهم ما يستحقون من العذاب في الموعد الذي حددناه وقضينا موعده، فاحذروا أن يكون عقابكم مثل عقابهم، فيصيبكم مثل ما أصابهم من العذاب الذي يستأصلكم أيها المكذبون برسولكم الذي تعرفونه، وتعرفون صدقه، وتنكرون الحجج والآيات التي أتاكم بها.

وفي هذا البيان من الله تعالى ما يبين رحمته، فلو شاء عَزَّ وجل لما وعظهم بمن قبلهم، ولما أنذرهم، ولما رهبهم بالعذاب الذي حل بمن قبلهم، ولا رَغَّبهم في مغفرته إن تابوا وأنابوا، فدل ذلك على أن الله تعالى ما أراد العذاب بخلقه، ولكن الجاحدون يصيبهم العذاب بظلمهم لأنفسهم، وبالتالي، فإن الله تعالى ليس بظلام للعبيد.

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ ۚ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ ﴾

بعد أن ذكر الله تعالى قصة أصحاب الكهف، ثم قصة الرجلين: المؤمن والكافر الذي جعل الله له جنتين من أعناب ونخل وزروع، ينتقل السياق إلى قصة ثالثة لكليم الله موسى بن عمران مع الخضر عليهما السلام. فبدأ الله تعالى القصة بتوجيه نبيه ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم بأن يذكرها على سبيل العناية وإثبات رسالته عليه الصلاة والسلام، وأن ذلك من دلائل وآيات وبراهين رسالته صلى الله عليه وسلم، وأنه رسول الله، إذ

يحدثهم بنصوص الوحي عن عظائم القصص، التي يعرف أطرافاً منها بعض أهل الكتاب، فقال تعالى ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴾ فاذكر لهم أيها النبي صلى الله عليه وسلم حين قال موسى بن عمران عليه السلام ﴿لِفَتَىٰهُ ﴾ وهو خادمه الذي يلازمه، إذ دلت كلمة ﴿لِفَتَىٰهُ ﴾ قوة الملازمة من الخادم لموسى عليه السلام حتى سُمّيَّ فتاه، مما يدل على كريم أخلاقه عليه السلام، ونُبل تعامله، خاصة مع خادمه، قال ابن الجوزي رحمه الله تعالى: وإنما سُمّيَّ فتاه لأنه كان يلازمه، ويأخذ عنه العلم، ويخدمه[1] كما أن في مخاطبته والتحدث معه عما يقوم به دلالة إضافية على تواضعه عليه السلام، ودلالة على أمانة فتاه، وثقته فيه، فيقول لخادمه ﴿لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴾ فيقول موسى مبيناً لخادمه عن عزمه وإصراره على مراده ﴿لَآ أَبْرَحُ﴾ لا أزال سائراً على ما أنا عليه من السير، ولن أفارقه حتى أصل إلى مرادي ﴿ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴾ لا أزال أتابع سيري حتى أصل إلى ملتقى البحرين لأجد مبتغاي، أو أمضي في مسيري زمناً طويلاً لأصل إلى هدفي ومرادي وغايتي التي أطلبها، وهي ملاقاة الرجل الصالح. مما يدل على قوة عزيمة موسى عليه السلام، وقوة إسراره وجلده، وتحمل مصاعب ومتاعب السفر ليصل إلى مراده ومبتغاه، وهو تحصيل أحد أمرين: فالخيار الأول: ﴿أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ ﴾ أي: ملتقى البحرين، وهو الموضع الذي وعده الله تعالى بلقاء الخضر فيه، وقال قتادة وغير واحد رحمهم الله تعالى: أنهما ملتقى بحر فارس مما يلي المشرق، وبحر الروم مما يلي المغرب، وقال محمد بن كعب القرظي: مجمع البحرين عند طنجة، يعني في أقصى بلاد المغرب[2] ولعله ملتقى البحر الأبيض، والبحر الأحمر. ومن جميل البيان القرآني ترك تعيين اسم البحرين مجملاً، لأنه لا منفعة في معرفة اسمه، أو تعيين موقعه. مما يفيد أهمية الاقتصار في البيان على ما يحتاجه المتلقي، وعدم الخوض في تفاصيل ما لا حاجة ولا فائدة له فيها.

وأما الخيار الثاني ﴿أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴾ أي: أسير زمناً طويلاً، قيل: ثمانون سنة، وقيل سبعون سنة، وهو الْحُقُب، وتقول العرب: كُنت عنده حِقْبَة من الدهر، أي زمناً ليس بالقصير. فهو يُعبر عن المبالغة في طول الزمن. مما يدل على الجدية عند موسى عليه السلام، وقوة الإرادة في طلب العلم، حيث ورد أن علة ذلك السفر هو ما ذكره النبي صلى الله عليه وسلم عن موسى عليه السلام: فقد جاء عنه صلى الله عليه وسلم في

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١١٥/٥)
(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٩٧/٣)

الصحيح أنه (قام موسى النبي خطيباً في بني إسرائيل، فَسُئل: أي الناس أعلم؟ فقال: أنا أعلم. فعتب الله عليه، إذ لم يَرُدَّ العلم إليه. فأوحى الله إليه: أن عبداً من عبادي بمجمع البحرين هو أعلم منك. قال: يا رب وكيف به؟ فقيل له احمل حوتاً في مكتل، فإذا فقدته فهو ثَمَّ. فانطلق، وانطلق بفتاه يُشَع بن نُون، وحمل حوتاً في مكتل، حتى كانا عند الصخرة، وضعا رؤوسهما وناما، فانسل الحوت من المكتل، فاتخذ سبيله في البحر سربا)[1]

وقد استمر موسى عليه السلام وفتاه في السير ﴿ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴾ وعندما بلغ موسى عليه السلام وفتاه ﴿ مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا ﴾ أي مجمع البحرين ﴿ نَسِيَا حُوتَهُمَا ﴾ فنسيا أن يتفقدا حوتهما، فتركا حوتهما، ونُسب النسيان للإثنين، بالرغم من أن حمل الحوت هو من مسؤولية فتاه، ولكن باعتبار أن موسى عليه الصلاة والسلام لم يُذَكِّر فتاه، فنسي أن يُذَكِّره، فيكون قد لحق كل واحد منهما النسيان، فأضيف النسيان إليهما. مما يفيد تعاضد المسؤولية وخاصة في السفر، فلا يكن الاتكال على أحد دون أن تكون هناك متابعة من الآخر، مما يفيد تقاسم المسؤولية وإن كانت منوطة بأحدهما. ولذلك يُنسب للمجموعة ما كان منهم وإن انفرد به أحدهم أو بعضهم، فيقال أحضر القوم طعامهم معهم، بينما الذي كان يحمله ربما أحدهم. وإذا حصل أن غفل أحد أفراد المجموعة عن شيء، فتركته، قيل نسي القوم كذا وكذا، وصنعوا كذا وكذا، فجرى الوصف وإيقاع المسؤولية على الجميع.

ولما نسيا الحوت، حدثت آية عظيمة من الله تبارك وتعالى ﴿ فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴾ فقد اتخذ الحوت ﴿ سَبِيلَهُۥ ﴾ أي: طريقه نحو البحر، مما يدل أن الله تعالى بعث في الحوت الحياة ﴿ فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴾ بل أسند الله تعالى الفعل للحوت، بأنه هو الذي اتخذ سبيله في البحر ﴿ سَرَبًا ﴾ أي: سلك طريقاً إلى البحر، وفي هذا بيان لقدرة الله تعالى في إحياء الحوت الذي مات وفقد الحياة بخروجه من الماء، ثم تعود إليه الحياة. وكذلك كيف يتحقق النسيان من موسى عليه السلام وفتاه في أمر هام جداً، وهو طعامهما الذي به يحفظ الله تعالى حياتهما. ليكون هذا الفقد علامة لموسى بما أخبره الله تعالى به مسبقاً، قبل أن يحدث هذا الأمر. لأنه هو العلامة التي سيلتقي فيها موسى بالخضر. قال صلى الله عليه وسلم (أوحى الله إليه: أن عبداً من عبادي بمجمع البحرين هو أعلم منك. قال: يا رب وكيف به؟ فقيل له احمل حوتاً في مكتل، فإذا فقدته فهو ثَمَّ. فانطلق، وانطلق بفتاه يُشَع بن نُون، وحمل حوتاً في مكتل، حتى كانا عند الصخرة، وضعا رؤوسهما وناما، فانسل الحوت من المكتل، فاتخذ سبيله في البحر سربا، وكان لموسى وفتاه عجبا)[2]

---

(١) البخاري، الجامع الصحيح (١/٥٩-٦٠) برقم (١٢٢)

(٢) البخاري، الجامع الصحيح (١/٥٩-٦٠) برقم (١٢٢)

ثم يُخبر الله تعالى أن موسى وفتاه قد انطلقا وتجاوزا مجمع البحرين، ثم توقفا في طريقهما، لتناول طعامهما ﴿ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴾ وفي الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم (فانطلقا بقية ليلتهما ويومهما، فلما اصبح قال موسى لفتاه: آتنا غداءنا، لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا. ولم يجد موسى مساً من النصب حتى جاوز المكان الذي أُمر به)[1] فعندما تجاوزا مجمع البحرين الذي هو المكان والملتقى لهما بالخضر ﴿ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا ﴾ طلب موسى عليه السلام من فتاه أن يضع الطعام الذي سيأكلانه كوجبة غداء، وهو الحوت الذي كان معهما. وفي هذا دليل على أن المسؤول بحمل الحوت كان هو فتى موسى عليه السلام، ولكن نُسب النسيان لهما باعتبار أن موسى لم يُذَكِّر فتاه بالحوت، ويتابعه بالتأكيد عليه والتذكير له. فنسي ما يخصه من التذكير لفتاه، فنسي المتابعة له، حتى يُرشده إلى حمل الحوت.

ومن جميل الفوائد أن موسى عليه الصلاة والسلام لم يطلب الغداء باسمه المفرد، ليخص نفسه، بل طلبه بصيغة الجمع ﴿ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا ﴾ فكلاهما يأكلان معاً، ولا يُفَرِّق بينه وبين فتاه في الجلوس للطعام، والأكل منه، وهذا من كريم أخلاقه وتواضعه عليه الصلاة والسلام، حتى أن التعب والنصب، جاء وصفه بصيغة الجمع ﴿ لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴾ ويبين السياق شدة ما لقياه من التعب، إذ بدأ الوصف بأداة التحقيق والتأكيد ﴿ لَقَدْ ﴾ ثم تعيين السفر المقصود باسم الإشارة ﴿ هَٰذَا ﴾ من قوله ﴿ لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا ﴾ والذي يدل على أن المقصود به هو ما كان من بعد مجاوزتهما لملتقى البحرين، فوجدا في هذا السفر مشقة، وذلك لطول المسافة التي قطعاها، ولا شك أنه يدخل فيها ما كان قبلها من السفر، ولكن لم يظهر هذا الإعياء إلا في تلك المسافة ﴿ لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴾ والنصب هو التعب والإعياء، مما يفيد أن قوله ليس هو من باب التشكي، وإنما من باب الاستئناس بالإخبار عن الحال التي تعبا فيها، مما يفيد أنه لا بأس بأن يذكر الإنسان مثل ذلك على سبيل الإخبار والحديث والاستئناس، وليس على سبيل التشكي.

ثم امتد بهم الحديث، بعد أن اكتشفا فقدهما للحوت، فقال الفتى لموسى عليه الصلاة والسلام، ما قاله الله تعالى عنهما ﴿ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴾ فقال فتى موسى لموس عليه السلام بصيغة التعجب ﴿ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ ﴾ أتذكر حين نزلنا عند الصخرة. ومن دقائق البيان وإعجازه أن السياق في القرآن الكريم

---

(١) البخاري (١/٥٩-٦٠) برقم (١٢٢)

يستغني عن اللفظ والبيان الذي يُغني عنه غيره، فلم ينص سبحانه وتعالى على القائل بأنه فتى موسى، لدلالة السياق عليه. فلفت الفتى انتباه موسى عليه السلام بسؤال تذكيري يحمل أسلوب التعجب للموقع الذي توقفا عنده، وهو ملتقى البحرين، بما يفيد استغرابها من ذلك النسيان الذي أفقدهما حمل الحوت معهما ﴿ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ ﴾ أتذكر حين أوينا إلى الصخرة التي كانت عند مجمع البحرين، وهنا لم يُذكَر موقع مجمع البحرين، لأن السياق والمكان الذي توقفا فيه، هو مجمع البحرين، فأغنى ذلك عن ذكره مرة أخرى، وذلك من دقائق البيان، وإعجازه في السياق.

فبدأ الحديث بشد الانتباه إلى ذلك المكان الذي توقفا عنده، ليبين أنه حدث هناك حدث له ارتباط بقضية الحوت، فقد حدث هناك أمر عجب، يشتد فيه العجب ﴿ فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلْحُوتَ ﴾ فقد حصل مني ما لم يكن له وقوع طبيعي من مثلي ﴿ فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلْحُوتَ ﴾ فقد حصل مني نسيان الحوت، ولم يقل نسيت الغداء، بل أوقع النسيان على الحوت، ليدل على أن الحوت كان زاداً كثيراً، ومن بعضه يكون الغداء، فهو يكفي لتلك الوجبة ولغيرها. وأوقع سبب النسيان للشيطان ﴿ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ﴾ فالذي أنساني أن أذكر الحوت فأحمله معي هو الشيطان، وقد أسند النسيان إلى الشيطان باعتباره هو الذي يُوقع الإنسان فيما يجلب له المشقة، بوسوسته، وإشغاله عما ينفعه، وتذكيره وإشغاله بما فيه مفسدته.

ومن دقائق البيان أن كلمة ﴿ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ﴾ تعود على الحوت، بأن أذكره لأحمله، وقد تعود إلى الشيطان أن أتعوذ منه، وقد تعود على أن أذكر لك شأن الحوت ﴿ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴾ ولا يمنع أنه نسي أمر الحوت، فاتخذ طريقه إلى البحر، ونسي كذلك أن يخبره بهذا الأمر. وهذا من بلاغة السياق الذي استوعب جميع تلك الأوجه من الدلالات المتوافقة، ومن غير تعارض بينها.

وباعتبار أن الحوت ﴿ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴾ فإنه دليل على أن الله تعالى أعاد للحوت الحياة فتمكن الحوت من اتخاذ طريقه إلى البحر ﴿ عَجَبًا ﴾ وموضع التعجب هو أن يحيا الحوت ليتجه إلى البحر الذي هو مكان حياته. فإنه أمر عجيب جداً. وكذلك نسيان فتى موسى أن يخبر موسى عليه السلام بذلك الأمر، فهو عجيب كذلك. مما يبين تقدير الله تعالى، وقضاؤه، وحكمته لما حدث، وأنه يدبر الأمر بما يراه لصلاح عباده، لا بما يراه العبد لنفسه.

ثم يُخبر الله تعالى بما رَدَّ به موسى على فتاه ﴿ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴾ ذلك الذي ذكرت من فقدان الحوت، ونسيان شأنه هو الذي نريده ونطلبه من سفرنا هذا. ولم ينص هنا سبحانه

وتعالى على اسم المتحدث بأنه موسى عليه الصلاة والسلام، لدلالة السياق عليه ﴿ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ﴾ قال موسى لفتاه: ذلك الذي ذكرت من فقدان الحوت، ونسيان شأنه هو الذي نريده ونطلبه من سفرنا هذا، فذلك من العلامات الدالة على ما نطلب. فإن الرجل الذي نريده هناك، حيث نسينا الحوت. مما يبين أن ما يحدث للإنسان مما لا يريده، قد يكون خلفه ما يتمناه ويريده ويطلبه، بما يؤكد أهمية الإيمان والرضا بالقضاء والقدر، وأن لله تعالى حكمة فيما سارا إليه من مسافة عن المكان المحدد، ليعودا إليه مرة أخرى، بعد عناء ومشقة، مما يفيد أن طلب الشيء قد يناله الإنسان بمشقة، أو بشيء منها، لأنها من سنة الله تعالى في كونه، وأن الأمور لا تأتي للإنسان كما يرتبها فقط، بل لله تعالى إرادة، مما يفيد أهمية الاستعانة بالله تعالى، وأهمية الرضا، وإدراك أن لله تعالى حكمة فيما يقضيه، كما يفيد هذا أن طلب العلم يحتاج إلى مشقة، وقد يحتاج إلى السفر، وأن المطلوب العزيز يحتاج إلى جهد وصبر.

فقد اتخذ موسى القرار بالعودة إلى ذلك المكان الذي فقدا فيه الحوت ﴿ فَارْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴾ أي: رجعا مع الطريق الذي سلكاها من قبل، وهما يقصان أثرهما حتى لا يخطئا الطريق المقصود، مما يدل على دقة متابعة الأثر للوصول بأسرع وقت، وبأقل مشقة. وهذا من توفيق الله تعالى لهما. وأفاد البيان من قوله تعالى ﴿ فَارْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴾ سرعة عودة موسى عليه السلام وفتاه الذي معه، والتي تعبر وتبين قوة الاهتمام، والشوق إلى الالتقاء بمن هو أكثر منه علماً، والرغبة في العلم. فكلمة ﴿ فَارْتَدَّا ﴾ تبين سرعة العودة من حيث أتيا ﴿ عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴾ على نفس أثر الطريق الذي سلكاه، وكانت هيئة مسيرهما أنهما يقصان أثرهما للوصول بأقل مشقة، وأسرع وقت.

ثم يخبر الله تبارك وتعالى بما وجداه في المكان الذي نسيا فيه الحوت، وذهابه في البحر سرباً، الذي هو مجمع البحرين عند الصخرة ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾ فلم يسم سبحانه وتعالى العبد الذي وجداه، لأن العبرة بالحدث وليس بتعيين الاسم، فاستغني عنه، ولكن ذكره تبارك وتعالى بأسلوب التفخيم والتعظيم بما ناله من المدح والتزكية من الله تبارك وتعالى ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ﴾ فسماه ﴿ عَبْدًا ﴾ بصيغة التنكير، ليفيد التعظيم، ثم أضافه عَزَّ وجل إلى عباده ﴿ مِّنْ عِبَادِنَآ ﴾ فهو واحد من عبادنا بما يفيد التشريف له بهذه الإضافة الكريمة، ثم تدرج عَزَّ وجل في مدحه بما خصه من فضله ﴿ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾ فقد أعطاه الله تعالى من عنده رحمة

﴿ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا ﴾ أي عطاء من الخير تفضلاً ومِنَّة على هذا العبد الصالح. وقد نسب سبحانه وتعالى الرحمة له عَزَّ وجل، وكذلك العطاء تفضلاً على هذا العبد، وتتسع دلالة الرحمة لجميع ما أنعم الله تعالى به عليه، فتخصيصه بها عطاء من الله تبارك وتعالى، ودلالة على سعة ما منحه من الفضل والخير، حتى قيل: أنها النبوة، قاله مقاتل، وقيل: الرِّقة والحُنُو على من يستحقه، ذكره ابن الأنباري، وقيل: النعمة، قاله أبو سليمان الدمشقي[١] وزاده الله تعالى على ذلك الفضل أن علمه علماً عظيماً ﴿ وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾ وهو ما منحه الله تبارك وتعالى له من علم الغيب.

وورد كذلك كريم الثناء عليه بالمزيد من عظيم التفخيم، إذ أضاف الله تبارك وتعالى التعليم له عَزَّ وجل ﴿ وَعَلَّمْنَٰهُ ﴾ وكذلك ﴿ مِن لَّدُنَّا ﴾ للمزيد من التفخيم والتعظيم لهذا العبد الصالح، وكذلك للعلم الذي علمه إياه عَزَّ وجل ، وكذلك كلمة ﴿ عِلْمًا ﴾ إذ لم يكتف السياق بالقول: وعلمناه، أو: وعلمناه من لدنا، بل أضاف ﴿ عِلْمًا ﴾ ليفيد تأكيد الخصوصية لعلم مخصوص، قد خُصَّ به. وهو متعلق بعلم شيء من الغيب كما هو واضح من الأحداث التي يكشفها لموسى عليه السلام. وقال ابن كثير رحمه الله تعالى: وهذا هو الخضر، كما دلت عليه الأحاديث الصحيحة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم[٢] قال ابن عباس رضي الله عنهما: أعطاه علماً من علم الغيب[٣] مما يفيد أن الله تعالى هو الفتاح العليم، فيفتح على من يشاء بما يشاء من العلم، وقد يميز هذا بعلم وذاك بعلم. كما أن هذه الأحداث تفيد أهمية طلب العلم، وتحمل المشاق في سبيله، كما هو حال موسى عليه السلام مع الخضر، وألا يعتقد الإنسان في نفسه أنه الأعلم والأفضل، بل يتواضع في ذلك، ويدرك أن هناك من يمنحه الله تعالى منحاً وفطنة في العلم قد لا تكون عند غيره، أو عند الكثير من أهل العلم، وأن فضل العلم كبير وعظيم، إذ سعى وتكبد موسى عليه السلام المشاق من أجل أن يتعلم شيئاً من العلم غير الذي عنده.

ثم يخبر الله تعالى بما دار بين موسى والخضر عليهما السلام من التلطف لتحصيل العلم من الرجل الصالح ﴿ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴾ فبدأ موسى عليه السلام بالاستئذان لتحصيل العلم، وبأسلوب السؤال الذي يحمل الملاطفة وحُسن الأدب عن إمكانية قبوله في متابعته له ﴿ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ ﴾ سؤال يحمل طلباً، واستئذاناً يحمل تلطفاً، بما يفيد أهمية التلطف والتواضع لمن يُطْلَبُ

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١١٨/٥)

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٩٧/٣)

(٣) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١١٨/٥)

منه أو عنده علماً من العلوم والمعرفة، وأن يُظهر المتعلم عمق التواضع، وبيان الحاجة لما وهبه الله تعالى من العلم، وأنه مهما كان الإنسان عالماً فإنه يلزمه التحلي بحلية طالب العلم إذا كان في موقع المتعلم، وأن لا يذهب لطلب ما يحتاجه من علم وهو يشعر برفعة منزلة في نفسه، فتظهر عليه في طلبه، وقد تمنعه من أسباب التحصيل

ثم أظهر وبين موسى للخضر عليهما السلام علة المتابعة، وحاجته لما خصَّه الله تعالى به من علم ﴿عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا﴾ فطلب موسى عليه السلام أن يعلمه ﴿مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا﴾ مما علمك الله تعالى، فأسترشِدَ به، وأهتدي به، من الوقوف على الخير، وإصابة الصواب، وتحصيله. ولم ينسب موسى عليه السلام العلم للخضر عليه السلام بل جعله مبني على عدم ذكر فاعله ﴿عُلِّمۡتَ﴾ ليتحقق به فوائد دلالية عظيمة، ومهمة، منها: أن هذا العلم ليس هو من لدنك، بل هو عطاء من الله تعالى، قد خصك به. وكذلك فيه إظهار قيمة العلم الذي خصَّه الله تعالى به، وأن الله تعالى هو المتفضل، وخَصَّ علة الطلب فيما سوف يُحَصّله بصفة الرشد، فإن ما يطلبه موسى عليه السلام من العلم من أجل أن ينتفع به ﴿رُشۡدٗا﴾ أي: استرشد وانتفع به. وليس في هذا الطلب دلالة على افتقار موسى عليه السلام من العلم، بل قد أعطاه الله تبارك وتعالى من العلم شيئاً عظيماً، وأعلاها النبوة، والتوراة، والآيات التي أُعطيت له عليه السلام. ولكن لدى كل صاحب علم وفضل شيئاً قد لا يكون عند غيره، وأن كل واحد مهما بلغ من العلم فإنه يجهل شيئاً آخر، وبالتالي تتكامل العلوم بتعاضد الناس وتعاونهم فيما بينهم.

ثم يرد الخضر على موسى عليهما السلام بما يفيد القبول مع الاستيثاق الذي يُنْبِئ عن قبول طلبه، مع بيان ما يمكن أن يواجه في رحلته العلمية ﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا﴾ فأخبره بقوة العلم الذي سيقابله دون تفنيد وبيان لمواقع عدم الصبر من ذلك العلم، والذي لا يحتمله ويصبر على ما يراه ويشاهده، بما يفيد أن هذا العلم الذي سوف تراه وتتعلم منه، لا تصبر على تحمله، لأن ظاهره خلاف محصلته.

ومن دقائق البيان وإعجازه استخدام ﴿لَن﴾ التي أفادت بدخولها على الفعل المضارع ﴿لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا﴾ أفادت المبالغة في نفي القدرة على الصبر فيما يُستقبل من مسيرة التعليم، بما يدل على أن ما سيراه موسى عليه السلام لا يستطيع أن يتحمله، فإنه يشق عليه ذلك. لأن ما تُنكِرُه من الأحداث له تحصيل عظيم من الخير. بما يفيد: إذا كنت تستطيع الصبر عليه فإنه يمكنك أن تتبعني. وقد ورد في الحديث قوله صلى الله عليه وسلم (قال: إنك لن تستطيع معي صبراً يا موسى. إنني على علم من علم الله، عَلَّمَنِيه، لا تعلمه أنت. وأنت

على علم عَلَّمَكَهُ لا أعلمه)[1] مما يفيد أهمية الصبر في طلب العلم، وأن الإنسان قد يواجه ما يستنكره أو لا يستوعبه عقله، أو يقل فهمه واستيعابه له، فعليه أن يصبر على ذلك.

ثم أوضح له علة عدم الصبر وموانعه بسؤال استفهامي، مفاده غرابة ما سوف يشاهده، ليتعلم من ذلك حقائق ربانية ﴿ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴾ فأفاده بهذا السؤال أنه كيف تتحمل الصبر على أمور ليس لك علم بمغبتها وغايتها ومراميها التي تخالف حقائق ما تعرفه ﴿ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴾ فأنت تشاهد أحداث علم، لا تعرف المقصد من وراء ذلك، فلم تُحط بنتيجته علماً. وبالرغم من هذا الاستيثاق من المصاحبة، وتحصيل العلم إلا أن فيه استثارة وشد انتباه ومزيد اطماع في المتابعة من موسى للخضر عليهما السلام. مما يفيد أهمية تنبيه المتعلم لما قد يجهله في طريقه للتعلم، وأن يكشف المعلم له ذلك، وأن يحذره مما يجهله وما سيواجه في طريقه للتعلم.

وفي هذا الحوار الذي حصل بين المعلم والمتعلم يوضح موسى للخضر عليهما السلام حرصه على طلب العلم، والموافقة على ما بينه وأوضحه الخضر عليه السلام من البيان، وأنه سيتحلى بالصبر إن شاء الله تعالى ﴿ قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴾ فأوضح موسى عليه السلام قبوله لما بينه الخضر عليه السلام، وأورد قبوله من وجهين: الوجه الأول: ﴿ قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا ﴾ أي: سأصبر على ما أواجه من العلم، وربط هذا الصبر بمشيئة الله تعالى، ليثبت أنه لا حول ولا قوة له على الصبر إلا بمعونة الله عَزَّ وجل، فيتعلم منه المتعلم أهمية الاستعانة بالله، وربط إرادة الإنسان بمشيئة الله تبارك وتعالى، فلا حول ولا قوة لأحد إلا بمعونته عَزَّ في علاه وتسديده وتوفيقه.

والوجه الثاني: ﴿ وَلَآ أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴾ ولن أخالفك فيما تأمرني وتوجهني به، فسأكون طائعاً لمعلمي. مما يبين أهمية الصبر، وأهمية التوافق والموافقة للمعلم الناصح حتى تتضح الأمور، وألا يقاطع المتعلم المعلم، ولا الموعوظ للواعظ، والمسترشد للمرشد، والمرؤوس للرئيس حتى يقضي ما هو فيه، ويأذن بالسؤال أو المناقشة ونحو ذلك. وهذا التفنيد من موسى عليه السلام في الجواب بالقبول، دليل على دقته، واستيفائه للمطلوب، مع كمال وشدة الرغبة، والشوق لذلك العلم الذي تَطَلَّبَ هذه المطالب.

ثم يخبر الخضر بموافقته لموسى عليه السلام، وقبول المصاحبة، وتأكيد الإرشاد له بعدم السؤال عما يشاهده ﴿ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْـَٔلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾ ومن جميل أسلوب الخضر

---

[1] البخاري (١/٥٩-٦٠) برقم (١٢٢)

عليه السلام أن وردت موافقته على سبيل التخيير ﴿ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعۡتَنِي ﴾ أي: ففي حال أنك اتبعتني، ولديك الاستعداد على ما ستقابله ﴿ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِي عَن شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ أُحۡدِثَ لَكَ مِنۡهُ ذِكۡرٗا ﴾ فلا تسأل عن شيء مما ستنكره وتتعجب منه. بما يفيد الموافقة كذلك على شرط المتابعة والمصاحبة، وفي هذا إرشاد وتوجيه لما ينبغي لموسى عليه السلام حال اتباعه للخضر، مما يفيد أنه سيرى أموراً قد يُنكرها، لأنها ستكون مخالفة لظاهرها تماماً، ولما يجب أن يكون الحال معها، فقد تكون في ظاهرها مخالفة للحق، ولشريعة الله تعالى، ولما يجب أن يكون الأمر تجاهها، وذلك بناء على الظاهر منها. فواجبك تجاه ما تراه مما تنكره، وترى أن الواجب فيه خلاف ما يكون التعامل معه. فلا تسأل عن شيء من ذلك. بل أوجب الخضر على موسى عليه السلام أن لا يسأل عن أي شيء، ولو كان شيئاً يسيراً، لأن جملة ﴿ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِي عَن شَيۡءٍ ﴾ نهي، يستوعب الجليل والقليل، والكثير ﴿ حَتَّىٰٓ أُحۡدِثَ لَكَ مِنۡهُ ذِكۡرٗا ﴾ حتى ابتدئك بما أذكره لك فيه من شأنه، وما يؤول إليه، حين يأتي الوقت المناسب لذلك. وفي هذا ما يبين أن موسى عليه السلام سيرى شيئاً عجباً، وأنه يحتاج أن يتمالك نفسه عن السؤال عن العلل والأسباب، وأنها ستكون مبهرة جداً، يستنكرها العقل. وكذلك في هذا التوجيه استثارة لموسى عليه السلام وتَشَوُّق لما سيرى ويتعلم منه. مما يفيد أهمية التشويق في التعليم، وأهمية التوجيه، والتهيئة، والتحرز، والإرشاد، والتنبيه المسبق لما قد يخالف ما اعتاد المتعلم، أو ما يثير فكره فيستنكره.

﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَاۖ قَالَ أَخَرَقۡتَهَا لِتُغۡرِقَ أَهۡلَهَا لَقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـًٔا إِمۡرٗا ﴿٧١﴾
قَالَ أَلَمۡ أَقُلۡ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذۡنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرۡهِقۡنِي مِنۡ أَمۡرِي عُسۡرٗا
﴿٧٣﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمٗا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلۡتَ نَفۡسٗا زَكِيَّةَۢ بِغَيۡرِ نَفۡسٖ لَّقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـٔٗا نُّكۡرٗا ﴿٧٤﴾ ۞
قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلۡتُكَ عَن شَيۡءِۭ بَعۡدَهَا فَلَا تُصَٰحِبۡنِيۖ قَدۡ
بَلَغۡتَ مِن لَّدُنِّي عُذۡرٗا ﴿٧٦﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا فَأَبَوۡاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا
فِيهَا جِدَارٗا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥۖ قَالَ لَوۡ شِئۡتَ لَتَّخَذۡتَ عَلَيۡهِ أَجۡرٗا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيۡنِي
وَبَيۡنِكَۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأۡوِيلِ مَا لَمۡ تَسۡتَطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرًا ﴿٧٨﴾ ﴾

وينطلق السياق الكريم إلى بيان رحلة التعليم في ثلاثة أحداث مبهرات، لا طاقة لأحد أن يقف أمامها دون نقاش، فالحادثة الأولى متعلقة بركوبها سفينة في البحر، فعطبها الخضر عليه السلام من غير موجب ظاهر، بل فيه ما يقود للخطر والغرق ﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَاۖ قَالَ أَخَرَقۡتَهَا لِتُغۡرِقَ أَهۡلَهَا

﴿ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴾ وقد ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم في الصحيح (فانطلقا يمشيان على ساحل البحر، ليس لهما سفينة. فمرت بهما سفينة، فكلموهم أن يحملوهما، فعُرِف الخضر، فحملوهما بغير نَوْل)[١] أي بغير ثمن. ودلت كلمة ﴿ فَٱنطَلَقَا ﴾ أنهما بعد المحادثة التي تمت بينهما، وتوافقا انطلقا مباشرة في السير على ساحل البحر ليركبا سفينة من السفن، ويظهر من كلمة ﴿ فَٱنطَلَقَا ﴾ أنهما اثنان، الخضر وموسى عليهما السلام، فلعلهما أبقيا الفتى حتى يعود إليه موسى. أو لم يُذكر باعتبار أن الشأن يخصهما دون الفتى. وفيه الاستغناء عن ذكر مالا حاجة للمُخَاطَب فيه.

ثم يخبر الله تعالى بركوبهما السفينة ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ﴾ فبمجرد ركوبهما السفينة، واستقرا فيها، قام الخضر بنزع لوح من ألواح السفينة. فاستغرب موسى من هذا الفعل مع أناس أركبوهما بلا ثمن، فيقوم الخضر عليه السلام بخرق سفينتهم، وما قد يؤدي إليه بهم من الغرق، فاعترض موسى مباشرة على هذا العمل المخالف في ظاهره لكل وجه ﴿ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴾ فوجه موسى عليه السلام سؤال تعجب واستنكار لهذا الفعل الغريب ﴿ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا ﴾ أتفعل هذا الخرق بالسفينة ليحصل الغرق بأهلها الذين على متنها؟ ﴿ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴾ لقد أتيت فعلاً منكراً، وداهية من الأمر، مما يستثير العجب، فإنه أمر كبير في خطورته وعظمة ما سيؤول إليه أهل السفينة من الغرق. ﴿ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴾ والإمر هو: الشيء الداهية العظيم، لما يترتب عليه من الغرق.

وفي هذا بيان لعدم قدرة الإنسان على أن يتحمل أحداث المغيبات التي يغيبها الله تعالى عن العبد. حتى عن أمور نفسه التي لو عرفها لتعجب منها عظيم العجب، فقد يمنع عن العبد شيئاً هو في متناول يده، بأي سبب كان، فيكون له في ذلك المنع خيراً، وقد يُقرِّب له أمراً، ويعطيه إياه بالتدرج، في حين أنه ما كان يخطر بباله تحصيله لصعوبة الوصول إليه، أو لحيلولة القدرة الذاتية عن تحصيله. مما لو فكر فيه الإنسان لقاده إلى الاستسلام للقضاء والقدر، ويحمد الله تعالى على كل حال. فلو علم صاحب السفينة بما صنع الخضر لربما حدث بينهما ما لا تحمد عقباه، في حين لو كشف الله الْقَدَر لأصحابها لحمدوا الله تعالى، وشكروا الخضر شكراً جزيلاً. كما أن فيه أن الإنسان يدور مع الأحداث حسبما يرى في تقديره لحاضر للأمور. وهنا يتعلم المسلم أهمية التأني، وأن يوطن نفسه على ذلك، ويطلب من الله تعالى العون والتوفيق والرضا بما يُقدّره، لأن النفس إنما تتعامل مع

---

(١) البخاري (١/٥٩-٦٠) برقم (١٢٢)

الواقع في حاضره دون مغبته وما يغيب عنه من شأن. وفيه من الفوائد أن الإيمان بالقضاء والقدر يهذب التعامل مع الواقع، بل وتزكوا به النفس وتطمئن وترضا.

وهنا يحلم الخضر على موسى عليهما السلام، ويكتفي بالتذكير ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ ألم أخبرك مسبقاً أنك لن تستطيع أن تصبر معي على ما ترى من الأحداث. ومن دقائق البيان وإعجازه استخدام ﴿لَن ﴾ التي بدخولها على الفعل المضارع أفادت المبالغة في نفي القدرة على الصبر فيما يُستقبل من مسيرة التعليم ﴿لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ بما يدل على أن ما يراه موسى عليه السلام لا يستطيع أن يتحمله، فإنه يشق عليه ذلك. ومن جميل أخلاق الخضر عليه السلام أنه اكتفى بتذكير موسى عليه السلام بالشرط الذي اتفقا عليه، وبالوعد الذي ضمنه موسى عليه السلام من نفسه، بأنه سيكون صابراً بمشيئة الله تعالى. وورد التنبيه من الخضر عليه السلام بأسلوب السؤال الذي يحمل التعجب من مخالفة الاتفاق، مع الاستنكار، والتعجب من عدم القدرة على الصبر مما يشاهده، لما فيه من المخالفة لمقتضى الشرع، والأخلاق. وذلك لما علمه الله تعالى للخضر من علم الغيب.

وهنا يعتذر موسى عليه السلام على ما بدر منه من الاعتراض، مستهلاً جوابه بطلب المسامحة منه ﴿ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي ﴾ لا تلومني. ثم يَرُد سبب ما بدر منه ويُعيده إلى الطبيعة البشرية من النسيان، التي تُنسي الإنسان التزامه أمام ما لا يتحمله مما يرى من ظاهر الفعل والحدث ﴿لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ ﴾ فلا تؤاخذني، ولا تلومني على ما فَرَطَ مِنّي من الاعتراض بسبب نسياني لشرطك عليَّ بأن لا أسألك حتى يأتي منك التوضيح والبيان. فإن علة الاعتراض هي النسيان، نتيجة قوة ما رأى من الحدث الذي لا صبر له عليه.

ثم أضاف في عذره ما يستوجب التماس العذر له وقبوله، وهو ﴿وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴾ فلا تعاملني بما يشق عليَّ، بل عاملني باليسر لا بالعسر، بما يفيد أنني أطلب منك أن تعاملني معاملة ليس فيها مشقة علي، فإن في ذلك التعامل مشقة عليَّ في تَحَمُّله، مما يُسبب لي العسر في أمري، الذي هو طلب العلم منك. فيلتمس موسى عليه السلام ألا يجعل خروجه عن الاتفاق سبب لقطع تلقي العلم منه، وذلك لما تثيره الأحداث من التعجب البليغ في تأثيره، فلا يكون ذلك سبب لي في عدم استمرار تلقي العلم. مما يفيد أن طالب العلم قد يمتنع أو يصعب عليه العلم بسبب مشقته، وعدم قدرته على الصبر على ذلك العناء، وعلى تلك المشقة، ولكن موسى يجاهد نفسه على التحلي بما يجب عليه، ويسترضي من يُعَلِّمَهُ، ويُلاطفه بالاعتذار، وطلب الترفق به، ومن الفوائد كذلك أنه يجب على من طلب العلم أن يتحمل مشقته. كما أن على المعلم أن يترفق بالمتعلم، كما ترفق

وصبر الخضر على موسى عليهما السلام. فهو حوار بين معلم ومتعلم. وكلاهما له فضل عظيم من الله تعالى، بما خص كل واحد منهما من العلم المخصوص، والحظوة المخصوصة.

فاستمرا في مسيرهما، ولم يحدث كثيراً من الأخذ والرد بينهما، ليدل على كرم المعلم الخضر، وأدب المتعلم موسى عليهما السلام ﴿ **فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلۡتَ نَفۡسًا زَكِيَّةَۢ بِغَيۡرِ نَفۡسٖ لَّقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـٔٗا نُّكۡرٗا** ﴾ فانطلقا في رحلتهما الثانية، بعد أن غادرا السفينة، ووصلت بهما إلى غايتهما ﴿ **فَٱنطَلَقَا** ﴾ والتي دلت على الاستمرار في رحلتهما دون كثير من الحوار حول ما كان في السفينة ﴿ **فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ** ﴾ وهذه فاجعة ثانية أخرى لموسى عليه السلام، إذ قتل الخضر عليه السلام غلاماً. وقد ورد في حديثه صلى الله عليه وسلم عن هذه القصة (فإذا غلام يلعب مع الغلمان، فأخذ الخضر برأسه من أعلاه، فاقتلع رأسه بيده)[١] فلم يتحمل موسى موقف الغلام وهو يلعب مع غيره من الغلمان، فإذا بالخضر عليه السلام يأخذ برأسه ويقتلعه بيده، دون أن يحدث منه شيئاً يستوجب ذلك. مما أوجب لموسى عليه السلام الذهول، فبادره بالسؤال الذي يحمل الاستنكار على صنيعه ﴿ **قَالَ أَقَتَلۡتَ نَفۡسًا زَكِيَّةَۢ بِغَيۡرِ نَفۡسٖ لَّقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـٔٗا نُّكۡرٗا** ﴾ فبادر موسى الخضر عليهما السلام بسؤال استنكار، يحمل التعجب، والاستفسار، مما يدل على أنه لم يستطع أن يكظم غضبه. فإن صورة الغلام عند موسى أنها نفس زاكية ﴿ **قَالَ أَقَتَلۡتَ نَفۡسًا زَكِيَّةَۢ** ﴾ أي: البريئة، النامية، المطهرة التي لم تبلغ الخطايا، وأن القتل كان بغير موجب شرعي ﴿ **بِغَيۡرِ نَفۡسٖ** ﴾ فقتلته بغير نفس قتلها الغلام، فلم يقتل نفساً، فيستوجب بذلك قتله قصاصاً، وبالتالي يكون فعلك هذا فعلاً منكراً ﴿ **لَّقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـٔٗا نُّكۡرٗا** ﴾ أي: ظاهر وواضح النكارة فيه، إذ تُنكره الشريعة والعقل، وقد سمى قتل الغلام منكراً، بينما سمى خرق السفينة: إمراً ﴿ **لَقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـًٔا إِمۡرٗا** ﴾ أي: أتيت بأمر داهية، وكبير في خطورته وعظمة ما سيؤول إليه أهل السفينة من الغرق. بينما وصف قتل الغلام بالأمر المنكر ﴿ **لَّقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـٔٗا نُّكۡرٗا** ﴾ بما يفيد أنه قد تحقق فيه المنكر، الذي تنكره شريعة الله تعالى، لأنه إزهاق نفس بغير نفس تستوجب قتله، بينما السفينة قد تنجو من قلع اللوح، وأن الغلام قد تحقق فيه إزهاق النفس من غير موجب. مما يفيد أن كلمة ﴿ **نُّكۡرٗا** ﴾ أشد في دلالتها من كلمة ﴿ **إِمۡرٗا** ﴾ فنكراً متعلقة بأمر وقع على مخلوق، لا نجاة ولا حياة له بعد القتل إلا في الآخرة، بينما ﴿ **إِمۡرٗا** ﴾ متعلق بمصنوع، مع احتمال النجاة، وأن ما سيصيب الذين على ظهر السفينة سيصيب كذلك من اقتلع اللوح منها وصاحبه. وفي

---

(١) البخاري (١/٥٩-٦٠) برقم (١٢٢)

هذا التعليل من موسى عليه السلام لقتل النفس، والحكم بأنه ﴿ نُّكۡرًا ﴾ دليل على أنه في شريعة موسى تحريم قتل النفس بغير نفس. وأن النفس لا تُقتل إلا بموجب شرعي، قد قررته شريعة الله تعالى.

ومن مزيد فوائد البيان: أن الله تعالى قد وهب الخضر عليه السلام قوة جسمية، إذ اقتلع رأس الغلام بيده، وأن الله تعالى منحه علماً من الغيب كما سيتضح من علة قتله للغلام فيما هو قادم من الآيات الكريمة العظيمة. وهذا يؤكد فوائد ما سبق بأن الله تعالى يكشف بعلم الغيب الذي أظهره على يد الخضر، أنه مليء بالحكمة التي يدفع الله تعالى بها الشر عن الإنسان، وهو لا يعلم، بل ربما يتحسر على ما فاته، وهو لا يعلم أنما فاته خير له من تحصيله، وأن في تحصيله هلكة أو أذى له. مما يوجب الاستسلام للقضاء والقدر، والشكر والثناء لله تعالى على ما يقدره للمؤمن.

ثم في أدب كبير، وتواضع جميل يقول الخضر لموسى عليهما السلام بما قاله سابقاً له ﴿ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرًا ﴾ فيعيد لموسى عليه السلام الشرط الذي اتفقا عليه، وبالوعد الذي ضَمِنَهُ موسى عليه السلام من نفسه، بأنه سيكون صابراً بمشيئة الله تعالى. ولم يؤنبه الخضر، ولم يُشر إليه بأن هذه المرة الثانية التي يستنكر عليه إنكاره لما رأى. كما ورد التنبيه من الخضر عليه السلام بأسلوب السؤال الذي يحمل التعجب من مخالفة الاتفاق ﴿ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكَ ﴾ وقد زاد فيها لفظة ﴿ لَّكَ ﴾ زيادة في التعيين، بأنك أنت الْمُخَاطَب والمتعين بالكلام، وإشارة لما سبق في البيان من النهي السابق عندما خرق السفينة، فزاد بما يناسب زيادة تكرار العتاب، فكان موجبه أكثر وأقوى، مع التأكيد. وبما يرفع الحرج في التعليم. مع كمال الاستنكار، والتعجب من عدم القدرة على الصبر للمرة الثانية مما شاهده موسى عليه السلام، لما فيه حسب ما يراه موسى عليه السلام من قوة المخالفة لمقتضى الشرع، والأخلاق. وذلك لما لا يعلمه موسى عليه السلام من الغيب، ولما يعلمه الخضر مما علمه الله تعالى من علم الغيب. وهذا مِثْلُ قبول النبي صلى الله عليه وسلم في غزوة الحديبية للشروط التي أُبْرِمَت مع المشركين، واعتراض الصحابة رضي الله تعالى عنهم أجمعين. فعلم النبي عليه الصلاة والسلام لما سيكون له من الفتح، سواء فتح خيبر، أو فتح خيبر ومكة.

فيجيب موسى على اعتراض الخضر عليهما السلام ﴿ قَالَ إِن سَأَلۡتُكَ عَن شَيۡءِۭ بَعۡدَهَا فَلَا تُصَٰحِبۡنِيۖ قَدۡ بَلَغۡتَ مِن لَّدُنِّي عُذۡرًا ﴾ لا تؤاخذني، ولا تلومني على ما فرط مني من الاعتراض. فإن حصل مني سؤالاً بعد هذه المسألة فلا تصاحبني، لأنني لم التزم بما اتفقنا عليه ﴿ قَالَ إِن سَأَلۡتُكَ عَن شَيۡءِۭ بَعۡدَهَا فَلَا تُصَٰحِبۡنِي ﴾ فإن حصل مني سؤالاً أو اعتراضاً قبل أن تُحْدِثَ لي منه خبراً فاترك صحبتي، وتجاوز عنها، لأنني لم التزم بما قيدتني به من شرط الصحبة، فَأُعْذرك من عدم الصحبة ﴿ قَدۡ بَلَغۡتَ مِن لَّدُنِّي عُذۡرًا ﴾ فقد بلغت من جهتي غاية العذر

وأكمله، فلا لوم عليك مني، لأنه بذلك أكون قد خالفتك للمرة الثالثة. وهذا من جميل أخلاق موسى عليه السلام، وكرم تعامله، بالرغم من أنه يرى شيئاً عجيباً، لا طاقة لمن ليس له علم الغيب أن يتحمله، لكنه يُشوِّق المتعلم للمزيد من التعلم، وذلك لما يرى من غرائب الأحداث، خاصة وأن موسى يُدرك أن هذا الرجل الصالح قد أوصاه ربه تبارك وتعالى بصحبته، وأن ما يفعله فيه دروس وعظة، وأنه لا يعمل شيئاً إلا وله به علم وبرهان من الله تعالى. ومع ذلك يُعذره بأدب جم، مما يفيد أهمية الالتزام بالشروط التي تُبرم، وأن على من أخل بشيء من الشروط أن يعذر الطرف الآخر، وأن يبادره بما عليه، وألا يُحوج الطرف الآخر أن يطلب منه فسخ العقد.

ومن لطف المكارم وآداب التعاقد هو المسامحة بما لا ينقض العقد، فقد صبر وأعذر الخضر موسى عليهما السلام في المرة الأولى، والثانية، والثالثة التي هي الختام كما سيتبين في قادم الآيات الكريمة. فإنه الكمال والجمال في التعامل، مع طِيب مكارم الأخلاق التي قد علت التعامل بينهما، كما أظهر الحدثان آيات مبهرات في شأن الغيب، وعلم الله تعالى، ومفارقات وتباين فيما يفيضه الله تعالى به من العلم على من يشاء من عباده. ربنا هب لنا من لدنك علما ورحمة وحُسن خاتمة، وجنة عرضها السماوات والأرض، وأدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين، الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

واستمرا موسى والخضر عليهما السلام في مسيرهما، ولم يخوضا في الأخذ والرد بينهما فيما مضى، مما يدل على كرم المعلم والمتعلم عليهما السلام ﴿ **فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا فَأَبَوۡاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥۖ قَالَ لَوۡ شِئۡتَ لَتَّخَذۡتَ عَلَيۡهِ أَجۡرًا** ﴾ بدأت الآية الكريمة بمثل ما بدأ به السير فيما سبق بكلمة الانطلاق ﴿ **فَٱنطَلَقَا** ﴾ لتفيد تتابع السير في شأنهما، دون الاكتراث بما حصل من سؤال موسى للخضر عليهما السلام، ليصلا إلى الموقف التعليمي الثالث: ﴿ **فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ** ﴾ فاستمرا في السير حتى وصلا قرية من القرى. ولم يحددها ويعينها سبحانه وتعالى في القرآن الكريم، استغناء عما لا فائد في ذكره وتعينه للمخاطبين. ليتبين دقائق القرآن الكريم حتى فيما يذكره وما يتركه ﴿ **فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا** ﴾ أي: فسارا في مسيرهما حتى وصلا إلى قرية، فطلبا من أهلها الضيافة من الطعام، بأن يضيفوهما كضيفين عليهم، مما يفيد أنه كان معلوماً ذلك الوقت استطعام الطعام الذي يُقصد به الضيافة، ولم تكن مجهولة عند أهل تلك القرية، قال الإمام القرطبي رحمه الله تعالى: ويظهر من ذلك أن الضيافة كانت عليهم واجبة، وأن الخضر وموسى إنما سألا ما وجب لهما من الضيافة، وهذا هو الأليق بحال

الأنبياء، ومنصب الفضلاء والأولياء، وذكر رحمه الله تعالى: أن الآية دليل على سؤال القوت، وأن من جاع وجب عليه أن يطلب ما يرد جوعه. ومعنى ﴿ٱسۡتَطۡعَمَآ﴾ أي: سؤال الطعام، والمراد به هنا سؤال الضيافة(١)

ولكن أهل القرية امتنعوا عن استضافتهما ﴿فَأَبَوۡاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا﴾ فامتنع أهل القرية أن يضيفا موسى والخضر عليهما السلام، وقال قتادة رحمه الله تعالى: شر القرى التي لا تُضيف الضيف، ولا تعرف لابن السبيل حقه(٢) وفي تسمية من طلبوا منهم الضيافة بصيغة الجمع، وكذلك امتناعهم بصيغة الجمع ﴿ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا فَأَبَوۡاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا﴾ ما يدل على أنهما قد طلبا الضيافة من عدد من أهل القرية ﴿فَأَبَوۡاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا﴾ فامتنعوا عن استضافتهم، فلم يُوفَّق أحد منهم في استضافة رجلين صالحين، مما يدل على بخل أهلها، وعدم تحليهم بالجود والكرم. وهذا يفيد أنه ربما يفوت على البعض المبادرة للخير، فيفوته بفوات تلك المبادرة خير عظيم، هو خير مما بخل به، كما يدل على أن أهل هذه القرية لا يعرفون كرم الضيافة وحب المبادرة للغير بالخير، مما يدل على الشح والبخل، وفي ابائهم ﴿فَأَبَوۡاْ﴾ ما يدل على أن امتناعهم هو امتناع مع القدرة، وهي أعلى من القول: فلم يضيفوهما، فلفظة الإباء تأكيد على أن الامتناع منهم كان حاصل مع القدرة على الضيافة، وفي تعيين الضيافة بدل العطاء ﴿فَأَبَوۡاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا﴾ ما يدل على أن شأن الضيافة أرحب من العطاء، فالضيافة فيها الإنزال، والإكرام، قال ثعلب: صفته إذا نزلت به، وأنت ضيف عنده (٣) مما يدل على أن الضيافة تشمل استقبال الضيف، وإنزاله المنزل، وتقديم الطاعم له. ومع هذا يقوم الخضر ببناء جداراً لهم آيل للسقوط والتهدُّم ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارٗا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ﴾

ومن دقائق البيان إيراد التثنية والإفراد في وصف الحدث، فقال تعالى ﴿فَوَجَدَا﴾ أي: حَصَّل الجدار وشاهداه الاثنان معاً، وهما موسى والخضر عليهما السلام، بينما جاء الإفراد في تخصيص من قام ببناء الجدار ﴿فَأَقَامَهُۥ﴾ أي أن الخضر عليه السلام هو الذي أقام الحائط، أي الجدار وحده، من غير حاجة لموسى عليه السلام، وقد جاء في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم (...فوجدا فيها جدار يريد أن ينقض

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١١/١٨)

(٢) المرجع السابق (١١/١٨)

(٣) الفيومي، المصباح المنير (٢/٥٠٠-٥٠١)

فأقامه: قال الخضر بيده فأقامه)[١] وهذه كرامة من الله تعالى، ولطف منه ورحمة، لأن كلمة ﴿ فَأَقَامَهُۥ ﴾ تدل على إعادته لوضعه كما بُنِيَّ، دون جهد، إذ لم يستخدم في البيان ما يدل على بذل الجهد في إقامته، بل ورد الوصف بإفراد الخضر في إقامة الجدار، فقوله تعالى ﴿ فَأَقَامَهُۥ ﴾ تفيد الانفراد، أي: الفرد الواحد، ونُسِبَت للخضر وحده عليه السلام، فهو الذي أقامه وحده، مما يدل على أنه لم يساعده أحد، فلم يحتج لمن يعينه على إقامته، مما يدل على قوة الكرامة التي منحها الله تعالى للخضر عليه السلام، فبمجرد أن قال بيده على الجدار، تماسك واستقام على حاله واقفاً صلباً متماسكاً، فاستوى بقدر وقدرة الله تعالى وإرادته وكرمه ولطفه.

وقد بينت الآية الكريمة هيئة الجدار ﴿ فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ ﴾ فإن الجدار من ضعف تماسكه فإنه آيل للسقوط، يريد أن يتهدم وتتساقط مكوناته، فجملة ﴿ يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ ﴾ تفيد إرادة السقوط، قال الزجاج رحمه الله تعالى: فمعنى ﴿ يَنقَضَّ ﴾ يسقط بسرعة، ينشق طولاً، يُقال: انقاضت سِنُّهُ: إذا انشقت، قال ابن مقسم رحمه الله تعالى: يُقال انقاصت سنه، وانقاضت، بالصاد والضاد على معنى واحد[٢] ﴿ فَأَقَامَهُۥ ﴾ أعاد إليه اعتداله ووضعه الذي كان عليه عند إنشائه.

ومن دقائق البيان كذلك أن نُسب للجدار الإرادة. قال ابن كثير رحمه الله تعالى: إسناد الإرادة ههنا إلى الجدار على سبيل الاستعارة، فإن الإرادة في المحدثات بمعنى الميل والانقضاض، وهو السقوط، وقوله ﴿ فَأَقَامَهُۥ ﴾ أي: ردَّه إلى حالة الاستقامة، وقد تقدم في الحديث أنه ردَّه بيده، ودعمه حتى رّدَّ ميله، وهذا خارق[٣] قال الزجاج رحمه الله تعالى: الجدار لا يريد إرادة حقيقية، إلا أن هيئة السقوط قد ظهرت فيه كما تظهر أفعال المريدين القاصدين، فَوُصِف بالإرادة[٤] وقال ابن الجوزي رحمه الله تعالى: وقد أضافت العرب الأفعال لما لا يعقل تَجَوُّزاً، قال الله عَزَّ وجل في سورة الأعراف ﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ ﴾ والغضب لا

(١) البخاري (٥٩/١-٦٠) برقم (١٢٢)
(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٢٣/٥)
(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١٠٣/٣)
(٤) الشوكاني، فتح القدير (٢٠٣/٣)

يسكت، وإنما يسكت صاحبه[١] وهذه من بلاغة البيان ودقائق ألفاظه ومعانيه، وقوة سبك كلماته لتؤدي المراد بأكمل وأدق وصف وبيان، فليس هناك أبلغ في البيان من القرآن الكريم، لأنه كتاب الله تعالى المعجز الخالد.

فلما رأى موسى من أهل هذه القرية سوء أخلاقهم بامتناعهم عن الضيافة، ومع ذلك تَكَرُّم الخضر عليهم بأن قابل ذلك البخل بهذا الصنيع العظيم في حق أهل هذه القرية، فأقام لهم الجدار الذي أراد أن يسقط، وجَّه موسى عليه السلام مشورة للخضر ﴿قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ فيحثه ويشجعه على أخذ الأجرة مقابل إقامة الجدار الذي يريد أن يتساقط ويتهدم. وفي أسلوبه أدب جَمّ، فلم يقل له: خذ عليه أجراً، فإنهم لا يستحقون العون، بل استخدم أسلوب التخيير بدلا من لفظ التحريض بالجزم ﴿قَالَ لَوْ شِئْتَ﴾ فترك الإرادة واتخاذ القرار للخضر عليهما السلام، بما يشير أننا جياع، ولم يطعمونا، فالحق أن تأخذ ثمنه حتى نشتري به طعاماً.

وتفيد كلمة ﴿لَتَّخَذْتَ﴾ الاشتراط عليهم، أو مطالبتهم بأجرة على ما قمت به من عمل. مما يدل على أنهم إما طلبوا إقامة هذا الجدار بإصلاحه، فأقامه، ولم يشترط، ولم يطلب منهم أجراً، أو أنه أغاثهم بإقامة الجدار حتى لا يسقط فيتأذوا بسقوطه، مما يدل على أن العمل الذي قام به ليس بالأمر السهل، وأن عواقب سقوطه كبيرة وخطيرة عليهم، وأنه ليس من الجدران السهلة الإصلاح. ولعله أراد أن يعلمهم درساً في الجود والكرم، إضافة إلى العلة الغيبية التي سيذكرها لموسى عليهما الصلاة والسلام فيما هو قادم من تفسيره لعلل الأحداث الثلاثة المبهرة السابقة. مما يفيد أهمية المبادرة، وأن يعامل المسلم غيره بما تقتضي مكارم الأخلاق، وليس بما يعاملون غيرهم به، وأن يطلب المسلم بعمله مرضات الله تعالى، فإن الإحسان هو أساس الشريعة.

فهذا الحث والتشجيع من موسى للخضر عليهما السلام بأخذ الأجرة كان هو علة خاتمة المرافقة، لأن موسى أشار على الخضر عليهما السلام بأخذ الأجرة قبل أن يخبره الخضر بتأويل وعلة إقامته للجدار، وهنا قال الخضر بما قاله عنه سبحانه وتعالى ﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ فقد شرط موسى عليه السلام بعد مقتل الغلام أنه إن عاد وسأل عن شيء بعدها، فلا يصاحبه ﴿قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا﴾ فكان هذا هو علة وسبب موعد الفراق بينهما، وهو العذر الذي أعذر فيه موسى الخضر عليهما السلام من عدم استكمال المصاحبة واستمرارها. وعندها أخبر سبحانه وتعالى بما قاله الخضر لموسى عليهما السلام ﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٢٣/٥)

بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾ فحسم الخضر عليه السلام المصاحبة بالمفارقة ﴿ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ﴾ فهذا فراق اتصالنا وصحبتنا.

ومن جميل البيان ودقته أن اسم الإشارة ﴿ قَالَ هَٰذَا ﴾ حدد علة انفصال المصاحبة، وهي قولك ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾ بأن هذا الإنكار على عدم أخذ الأجرة، والحث على أخذها هو علة الفراق بيننا، إضافة إلى تكرار البينية ﴿بَيْنِي وَبَيْنِكَ ﴾ والتي أفادت التوكيد، لأنه لم يقل: هذا فراق بيننا، وإنما كررها للتأكيد ﴿بَيْنِي وَبَيْنِكَ ﴾ فلم يبق عذر وسبب لتستمر صحبة التعليم. مما يفيد أهمية التزام الشروط عموماً، ومنها التزام شروط التعليم، وأن نقض الشرط يجيز فسخ العقد أو الاتفاق المبرم بين الطرفين، وللمعلم أن يشترط ما يراه مناسباً لإتمام العملية التعليمية.

ومن كريم أخلاق الخضر عليه السلام أنه قام بتفسير ما كان يسأل عنه موسى عليه السلام في الثلاثة الأحداث التي وقعت ﴿هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ﴾ وأضاف إلى هذا الخبر بالفراق ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾ سأفسّر وأوضح لك ما خفي عليك مما حدث من الأمور الثلاثة التي لم تستطع أن تصبر عليها. بما يفيد أنك لم تستطيع أن تتقبلها لعدم علمك بما أعلمه من الله تعالى عن أسرار ما خَفيَّ عليك منها، وذلك لما علمني ربي، وأطلعني على أسرارها وعللها. وعدم استطاعة موسى عليه السلام الصبر، لكون الأحداث الثلاثة مرتبطة بعلم الخضر الذي لا يعلمه موسى عليهما السلام، مما يبين أن الإنسان يستنكر ما خفيت عليه علله، وبالتالي فإن معرفة العلل تكشف عن الحقائق، وأن الأحكام دون معرفة ما يتصل بالمشهد كاملاً، تجعل المرء يحكم بغير ما يتناسب مع الحقيقة. كما يفيد أن هناك علل لا يعلمها إلا الله تبارك وتعالى، وأن قضاؤه كله خير، إما لجلب خير أو لدفع ضر، مما يوجب على المؤمن الرضا بالقضاء والقدر، خيره وشره. فلو علم المؤمن بعلل ما يقضي به الله تعالى لرضي بالقضاء والقدر خيره وشره. مما يكشف بهذا البيان أن على المؤمن أن يرضى ويصبر بأقدار الله تعالى، فإن كان ظاهره خير شكر، وإن كان ظاهره خلاف ذلك صبر وشكر. اللهم وفقنا للرضا بأحكامك وتدبيرك، وبقضائك وقدرك، وتجعلنا من الشاكرين الحامدين الراضين المطمئنين، يا رب العالمين.

﴿ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِي ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي ٱلْمَدِينَةِ

وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾ ﴾

ينتقل البيان في القرآن الكريم إلى ما قاله الخضر لموسى عليها السلام من التفسير والبيان لما خفي على موسى من الأحداث الثلاثة التي لم يستطع عليها صبراً ﴿ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴾ واستُفتِح البيان بحرف ﴿ أَمَّا ﴾ الذي يفيد التوكيد والتفصيل، فيحصل به التنبيه، وهو حرف استفتاح، يُستَّفتَح به للكلام مع التنبيه والتذكير، ثم شرع في ترتيب الإيضاح بالكلام الْمُبِين، ابتداء بالسفينة، ثم بأصحابها، ثم علة خرقها المنافي لإرادة إغراق أهلها ﴿ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ ﴾ التي خرقتها، فأحدثت فيها عيباً، لم ترض به يا موسى ﴿ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ﴾ فإنها كانت ﴿لِمَسَٰكِينَ ﴾ فتعود ملكيتها لمجموعة من المساكين، وقد دل على أنهم جماعة كلمة ﴿لِمَسَٰكِينَ ﴾ التي مفردها مسكين، فأفاد أن ملكيتها تعود لمجموعة من المساكين، وليس لفرد واحد، وأمَّا حالهم فهو حال المساكين من الناس، فدل ذلك على أنهم من فئة المحتاجين الضعفاء، فليسوا بفقراء ولا أغنياء، وهذا يعطي بياناً وتعليماً أن من يمتلك وسيلة للرزق لا يعني أنه غني، فإن العمدة على دخل تلك الآلة، أو ذلك المركوب، أو تلك التجارة من المال، وليس على حقيقة التملك فقد يكون مدخوله قليلاً، لا يسد كامل حاجة صاحبها أو أصحابها، وهذا امر مهم في معرفة الحقائق البشرية، والصنائع والمهن.

كما يدل هذا على معرفة الخضر عليه السلام بحالهم، فوصفهم على وجه حقيقتهم. ثم تدرج في بيانه إلى كشف حقيقة مهنتهم، بأن شأنهم في ملكية هذه السفينة أنها مصدر رزقهم ﴿يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ﴾ فحدد أن مهنتهم كائنة في الإبحار، فيشمل ذلك حمل الناس من مكان لآخر، وكذلك الصيد، بحسب ما يتوفر لهم. وفي هذا دقة في البيان، وفي ترتيب الكلام، والتدرج في التفصيل والإيضاح. بحيث يفضي التتابع إلى الإفصاح المبين لحقيقة حالهم. وكيف أن الله تعالى يرعى شأن العبد ويدبره، ويصرف عنه السوء والمكاره وهو لا يعلم بذلك.

ثم يبين الخضر عليه السلام عن مراده بهذه السفينة وما عزم عليه، كذلك بيان علة ذلك، فتدرج في الكلام إلى بيان مراده ﴿ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا ﴾ فبدأ بكشف مراده بعد بيانه لحال أصحابها أنهم مساكين، وما كان يدور في نفسه قبل فعله، ولذلك عَبَّر عنه بصورة المستقبل ﴿ فَأَرَدتُّ ﴾ بالرغم من أنه يتحدث لموسى عليها السلام عن حادثة قد وقعت، وهذا من دقائق بيان القرآن الكريم، فهو يتحدث عن مراده وما كان في ذهنه

قبل أن يقوم بخرق السفينة، وإحداث العيب فيها ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ فالإرادة واقعة ومنصبة على إحداث العيب في السفينة، وهي إرادة غير متعينة وغير كاشفة لنوع العيب الذي سَيُوقِعُه في السفينة.

ثم يتدرج إلى علة وسبب هذه الإرادة، وفي هذا ترتيب للكلام والمشهد كما هو بأدق العبارات والتفاصيل البيانية، وفي تسلسل بليغ في أحداثه وشأنه. كما أن في ذلك الأسلوب الدقيق نوع من التشويق. ثم أوضح علة تلك الإرادة منه في إيقاع العيب بالسفينة. ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ وفي هذا بيان لعلة تلك الإرادة والنية التي حصل بسببها خرقه للسفينة. فقد كان ﴿وَرَآءَهُم﴾ أي أمامهم ﴿مَّلِكٌ﴾ حاكم لتلك الجهة، ولم يحددها، لأنه لا حاجة للمخاطب بهذه القصة معرفة المكان، وهذا الملك ﴿يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ أي: يأخذها قهراً وظلماً، وتعدياً، بدون استثناء، من غير سبب ولا علة، وإنما دافعه لذلك هو محبة الاستكثار والتملك بالسرقة والتعدي على الغير ظلماً وعدواناً.

وفي إحداث العيب دلالة على استثناء المعيبة من الأخذ لها غصباً. بأنه يستثني السفينة التي بها عيب، ولذلك جاءت الإرادة من الخضر بإحداث العيب ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ فهذا الملك يأخذ كل سفينة قهراً وظلماً إلا الْمُعَابَةُ بعيبٍ، فإن كانت خالية من العيوب استولى عليها، إذ لو كان يأخذ الملك كل سفينة غصباً، لما أحدث الخضر بها عيباً، بخلع ما خلع من ألواحها. وجملة ﴿كُلَّ سَفِينَةٍ﴾ تدل على عدم الاستثناء طالما السفينة التي تمر خالية من العيوب. مما يدل على قوة ظلمه، وقهره لمن يمر بسفينته من ذلك المكان، وأن لديه من القوة ما يجعله لا يستثني إلا ذات العيب من السفن المبحرة، فلا أحد يستطيع أن ينجو بسفينته السليمة، ولا يوجد من يُوقفه عن ذلك، مما يدل على قوة جبروته وقوة ظلمه، وأن القوة التي معه من الأعوان السُّراق متواطئون معه، ومحبين للخدمة معه، لمصلحة جاذبة يحصلون عليها منه.

وفي ذلك من الفوائد أن بعض الأمور لا تنكشف حقيقتها إلا بمعرفتها من جميع الأوجه، فالحكم على خلع بعض ألواح السفينة لم يكن مظهراً لكامل الحقيقة، ولكن بعد بيان الخضر عليه السلام لعلة الأمر الذي خفي على موسى عليه السلام تكاملت الحقيقة، فاندفع عن الخضر إرادة الإغراق. وسلامة نيته وإرادته، وبيان محبته للخير، ومساعدة المساكين، ودفع الضر عنهم. وفيها كذلك بيان للفرق في الحكم بين من أطلعه اللهُ تعالى على الغيب، وبين من لم يعلم الغيب، فخفيت عليه علة الفعل، فَحَكَمَ بظاهر الفعل. كما أفاد ذلك الحدث عظيم لطف الله تعالى ورحمته بأهل السفينة، مما يدل على تنوع وكثرة فضل الله تعالى ورحمته التي يرحم بها عباده وهم لا يعلمون. فكم من حدث يحدث للمرء فيكرهه وهو خير له، فيؤخره عن شر، ويقدمه لخير، أو يؤخره لخير ويمنعه من شر، وهم في غفلة عن ذلك، فلا يُؤدون حقها من الشكر وغيره، كما قال تعالى في سورة النمل ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو

﴿فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ فكيف لو انكشف للإنسان الكثير من المغيبات التي تَحَقَّقَ بها الخير له، لسجد هذا الإنسان لله تعالى شكراً وثناء زمناً طويلاً من حياته، وذلك لكثرة ما ينكشف له من الغيب. فوجب على المؤمن كثرة الحمد والشكر لله تعالى فيما رأى وعرف من فضل الله عَزَّ وجل، وفيما خفي عليه مما لا يحصيه ولا يدركه أبداً. فوجب من العباد كثرة الشكر لله تعالى. اللهم لك الحمد على فضلك وكثرة نعمك يا ربنا، وارزقنا شكرك وحُسن عبادتك، فلا نُحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك تباركت ربنا وتعاليت.

ومن مزيد فوائد البيان جملة ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم﴾ وهي هنا بمعنى أمامهم، ولذلك يقولون: وراءك حَرٌّ شديد، أو بَردٌ قارس، وهو في قادم أيامهم. وقد ذكر ابن جرير رحمه الله تعالى تحليلاً رائعاً لذلك: إنما قيل لما بين يديك هو ورائي، لأنك من ورائه، فأنت ملاقيه، كما هو ملاقيك. فصار إذا كان ملاقيك، كأنه من ورائك وأنت أمامه، فأنت ملاقيه...كقول القائل: وراءك برد شديد، وبين يديك حر شديد، لأنك أنت وراءه، فجاز لأنه شيء يأتي وكأنه إذا لحقك صار من ورائك، وكأنك إذا بلغته صار بين يديك. قال: فلذلك جاز الوجهان[1] ولعل في استخدامها ما يدل على توقع حصول المذكور حتى وكأنه أصبح وراءهم، وملاصق لهم، أو قريب منهم. فهو متحقق الوقوع، ومن ذلك قوله تعالى في سورة المؤمنون ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ فأمامهم برزخ مُتحقق الوقوع إلى يوم البعث.

وفي معرفة الخضر عليه السلام لما هو قادم في طريق السفينة من المغيبات التي لا يمكن لأحد أن يعرفها، فيه دليل على أنه مُلْهَم من الله تعالى، فقد ألهمه عَزَّ وجل من علم الغيب ما ألهمه به. مما يدل على أن بعض الأحداث التي تحدث فيما يملك الإنسان قد تكون خيراً للإنسان فيما هو قادم، أو لتدفع به ضرر عنه، أو لتمنعه من عمل أو أداء أمر، هو شر له. مما يدل على قصور علم الإنسان بما هو قادم، وبعلة ما يحدث وما هو حادث من الأحداث، وإنما العلم الشامل الكامل لله وحده لا شريك له جَلَّ في علاه. مما يلزم المؤمن أن يفوض أمره إلى الله تعالى، مع الرضا به، وسؤاله لربه عَزَّ وجل أن يجلب له الخير ويدفع عنه الشر. ففي علم أصحاب السفينة أن هذا شر قد حصل لسفينتهم، وبناء عليه سيكون شأنهم مشحون ومحمول بالهم والحزن والتفكير، بينما هو خير ونصر ونجاة لسفينتهم. مما يعطي المؤمن درساً في الرضا بأقدار الله تعالى فيما يحب ويكره، وأن يحمل أقدار الله تعالى على المحمل الحسن الذي هو حقيقة أقدار الله تعالى، فترتاح نفسه، ويطمئن قلبه. كما أن في هذه الحادثة توجيه للإنسان بحقيقة التفاوت، بأن الناس يتفاوتون في العلم، كما تفاوت نبي الله ورسوله موسى عليه السلام والرجل الصالح الخضر عليه السلام، وأن الله تعالى يُفَارِق بين الناس في نوع ورفعة وقوة وكمية

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٥/٣٥٥)

التحصيل، فإن كنت ذو علم، فاعلم أن هناك من هو أدق أو أخص أو أشمل أو أكثر منك علماً. وفي ذلك بيان لتنوع أرزاق الله تعالى، وكرم عطائه، وأن علم الغيب لا يعلمه إلا الله تعالى، وأن الله عَزَّ وجل واسع عليم.

ثم يتدرج البيان إلى تفسير وبيان شأن الغلام الذي قتله الخضر ﴿ وَأَمَّا ٱلْغُلَـٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَـٰنًا وَكُفْرًا ﴾ جاء السياق في ترتيب بياني عظيم من حيث جزالته، وتدرجه، إذ بدأ الإخبار بلفت الانتباه للموضوع أولاً ﴿ وَأَمَّا ٱلْغُلَـٰمُ ﴾ فأما الغلام الذي تم قتله من بين الغلمان، ومن غير سبب ظاهر لك يا موسى، حتى اعتقدت أنني قتلته ظلماً، بغير نفس، وبغير علة موجبة للقتل، وأنكرته، فإن أبويه كانا مؤمنين ﴿ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ ﴾ وفي هذا إعادة الذهن لقضية الغلام، حتى يعقبه ويليه الشروع في تفسيرها وذكر العلل الموجبة لذلك. فبدأ ببيان علتين للقتل: الأولى ﴿ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ ﴾ فإن له أبوين مؤمنين، فدل ذلك على أنهما مسلمين لله تعالى، كما دل هذا التخصيص للوالدين بالإيمان على استثناء الابن من الإيمان، وأنه في علم الله تعالى كافر، كما أفاد النص الكريم أن الأبوين على قيد الحياة.

وأما العلة الثانية للقتل فهي مرتبطة بالأولى ﴿ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَـٰنًا وَكُفْرًا ﴾ والخشية تفيد الخوف الذي ارتفعت درجته إلى التعاظم في النفس إلى درجة التحقق، وذلك بسبب ما عَلِم الخضر من الله تعالى بحال الغلام، بأنه كافر. فكانت الخشية من هذا الغلام أن يحمل أبويه على الكفر، بسبب حبهما له، أو بكثرة تزيينه لهما الكفر فيما بعد، أو التفاخر والتعالي به إلى درجة حصول الطغيان، أو مطاوعة الأبوين له، أو تسلطه عليهما فيما هو قادم من الأيام. وفي علم الله تعالى أن قتل الغلام الكافر خير للوالدين من بقائه. ففي قتله دفع للضرر والشر العظيم الذي سَيُحْدِثُهُ لأبويه المؤمنين. وهو عِلْمٌ غيبي لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى. والإرهاق بمعنى أنه يحملها على ما لا طاقة لهما به وهو الطغيان الذي يقود إلى الكفر ﴿ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَـٰنًا وَكُفْرًا ﴾ ففي قتله سلامة لدين أبويه المؤمنين.

وعن سعيد بن جبير رضي الله عنه قال: وكان أبواه مؤمنين، وكان كافراً، فخشينا أن يرهقهما طغياناً وكفرا. أن يحملها حبه على أن يُتابعاه على دينه[1] والخشية هنا بمعنى العلم ﴿ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَـٰنًا وَكُفْرًا ﴾ قال الفراء رحمه الله تعالى: معناه: فعلمنا[2] ومن مزيد الفوائد ما ذكره ابن جرير رحمه الله تعالى أن لها معنيين: أحدهما: أن الخوف والخشية توجهها العرب إلى معنى الظن. وتُوجِّهُ هذه الحروف إلى معنى: العلم

(1) البخاري (٣/٢٥٥-٢٥٦) برقم (٤٧٢٦)

(2) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٢٥/٥)

بالشيء الذي يُدْرَك من غير جهة الحس والعيان[١] وبالتالي عَلِم الخضر عليه السلام من إخبار الله تعالى له بأن الغلام كافراً، أو سينشأ على الكفر. ودلت كلمة ﴿يُرۡهِقَهُمَا﴾ على أن الغلام سيدفع أبويه إلى الكفر، وذلك بأن يحملها على الطغيان الذي هو الاستكبار على الله عَزَّ وجل ﴿يُرۡهِقَهُمَا طُغۡيَٰنٗا﴾ والطغيان يحمل دلالة الإضلال لهما، ويحملها على معصية الله تعالى، ثم التجاوز فيه إلى حد كثرة الوقوع في الظلم، ثم الوقوع في الكفر ﴿فَخَشِينَآ أَن يُرۡهِقَهُمَا طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗا﴾ فإن في تتابع الوقوع في الكفر بعد الطغيان ما يفيد التدرج في التتابع للوصول إلى مرحلة الكفر، بعد الوقوع في الطغيان الذي يشمل الاستكبار على الله عَزَّ وجل، والضلالة والمعصية وتجاوز الحد في الظلم، وأن الخلل إنما يأتي بالتمادي في الأدنى حتى الوصول للأعلى، مما يفيد الحذر والتنبه من الصغائر، فإنها تقود إلى الكبائر، وأن الكبائر تقود إلى التمادي فيها، ثم قد يصل إلى ما يكره أن يتحول إليه المؤمن.

فأعلم الله تعالى الخضر بحال هذا الغلام أنه كافر، ومع كفره فإنه سيقود أبويه إلى الطغيان والكفر معاً، وإزاء هذه الحيثيات العظيمة، فإن الله تعالى أراد أن يرزقها خيراً من هذا الغلام ﴿فَأَرَدۡنَآ أَن يُبۡدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيۡرٗا مِّنۡهُ زَكَوٰةٗ وَأَقۡرَبَ رُحۡمٗا﴾ وتدل جملة ﴿فَأَرَدۡنَآ أَن يُبۡدِلَهُمَا رَبُّهُمَا﴾ أن هذا الكلام هو على لسان الخضر عليها السلام، بإشارته إلى ربهما، كما أن في عطفه لهذا القول من البيان على ما سبقه الذي هو ﴿فَخَشِينَآ أَن يُرۡهِقَهُمَا طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗا﴾ أن الذي وقع منه الخشية هو الخضر عليه السلام. بناء على ما أَطلَعَ اللهُ تعالى الخضر عليه من الغيب عن حال هذا الغلام، وأن الله تعالى سيرزق والديه بغلام هو خير منه، فأمره الله تعالى أن يقتله ليبدلها عَزَّ وجل خيراً منه، لأن الخضر عليه السلام لن يشرع في شيء لم يأمره الله تعالى به، أو يُبيحه له، قال الإمام القرطبي رحمه الله تعالى عن قوله تبارك وتعالى ﴿فَخَشِينَآ أَن يُرۡهِقَهُمَا طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗا﴾: قيل هو من كلام الخضر عليه السلام، وهو الذي يشهد له سياق الكلام، وهو قول كثير من المفسرين، أي: خفنا أن يرهقها طغياناً وكفراً، وكان الله قد أباح له الاجتهاد في قتل النفوس على هذه الجهة[٢]

ثم يبين سبحانه وتعالى إرادته في تعويض والديه بخير من هذا الغلام الذي قُتِل ﴿فَأَرَدۡنَآ أَن يُبۡدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيۡرٗا مِّنۡهُ زَكَوٰةٗ وَأَقۡرَبَ رُحۡمٗا﴾ فأردنا بقتل الغلام الكافر أن يبدلها ربها ﴿خَيۡرٗا مِّنۡهُ﴾ أي: من هذا

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٥/٣٥٧-٣٥٨)

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١١/٢٦)

الغلام ﴿ زَكَوٰةً ﴾ أي: ديناً وصلاحاً وطهارة من الذنوب ﴿ وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴾ وأقرب في التمثل بالرحمة والقيام بها وتحقيقها، كالعطف والبر والطاعة لوالديه ولغيرهما، فيسلك مسلك الصالحين. مما يفيد أهمية هذه الخصلتين في الإنسان ﴿ خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴾ فإنه يتحقق بهما البر، والسعادة للوالدين، ولمن تخلق بهما، وأنهما نعمة عظيمة وجليلة من الله تعالى. فالخصلة الأولى ﴿ زَكَوٰةً ﴾ أي ديناً وصلاحاً وطهارة من الذنوب. والخصلة الثانية ﴿ رُحْمًا ﴾ أي: التمثل بالرحمة والقيام بها. ومن جميل البيان ودقته قوله تعالى ﴿ وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴾ فكلمة أقرب تدل على التفضيل، أي: أقرب وصولاً إلى التمثل بالرحمة فيما أمكن مما يستطيع الإنسان، وأما كمال الاستيفاء فلا تكون إلا من عند الله تعالى. وتأتي أيضاً بمعنى: أرحم بهما من الغلام الذي قتله الخضر. ليتبين أن قدرات الإنسان مهما كانت فإنها محدودة، فلا تستوعب تمام الكمال. فقد يشوبها شيء من التقصير. وفي هذا ما يدل على أن هذا الدين عظيم حتى في مراعاته للطبيعة البشرية، وفي تقديره للمطالب الإنسانية.

مما يبين أن رحمة الله تعالى فيما يقدره على المؤمنين من أقدار هي خير لهم مما يظنون، حيث أن الوالدين مؤمنين، بينما ابنهما كان كافراً، أو سيكون كافراً، فيهيأ الله تعالى الخضر لقتله، ويُريح أبويه من شره، ومن إفساده لدينهما، بإخراجهما من الإيمان إلى الكفر، ومن دخول الجنة إلى دخول النار. في حين أن في علم الوالدين المتوقع أنه محل حب وتقدير، وخير لهما. مما يعطي الإنسان المؤمن درساً في الرضا بأقدار الله تعالى، سواء فيما يحب أو يكره، فجميعها خير. وأن انزعاج المؤمن لما يصيبه هو لجهله بما خفي عنه من أقدار الله عَزَّ وجل، فكيف لو نظر لهذا الأمر في جميع مجريات حياته، لتحققت له طمأنينة النفس، وراحة البال، كما أفاد وأظهر هذا القضاء رحمة الله تعالى بالمؤمنين، وعنايته بهم، وأن قضاءه سبحانه وتعالى فيهم كله خير ونعمة، مهما كرهوا من شيء، ومهما طمعوا من محبوب. فسبحان الله العظيم الجليل، والحمد لله رب العالمين. اللهم ارضنا بقضائك وقدرك، واحفظ علينا نعمك، وارزقنا شكرها، وأصلح لنا أحوالنا، وأعنا ووفقنا، وارضنا وارض عنا بفضلك ورحمتك يا أرحم الراحمين.

وقد أفاد هذا البيان عظيم علم الله تعالى، وقلة علم الإنسان، وكثرة جهله، وأن ما عند الإنسان من العلم إلا قليلاً، وأن العباد لو علموا بما غاب عنهم من الأقدار لاستحسنوا جميع أقداره عَزَّ وجل، مهما كان ظاهرها خلافاً لما ترغبه وتوده النفوس.

ثم يتدرج البيان إلى تفسير وبيان شأن الجدار الذي بناه الخضر عليه السلام عند قوم بخلاء، وأنه بالرغم من بخلهم مع حاجة الخضر عليه الصلاة والسلام للمال من أجل الطعام إلا أنه لم يأخذ عليه أجراً ﴿ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ

صَبۡرًا ﴾ جاء السياق في ترتيب بياني عظيم في جزالته، وتدرجه، فبدأ الإخبار بلفت الانتباه للموضوع أولاً ﴿ وَأَمَّا ٱلۡجِدَارُ ﴾ فأما الجدار الذي تم بناؤه من غير أجرة، وفي قرية قد امتنع أهلها عن إطعامنا، لبخلهم وشحهم، مع حاجتنا للمال من أجل الطعام، واستنكرتَ ذلك الصنيع مني لهم من غير أخذ أجرة عليه، فإن علة وسبب ذلك قائم على قوله تعالى ﴿ فَكَانَ لِغُلَٰمَيۡنِ يَتِيمَيۡنِ فِي ٱلۡمَدِينَةِ ﴾ فتصدر البيان الكريم بهذه المقدمة الجزلة لقضية الجدار ﴿ وَأَمَّا ٱلۡجِدَارُ ﴾ والتي أعاد بها الذهن إلى أساس الحدث، ثم بدأ الشروع في التفسير، وطرح الأسباب الموجبة لذلك. فبدأ الإيضاح ببيان العلل في تتابع بليغ: فالأولى: أن الجدار يخص غلامين يتيمين ﴿ وَأَمَّا ٱلۡجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيۡنِ يَتِيمَيۡنِ فِي ٱلۡمَدِينَةِ ﴾ وكلمة ﴿ لِغُلَٰمَيۡنِ ﴾ وكلمة ﴿ يَتِيمَيۡنِ ﴾ مثار للنفس عن سبب هو جدير بالتضحية، ومد يد العون لهما. فإن الجدار الذي كان آيلاً للسقوط فأصلحته بإقامته، وأردت مني يا موسى أن آخذ عليه أجراً، فإن ملكيته عائدة بالميراث لغلامين، مما يدل على صغر سنهما، ولا قدرة لهما على بناء الجدار، وأنهما في حاجة لغيرهما. كما يتبين من الوصف أن الغلامين قد تملكاه بالميراث، لكونهما صغيرين، فلا يمكن لهما الحصول على شيء إلا بالميراث، أو بعطاء غيرهم لهما، وكونهما يتيمين دل على وصوله إليهم بالميراث، ودل على حاجتهما لمن يعينهما، ويُصلح لهما جدارهما.

وقد أكد الخضر الحدث بإشارته إلى المدينة التي وقع فيها بناء الجدار ﴿ وَأَمَّا ٱلۡجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيۡنِ يَتِيمَيۡنِ فِي ٱلۡمَدِينَةِ ﴾ وهذا يدل على أهمية ضبط الوصف من كل وجه ممكن، وقد جاء تسميتها بالمدينة، بينما تم نعتها بالقرية عند وصولهما لها ﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ ﴾ قال القرطبي رحمه الله تعالى: ودل قوله ﴿ فِي ٱلۡمَدِينَةِ ﴾ على أن القرية تُسَمَّى مدينة[١] ولعل في وصفها بالمدينة هو إشعار بانتقال حالها من قرية إلى مدينة في قادم الأيام القريبة، لتصبح مدينة بهذه الحادثة، وبهذا المجيء المبارك للخضر ولموسى عليهما السلام، وانتفاع هذين الغلامين بما لهما من كنز في قادم أيامهما. كما أن في وصف الغلامين باليتيمين، ما يدل على صغر سنهما، لأنه من كان كبيراً فلا يقال له يتيم، ودل كذلك على أن أباهما هو المتوفَّى، لأن اليتم في الناس من قِبَل الأب، فيقال: صغير يتيم، وفي غير جنس الناس من قِبَل الأم[٢] كالحيوان. فهذا الوصف لهما بأنهما ﴿ لِغُلَٰمَيۡنِ يَتِيمَيۡنِ فِي ٱلۡمَدِينَةِ ﴾ مثار للشفقة عليهما، وحينها لا يُنظر إلى الأجرة مهما كانت الحاجة قائمة، وهما في هذه الحالة من اليتم وصغر السن، مع قدرة الخضر على إعانتهما، وحفض حقوقهما. ما يفيد أن المؤمن لا ينظر في كل

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٢٧/١١)

(٢) الفيومي، كتاب المصباح المنير (٩٣٥/٢)

أحواله إلى العائد الدنيوي، بل ينظر للعوائد في الآخرة. وأن على المؤمن أن يبذل ما يستطيع من مَدِّ يَد العون للغير، وخاصة اليتيم، برعايته وحفظ ماله له.

وأما الأمر الثاني: فهو ﴿ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا ﴾ ومن دوافع إقامة الجدار أن لليتيمين كنز تحت هذا الجدار، وأن في تهدمه إظهار لِمَا تحته من الخير، فيطمع الطامعون فيه، بأخذه، وسلبه عن اليتيمين، فلا ينتفعان بما تحته من خير. ومن دقائق البيان أن نَسَبَ مِلكية الكنز لهما ﴿ كَنزٌ لَّهُمَا ﴾ مما يفيد أنه بمجرد موت الوارث ينتقل الموروث للورثة. وتعني كلمة ﴿ كَنزٌ ﴾ أنه مال مدفون من الذهب والفضة. فيكون الدافن للكنز والد الغلامين، أو قد يكون متوارث عن أسلافه من الأجداد، وأراد الله سبحانه وتعالى أن يحفظ للغلامين هذا الكنز حتى ينتفعا به. وفي هذا دليل على عناية الله تعالى ورحمته، وأنه سبحانه وتعالى إذا أراد بالعبد خيراً حفظه له، ومنع غيره عنه، وهيأ له من الأسباب ما يحفظه به، ويحجبه عن غيره، حتى يصل إلى صاحبه، فينتفع به. مما يغرس في قلب المؤمن راحة النفس وطمأنينة القلب، من أنه لن يفوته ما كُتِب له، وإذا تحقق ذلك الاعتقاد في قلب المؤمن، انتزع منه الحسد، والغل، والتنافس غير المحمود، فعلم أن الذي عليه وتحت مسؤوليته هو الأخذ بالأسباب، وأن الله تعالى هو الرزاق، وهو المعطي والحافظ والمقدِّر.

والأمر الثالث: هو صلاح الأب ﴿ وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا ﴾ فقد خص الله تعالى الأب بالتزكية من عنده على ما كان منه من التقوى، فسماه ﴿ صَٰلِحًا ﴾ من الصلاح الذي هو ضد الفساد﴿ وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا ﴾ وهذه الصفة وردت عامة دون تخصيص لنوع معين ومحدد من الصلاح، مما يدل على فضل شأن هذا الأب في سعة الصلاح التي كان عليها، من حيث دينه وأخلاقه وتعامله مع ربه تبارك وتعالى، وتعامله مع عباده وخلقه الذين يختلط بهم. مما يدل على أهمية الصلاح وأثره على الذرية، وأن الله تعالى يبارك ويحفظ له شأن ذريته من بعده، فتمتد نعمة الصلاح إلى غيره من أهله، وذلك لكرم الله تعالى، وعظيم إحسانه ورحمته، بل إن من فضل الله تعالى أن الصلاح يمتد أثره حتى على الذرية في الآخرة، كما قال عَزَّ وجل في سورة الطور ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍۚ كُلُّ ٱمْرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ٢١ ﴾

والأمر الرابع: هو إرادة الله تعالى ﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا ﴾ فإن الله تبارك وتعالى هو الذي أراد لهذين الغلامين أن يبلغا مرحلة الأشد من عمرهما ليستخرجا كنزهما عند بلوغهما مرحلة التكامل من حيث القوة العقلية والبدنية. وهي مرحلة الأشد ﴿ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا ﴾ والأشد هي: المرحلة التي يبلغ فيها

الرجل قوته الجسمية، وكمال عقله، وهي مرحلة البلوغ، بأن يبلغ ويصل الغلام إلى مبلغ النكاح، مع الرشد، فهي تشمل تظافر ثلاثة قوى: قوته الجسمية، وقوته العقلية وهي الرشد، وأن يبلغ مبلغ النكاح. قال ابن عباس رضي الله عنهما: الأشد: الحلم، وهو اختيار يحي بن يعمر والسدِّي، وروى مجاهد عنه: ستاً وثلاثين سنة، وروي عنه أيضاً ثلاثين، وقال الضحاك: عشرين سنة، وقال مقاتل: ثمانية عشرة، وقد أحكم الزُّهري تحكيم اللفظة، فقال: بلوغ الأشد يكون من وقت بلوغ الإنسان مبلغ الرجال إلى أربعين سنة، قال: فبلوغ الأشُد محصور البداية، محصور النهاية، غير محصور ما بين ذلك، وبلوغ الأشُد مرتبة بين البلوغ وبين الأربعين[١] قال الفيروزي أبادي رحمه الله تعالى: حتى يبلغ أشده أي: يضم أوله، أي قوته، وهما ما بين ثماني عشر إلى ثلاثين سنة[٢] وقال ابن منظور رحمه الله تعالى: واحدة الأشد شِدَّة، والشدة القوة والجلادة، والشديد الرجل القوي، وقال الزجاج رحمه الله تعالى: هو من نحو سبع عشر إلى أربعين، وقال مرة: هو ما بين الثلاثين والأربعين[٣] وقال السيوطي رحمه الله تعالى في سورة الأحقاف ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرۡبَعِينَ سَنَةً ﴾ والأشد: هو كمال قوته وعقله ورأيه، أقله ثلاث وثلاثون سنة، أو ثلاثون. ﴿ وَبَلَغَ أَرۡبَعِينَ سَنَةً ﴾ أي: تمامها، وهو أكثر الأشد[٤] مما يفيد أن الإنسان عموماً: إنما يَكْمُلُ رشده في سنوات هذه المرحلة، مما يفيد أن لكل شيء إعداد وتهيئة بما يناسب ما أُعِدَّ له، وأن حكمة الله تعالى اقتضت أن العبد لا يتحقق له القيام بشؤونه المالية على وجه الحفظ والاستثمار إلا إذا استوفى موجباتها، وبالتالي يلزم تربوياً أن يُعِدَّ الصغير لقادم عمره بما يجعله مستوفياً ومستعداً لما سيكون عليه، أو بما هو مرجو له، أو موعود به.

وربط سبحانه وتعالى استخراج الكنز ببلوغهما الأشد ﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبۡلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسۡتَخۡرِجَا كَنزَهُمَا ﴾ فإذا بلغا تلك المرحلة سوف يحصلا على كنزهما برحمة الله تعالى وعظيم تدبيره. وصفة الأشد تبلغ بتكامل صفتين كما قال تعالى في سورة النساء ﴿ وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡ ﴾ والرشد هو: الاستقامة على طريق الحق[٥] وهو الصلاح، وإصابة

---

(١) ابن قيم الجوزية، تحفة المودود بأحكام المولود، ص (١٧٨)

(٢) الفيروزي أبادي، القاموس المحيط (١/٥٠)

(٣) ابن منظور، لسان العرب (٣/٢٣٥) ملخص

(٤) السيوطي، تفسير الجلالين (٥٠٤)

(٥) الفيروزي آبادي، القاموس المحيط (١/٢٩٤)

الصواب، وهو خلاف الغي والضلال[١] وبالتالي يتضمن تحديد وتعيين الأشد إعجازاً عملياً واجرائياً، وكذلك فيه إعطاء التقدير الكافي والكامل للحكم على اليتيم بأنه بلغ الأشد، فيستوفي حُسن التصرف في ماله، احترازاً من الغرور بقوة البدن، وظهور مظهر الرجولة البدنية، وخفاء القدرة على التصرف، بل لا بد من ظهور القدرة على التصرف بما يحقق النفع، وخلوها من الجهالة والسفه، وهذا من قوة دقة دلالات الألفاظ في القرآن الكريم، وأن فيها إعجازاً بيانياً عظيماً، وأنه يجب التمعن فيها لإصابة الحق والمراد.

والأمر الخامس ﴿وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا﴾ فأراد الله سبحانه وتعالى لهاذين الغلامين أن يقوما باستخراج كنزهما من تحت الجدار عندما يبلغا مرحلة الأشد، حيث يمكنهما حماية كنزهما، والتصرف فيه التصرف الحكيم الذي يتناسب مع مرحلة الأشد التي يبلغانها بتوفيق الله تعالى وبرحمته. ثم أوضح البيان السبب الذي مِن الله تعالى ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ فهذا الذي كان هو من رحمة الله تعالى بالغلامين، فلم أكن إلا سبباً بتوجيه الله تعالى وتدبيره، فأوكل الأمر الذي حصل لله تعالى، بسبب رحمته جَلَّ جلاله.

ثم في تدرج بديع جميل يوضح الخضر عليه السلام مصدر علمه في تلك الأحداث الثلاثة ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾ فالذي رأيته مني يا موسى لم يكن من تلقاء نفسي وعن اجتهادي ورأيي، بل هو من عند الله تعالى، ليؤكد بهذا ما كان قبله من البيان، وهو ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا﴾ لينفي بذلك علمه بالغيب إلا ما كان من الله تعالى له، وأن ما فعله هو عن أمر الله تعالى.

ثم من بديع السياق هو الاكتفاء في النفي بنفي مصدر الحوادث الثلاث التي رآها موسى عليه السلام من أن تكون من تلقاء نفسه ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾ فما رأيته من أحداث ليست صادرة من نفسي، فأغنى النفي عن إثبات أن ما كان من أفعال بأنها كانت بأمر الله تعالى، لأنه ليس هناك غيره عَزَّ وجل يلهمه ما ألهمه من الغيب، ليفيد بذلك أن هناك علم مُكتَسَب بالتلقي، والتعلم، والخبرة، وهو العلم الذي يُطلب بالجد والاجتهاد والأخذ بالأسباب، وأن هناك علم موهوب من الله تعالى يهبه لمن يشاء من عباده، وموارد العلم الموهوب كثيرة متنوعه، كأن يلهمه أمراً أو شيئاً، أو أن يلهمه الأصوب، ويلهمه الفهم السريع، والاستنتاج والاستنباط والتحليل الموافق للصواب، ويلهمه قوة الاسترجاع، وقوة الحفظ وكثرته وتنوعه، ولذلك يستخير الإنسان ربه في الأمور التي يتردد فيها، فينشرح صدره لما هو خير بإذن الله تعالى. اللهم ألهمنا رشدنا ووفقنا.

---

(١) الفيومي، المصباح المنير (١/ ٢١٠)

ثم يذكر الخضر لموسى عليهما السلام علة تفسيره للأحداث الثلاثة ﴿ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ فكل ذلك التفسير والبيان هو للأمر والشأن الذي ما استطعت يا موسى أن تصبر عليه، مما رأيت مني في الأحداث الثلاثة ﴿ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ فذلك التأويل الذي فسرته لك للأحداث الثلاثة التي ضاق صبرك عنها، لأنك لم تكن تعلم الغيب عنها، كما علمني ربي سبحانه وتعالى. مما يدل على أن الله تعالى غَيَّب الغيب عن عباده، وكشف بهذه الأحداث الثلاثة كمال قضاء الله تعالى، وأن جميعه في صالح عباده، وأنه ينصر المؤمنين وهم لا يعلمون، ويدفع عنهم الشرور قبل أن يروها، أو حين يرونها، ويحقق لهم الخير دون أن يروا تدبير العزيز الرحيم، مما يقتضي الشكر والثناء لله تعالى على كل ما يقضيه لعبده، وأن يصبروا ويشكروا حتى فيما يرونه مؤلماً لهم، فإن حقيقته خلاف ما يرون فيما لو انكشف الغيب لهم. وهذا يغرس في المؤمن طمأنينة النفس، والتعامل مع أقدار الله تعالى بحكمة المؤمن البصير بها. ونسأل الله تعالى التوفيق والعون والهداية، وقوة الإيمان.

ومن جميل البيان أن وردت الاستطاعة هنا بالتخفيف، وذلك بحذف الياء ﴿تَسْطِع﴾ من قوله تعالى ﴿ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ وهي تعني وتساوي تماماً كلمة تستطيع. ولكن يمكن القول بأن اختيارها على كلمة تستطيع لأن أمر الأحداث الثلاثة العظيمة المبهرة قد اتضحت لموسى عليه السلام فَخَفَّفَ السياق اللفظة لتكون معبرة في تساوي خفتها مع ما خف على موسى عليه السلام من معاناته لتلك الأحداث المذهلة. بينما قال الخضر في مطلع إرادته للإخبار والإعلام بخبر الأحداث الثلاثة ما حكاه عنه سبحانه وتعالى ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ فوردت على أصلها دون حذف التاء، وذلك لتتناسق وتتساوى في زيادتها مع ما زاد على موسى عليه السلام من الذهول لتلك الأحداث. فكانت على الأصل كما كان موسى على الأصل من الذهول، والله تعالى أعلم.

ومن جمال وقوة فوائد هذه القصة ما قاله نبينا محمد صلى الله عليه وسلم (يرحم الله موسى، لوددْنَا لو صبر، حتى يقص علينا من أمرهما)[١] وذلك لما اتصفت به هذه الأحداث الثلاثة من التشويق، والفوائد الغزيرة، مع البيان الذي يُفسر ويبين لنا عظيم تدبير الله تعالى، ونعمة أقداره التي يقدرها على العباد.

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ

(١) البخاري، الجامع الصحيح (١/٥٩-٦٠) برقم (١٢٢)

عِندَهَا قَوْمًاۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ
يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا
يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا
سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ﴾

بعد رحلة موسى عليه السلام في الجهاد من أجل طلب العلم، وتكبد مشقة السفر والانتقال من مكان لآخر، ومقابلته للخضر وتلك الأحداث الثلاثة العظيمة، ينتقل البيان إلى قصة الملك الصالح، ذي القرنين، التي امتلأت قصته بالجهاد في سبيل الله تعالى. وقد جاء البيان لها بأسلوب غاية في التشويق والتعليم، والحكمة والفوائد الجليلة العديدة، ابتداء من أول مطلعها ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِۖ قُلْ سَأَتْلُواْ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴾ فقد ابتدأ البيان الكريم بالإخبار عن سؤال من سأل النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ ﴾ ولم يذكر سبحانه وتعالى من هم السائلون، لتشمل كل من سأل، سواء من أهل الكتاب، أو من المشركين، أو بإيعاز من أهل الكتاب للمشركين، بل وردت بصيغة الجمع ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ ﴾ لتفيد كثرتهم وتعددهم، كما أنها وردت بصيغة المضارع ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ ﴾ فليس سؤالاً قد مضى وانتهى السائلون من طرحه، فكأنهم كانوا مستمرين في سؤالهم للنبي صلى الله عليه وسلم، فربما كانوا مكثرين فيه بالاستمرار في طرحه. كما أن في عدم تعيين وتحديد السائلين ما يفيد أنه لا فائدة من تعيينهم وتفنيدهم للمُخَاطَب. وتم توجيه الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم، بما يفيد ويعني أن الله تعالى يعلم شأنك، وشأنهم معك، وأنه يتولى أمرك، ويُعلمك بماذا تُجيب على اسئلتهم، ويخبرك بشأنهم وبما يخفى عليك منهم. وفيه شد انتباه المُخَاطّب عن أي شيء سألوا ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ ﴾ ليأتي الجواب مباشرة عما سألوا ﴿ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ﴾ يسألونك أيها النبي صلى الله عليه وسلم عن شأن وخبر الملك الصالح ذي القرنين.

وقد ذكرت كتب التفسير أن هناك اختلاف كبير في قصة تسميته بهذا الاسم، فمن ذلك: أنه كان ذا ضفيرتين من شعر، فسميَّ بهما. وقيل أنه رأى في أول ملكه كأنه قابض على قرني الشمس، فأخبر بها من عنده، فسموه بذلك، وقيل: لأن صفحتي رأسه كانت من نحاس، وقيل غير ذلك وقد يكون الأرجح في سبب تسميته

ما ذُكِر عن ابن عباس رضي الله عنهما: لأنه سار إلى مغرب الشمس وإلى مطلعها[١] وبأسلوب مشوق يقول الله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم ﴿قُلْ﴾ قل لهم، أي قل لمن سألك عن خبر ذي القرنين ﴿قُلْ سَأَتْلُواْ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا﴾ سأتلو عليكم أيها السائلون خبر ذي القرنين الذي سألتم عنه، عن طريق ما يوحيه الله تعالى عليّ من القرآن. والتلاوة في قوله تعالى ﴿سَأَتْلُواْ﴾ تفيد التتابع، الذي يحصل به التذكير، وهو قراءة القرآن الخاص بقصة ذي القرنين. وتفيد كلمة التلاوة: القراءة والاتباع والتتابع، بما يتحقق به تتبع كلماته، كلمة بعد كلمة، وتتبع آياته، آية بعد آية، وتتبع توجيهاته وإرشاداته وتعاليمه. وقد ورد الإخبار بصيغة الاستقبال ﴿سَأَتْلُواْ﴾ بما يؤكد لهم أنه لا ينطق عن الهوى صلى الله عليه وسلم، بل إن الله تعالى يُوحي لنبيه بما يوحيه إليه فسيخبرهم به. وفي هذا اثبات نبوته صلى الله عليه وسلم، الذي لا يُعرَف عن مثل هذا القصص في بيئته ومدينته أحد. وإزاء ذلك يجب عليهم التصديق برسالته، والدخول في الإسلام، وأن في عدم إسلامهم جحود وكبر من أنفسهم ﴿سَأَتْلُواْ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا﴾ فسأتلو عليكم من شأنه خبراً متضمناً لذكره ومن خبره ما تنتفعون به، ويكون عبرة وذكرى لكم، إن أردتم أن تتذكروا وتتعظوا بالحق. وفي هذا تشويق لمعرفة ما سيتلوه عليهم الرسول صلى الله عليه وسلم من القرآن. كما أن في إسماعهم آيات القرآن الكريم ما يعرفهم بحقيقته، وبلاغته، وقوة وصدق محتواه. وفي هذا النص من فوائد الدلائل أن في قصة خبر ذي القرنين عِبر وعظة، وتوجيه لهم قبل أن يتلوها عليهم أن يتدبروا مواعظه، وليفيد كذلك أن القصص في القرآن هو للتدبر والاتعاظ، وأن تكون ثمرته هي التطبيق العملي لما فيه من الذكرى العظيمة.

ثم ينتقل السياق الكريم إلى الشروع في بيان خبر وشأن ذي القرنين ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا﴾ يُخبر الله تعالى بأنه هو الذي مكَّن لذي القرنين في الأرض بما وهبه وأعطاه عَزَّ وجل، لينفي بذلك أن يكون ما حصل عليه من التمكين كان بجهده وقدرته ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فإن الله سبحانه وتعالى هو الذي أقدَر ومَكَّن ذي القرنين مما مكنه. فيقرر الله تعالى أن التمكين من عنده، فلا أحد يستطيع أن يتمكن من شيء من غير إرادته ومشيئته ومعونته، وجملة ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ تفيد سعة ما مكّنه الله تعالى منه، قال الإمام ابن كثير رحمه الله تعالى: أي أعطيناه ملكاً عظيماً، مُمَكَّن فيه من جميع ما يؤتى الملوك من التمكين، والجنود وآلات الحرب، ولهذا مَلَكَ المشارق والمغارب من الأرض، ودانت له البلاد، وخضعت

(١) الطبري، جامع البيان (١٥/٣٧٠-٣٧١) لقرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٣٢/١١) ابن القيم زاد المسير (١٢٨/٥)

له ملوك العباد، وخدمته الأمم، من العرب والعجم، ولهذا ذكر بعضهم: إنما سُمِّيَ ذا القرنين لأنه بلغ قرني الشمس، مشرقها ومغربها[١]

ثم منحه تبارك وتعالى الأسباب التي يتمكن بها من التمكين ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ مِن كُلِّ شَيۡءٖ سَبَبٗا﴾ فإن الذي مَكَّنَه هو الذي منحه أسباب التمكين سبحانه وتعالى، فَمَهّدنَا ويَسَّرَنا وطوَّعْنَا له الأسباب التي تمكنه من التمكن في الأرض، بل من كثرة وغزارة ما أعطاه الله تعالى من الأسباب أن ورد البيان بصيغة الكثرة مع التنوع ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ مِن كُلِّ شَيۡءٖ سَبَبٗا﴾ فإن حرف ﴿مِن﴾ أفاد التبعيض، وحرف ﴿كُلِّ﴾ أفاد الشمول، ودلالة كلمة ﴿سَبَبٗا﴾ أفادت نوع وعلة ما تمكن به، وهي الأسباب التي يتحقق بها التمكين، فأعطاه الله تعالى من كل جنس وشأن بعضاً من أسبابه التي تَمَكَّنَ بها من الشيء العظيم الذي تحقق له على ما سيأتي بيانه.

بل إن الله تعالى أفرد كلمة السبب ﴿سَبَبٗا﴾ فمن كل شيء سبباً واحداً، فكيف لو أعطاه أكثر من ذلك، مما يدل على كثرة وتنوع الأسباب التي عند الله تعالى، فيسأل المؤمن ربه تبارك وتعالى أن يسهل له أسباب الخير وأسباب دفع الشر التي بثها الله تعالى لعباده، وأن ما زود الله تعالى به ذي القرنين هو سبب من كل شيء ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ مِن كُلِّ شَيۡءٖ سَبَبٗا﴾ فسبحان الله العظيم الذي له الملك والحكم والحكمة، وعظيم التدبير، الذي يدل على عظمته، وعظمة سلطانه جَلَّ في علاه.

ويفيد هذا أن هناك أمرين مهمين في التمكين، الأول: إرادة الله تعالى، وهو قضاؤه وقَدَرُهُ عَزَّ وجل ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ وهذا يشمل التسخير والتطويع، فيطوع الله تبارك وتعالى الأسباب للمتسبب. مما يفيد أن الأسباب لا تحقق المراد إن لم يرده الله تعالى ويشاء، فهي ملك لله تعالى، يمنحها لمن يشاء بالقدر والكيفية التي يشاء سبحانه وتعالى. والأمر الثاني: هو الأخذ بالأسباب ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ مِن كُلِّ شَيۡءٖ سَبَبٗا﴾ فلا يكون شيء من بني آدم إلا بالأسباب المسببة للشيء، وأن الأسباب هي أيضاً بتوفيق الله تعالى وإرادته، ولذلك كم من آخذ بالأسباب القوية، ولا يحصل على مبتغاه، أو يحصل على القليل منه، أو يحصل عليه كلياً، أو على الكثير منه، وكم من آخذ بالأسباب البسيطة، فيحصل على الكثير الذي لم يكن في حسبانه وخلجات صدره، مما يبين أهمية الجمع بين الأخذ بالأسباب وبين طلب تسخير الأمر وتحقيقه، ليعلم الإنسان أنه لا يحدث في الكون شيء إلا بمشيئة الله تعالى، وأن من تمكن من أمر فإنما قد مُكِّن بتوفيق الله تعالى وإرادته جَلَّ في علاه.

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١٠٦/٣)

وهذا يعطي المؤمن درساً عميقاً، بأن كل أمرٍ يتمكن فيه الإنسان هو بفضل الله تعالى، وألا يعتمد المؤمن على نفسه وعلى الأسباب فقط، وألا يتكل على قدرته فتخذله، بل يعتمد على الله تعالى، ويسأله العون في كل أمر يريده، مهما كان صغيراً أو عظيماً، ومهما سهلة الأسباب، ومهما صعبت، فإن الشيء على قلته وصغره لا يكون إلا بمشيئة الله تعالى، وأنه لا يستصعب مراداً عظيما أو كبيراً أو بعيداً إذا أراده الله عَزَّ في علاه، فإنه بيد الله تعالى، يسخر ويطوع الأسباب، وأن على المؤمن أن يجمع بين الأخذ بالأسباب، وبين قَدَرِ الله تعالى ومشيئته.

ولذلك أخذ ذو القرنين بالأسباب، فقد أخبر الله تعالى عمَّا كان منه في الأخذ بالأسباب ﴿ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴾ أي: اتبع الأسباب التي منحها وسخرها الله تعالى له، ليتحقق له بها ما يتمكن به في الأرض.

وحتى الأسباب هي من فضل الله تعالى عليه، كما قال عَزَّ وجل ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴾ فالذي أعطاه الأسباب وطوعها ويسرها له هو الله تبارك وتعالى، مما يبين للعبد أن الأسباب وتطويعها هي من الله تعالى، فهو الذي يسخر لعباده الأسباب، وجوداً وتطويعاً وامتثالاً. ولذلك يقول بعضهم سخر الله تعالى لي فلاناً، إذ كان لا يتوقع منه وقوفه معه، فالذي سخره له هو الله تبارك وتعالى. وإن فهم ذلك مهم في حياة المؤمن، وسلامة لعقيدته، وفهمه لمجريات الحياة.

ثم يتدرج البيان إلى الأحداث التي توضح قدرة الله تعالى في التمكين لذي القرنين ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴾ فبينت الآية الكريمة سعة الملك الذي مَكَّن اللهُ تعالى ذي القرنين منه، حتى بلغ أقصى الغرب الذي تغيب فيه الشمس. ومن جميل السياق أن بدأ البيان بحرف ﴿ حَتَّىٰٓ ﴾ الذي اكتملت دلالته بما بعده ﴿ إِذَا بَلَغَ ﴾ والذي أفاد بلوغ الغاية، وإدراك المقصد، الذي هو مغرب الشمس. فعندما وصل ذو القرنين إلى ناحية أقصى مكان لغياب الشمس، وجدها تغرب في عين ﴿ حَمِئَةٍ ﴾ أي: في ماء به طين، وغلب عليه السواد. فأصبحت مُظلمة سوداء، لأن الحمأة تعني الطين الأسود. وذكر ابن جرير رحمه الله تعالى أي: في عين حارة، ذات حمأة وطين[١] فيكون المعنى العام لها: أنها تغرب نهاية الأرض من جهة المغرب، في عين حارة، وذات طين أسود. مما يدل على أنه وجد الشمس تغرب في براكين من الحمم الحارة، والتي قد اسودت من شدة الحرارة، خاصة وأن القرآن ذكر ذلك بكلمة ﴿ وَجَدَهَا ﴾ وليست بكلمة رأى. وكذلك سمى الذي فيه الحمئة بالعين ﴿ فِى عَيْنٍ ﴾ فهي تتدفق بالحمم من الطين الأسود، الذي انصهر من قوة الحرارة، فيكون قد وصل ذو القرنين إلى ما انتهى به

(١)الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٥/٣٧٨)

جهة الغرب إلى هذه المنطقة التي غابت فيها الشمس، لأن الرائي إلى مثل ذلك يرى أنها غربت واختفت فيها، لأنه لا يرى نهايتها.

قال ابن كثير رحمه الله تعالى: فسلك طريقاً حتى وصل إلى أقصى ما يسلك فيه من الأرض، من ناحية المغرب. وهو مغرب الأرض، وأما الوصول إلى مغرب الشمس من السماء فمتعذر. وما يذكره أصحاب القصص والأخبار من أنه سار في الأرض مدة والشمس تغرب من ورائه، فشيء لا حقيقة له، وأكثر ذلك من خرافات أهل الكتاب. وذكر رحمه الله تعالى عن قوله عَزَّ وجل ﴿وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ أي: رأى الشمس في منظره تغرب في البحر، المحيط، وهذا شأن كل من انتهى إلى ساحله، يراها كأنها تغرب فيه[١]

وهذا لا يتنافى مع كون أوائل البحر أو المحيط مجموعة من البراكين. وقال الشيخ السعدي رحمه الله تعالى: فأعطاه الله تعالى ما بلغ به مغرب الشمس، حتى رأى الشمس في مرأى العين، كأنها تغرب في عين حمئة، أي: سوداء، وهذا هو المعتاد لمن كان بينه وبين أفق الشمس الغربي ماء، رآها تغرب في نفس الماء، وإن كانت في غاية الارتفاع[٢] وقال ابن جرير رحمه الله تعالى: أنها تغرب في عين ماء حارة، ونقل عن ابن عباس رضي الله عنهما: في طين أسود[٣] ونقلنا قبل ذلك قوله أيضاً أنها تغيب: في عين حارة، ذات حمأة وطين. مما يدل على أن المفسرين متفقون على أن العين الحمئة هي السوداء، وهي الطين الأسود الحار، مما يتوافق مع قولنا أن الذي ظهر لذي القرنين هي حمم تتدفق بالطين والأتربة السوداء من البراكين لشدة الحرارة، وكأنها عين تتدفق بما يخرج منها. فهي تتدفق بالحمم من الطين الأسود، الذي انصهر من قوة الحرارة، فيكون قد وصل ذو القرنين إلى ما انتهى به جهة الغرب إلى هذه المنطقة التي غابت فيها الشمس، والرائي إلى مثل ذلك يرى أنها غربت واختفت فيها، لأنه لا يرى نهايتها. والذي مَكَّنه من ذلك المكان القصي هو الله تبارك وتعالى، ببلوغ أقصى مغرب الأرض، فليس للإنسان حول ولا قوة إلا بالله تعالى.

ثم يخبر الله تعالى بمن كان عند مغرب الشمس من الناس ﴿وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا﴾ أي أمة من الناس، ويظهر أنهم من الكفرين، وأنه دعاهم للإيمان، إذ قال الله تعالى لذي القرنين ﴿قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ أي: فوجهنا ذي القرنين بأن يتخذ فيهم أحد أمرين ﴿إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ فإما أنك تباشرهم بالقوة ﴿إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ﴾ وورد البيان هنا بلفظ القوة مطلقاً، دون تحديد

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١٠٧/٣)

(٢) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (١٨١/٣-١٨٢)

(٣)الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٣٧٤/١٥)

لنوعها، لتكون هناك خيارات أمام ذي القرنين. فقد تكون بالبطش، وقد تكون بالأسر، وقد تكون بالحبس، وقد تكون بالضرب، فلم يُحدد نوعه، ولكن حُدد مجاله الواسع، بما يفيد أهمية إعطاء المأمور مساحة من الخيارات التي تتناسب مع ما هو فيه من الحال، على ما سيظهر منهم، ومقدار تجاوبهم، وهو نوع من التفويض الذي يناسب واقع الحال منهم.

وأما الخيار الثاني: فهو ﴿ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمۡ حُسۡنٗا ﴾ أي: وإما أن تباشرهم بالأسلوب المتصف بالحسن، بل أرشده تبارك وتعالى إلى أن تبالغ في الإحسان معهم إن اخترت الإحسان، لأن كلمة ﴿ حُسۡنٗا ﴾ تفيد المبالغة فيما تتخذه من الأسلوب الحسن، بما يفيد تعاملهم بما يحثهم على اتباع الحق، بالإيمان، والانقياد لشريعة الله تعالى. وهذا يتطلب الحلم والصبر، وكثرة التوجيه والترغيب والترهيب. وفي هذا خيار ثاني حتى في اختيار نوع الأساليب الحسنة التي يتعامل بها معهم، فلم يحددها ويقيدها تبارك وتعالى لذي القرنين، بل ترك له الاجتهاد بما يناسب واقع الحال، مما يفيد في مجال الإدارة: أهمية التفويض لمن كان متصفاً بالحكمة والعدل والصدق، بما يمكنه من أداء المسؤوليات المكلف بها وفق واقع الحال الذي هو فيه. وقد أثبت ذي القرنين أنه رجل حكيم وموفق من الله تعالى، إذ اختار الأفضل والأحسن، وهو العدل في التعامل بين من قَبِل الإيمان، وبين من أصر على الكفر.

وقد أظهر ذو القرنين حكمته وعدله فيما أخبر به وبينه سبحانه وتعالى ﴿ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوۡفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابٗا نُّكۡرٗا ﴾ فالذي اختار لنفسه الكفر بربه عَزَّ وجل والتمرد والعصيان ﴿ فَسَوۡفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابٗا نُّكۡرٗا ﴾ فسيكون مِنَّا العذاب له في الدنيا ﴿ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابٗا نُّكۡرٗا ﴾ وفي الآخرة عندما يبعثه ويُرده الله تعالى للحساب، فإنه يتحقق له من الله تعالى العذاب الأعظم والأشد مما ناله في الدنيا ﴿ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابٗا نُّكۡرٗا ﴾ شديداً بليغاً في ألمه ووجعه. ليبين أن عذاب الدنيا مهما كان مؤلماً، سواء كان بالسجن أو الضرب أو القتل فهو ليس في قوته ولا في استمراره مثل عذاب الآخرة الذي لا ينتهي، وهو عذاب جهنم، وهو ﴿ عَذَابٗا نُّكۡرٗا ﴾ أي: عذاب النار.

وفي هذا اثبات البعث والجزاء. فلا يغتر أحد بما يراه من عذاب الدنيا. وبهذا تتحقق لمن كفر عقوبة الدنيا وعقوبة الآخرة الأكثر نكراً وقوة وشدة واستمراراً لا ينقطع في جهنم خالدين فيها أبدا، وهذا العذاب مشروط بوقع الظلم منه، وهو الكفر والجحود، لأن ﴿ أَمَّا ﴾ تفيد الشرط الْمُفَصَّل بما بعده من تحقق الظلم فيه ﴿ أَمَّا مَن ظَلَمَ ﴾ ثم يأتي بعد ذلك معاملة ذي القرنين لمن آمن.

وأما الصنف الثاني الذي حقق الإيمان، فله في الدنيا معاملة طيبة، وفي الآخرة جزاؤه الجنة ﴿ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴾ وأما من اختار الإيمان بالله تعالى، والعمل بشريعته، فحقق فيه الشرطين: الأول: الإيمان ﴿ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ ﴾ فصدق بالله تعالى ووحَّدَهُ. والشرط الثاني ﴿ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ﴾ فأطاع الله تعالى، بعمل الصالحات التي هي شريعة الله تعالى ﴿ فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ وهي الجنة في الآخرة. قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى ﴿ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ وهي الجنة ﴿ جَزَآءً ﴾ يعني: ثواباً على إيمانه، وطاعته ربه[١] ثم بعد أن ذكر ما يخص الآخرة ذكر ما يخص الدنيا ﴿ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴾ أي: نقول له من ناحيتنا قولاً معروفاً، طيباً وجميلاً، فينتفع به. لأن القول اليسر، يتحقق به الخير والنفع. خاصة من رجل صالح تحقق له من الله تعالى التمكين، فسيكون لمن آمن خيراً كثيراً. وبذلك لن يتعامل معه بما يشق عليه، وما يكون فيه عسر وشدة، لتطيب حياته في الدنيا والآخرة. وفي هذا صورة للحاكم الصالح العادل، فيعامل الفاسدين بما يردعهم، ويعامل أهل الصلاح بما يقويهم، ويشجع غيرهم، ويرغبهم في الصلاح.

ثم يخبر الله تعالى باتجاه ذي القرنين نحو مشرق الشمس ﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴾ أي اتخذ الأسباب التي يذهب بها نحو المشرق. وفي هذا بيان بأن الله تعالى هيأ له من الأسباب ما يتمكن بها من مباشرة التمكين في الأرض، فأخذ بالأسباب التي منحها وسخرها الله تعالى له، ليتحقق له بها ما يتمكن به على مراده وهو في اتجاهه نحو المشرق. قال ابن كثير رحمه الله تعالى: ثم سلك طريقاً، فسار من مغرب الشمس إلى مطلعها، وكان كلما مَرَّ بأمة قهرهم وغلبهم، ودعاهم إلى الله عَزَّ وجل، فإن أطاعوه وإلا أذلهم، وأرغم آنافهم، واستباح أموالهم وأمتعتهم، واستخدم من كل أمة ما تستعين به جيوشه على قتال الأقاليم المتاخم لهم[٢] حتى بلغ مطلع الشمس ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴾ فلما بلغ ذو القرنين مشرق الأرض، من المكان الذي تشرق الشمس فيه على الأرض وجد أمة ليس لهم مساكن يسكنونها غير ما يُوجد من كهوف وأسراب وغيران، يتخذونها مأوى لهم، مما يدل على أنهم أهل جهل بالمدنية تماماً، فلا يعرفون البناء. قال قتادة رحمه الله تعالى: ذُكِر لنا: أنهم كانوا في مكان لا يستقر عليه البناء، وأنهم يكونون في أسراب لهم، حتى إذا زالت عنهم الشمس خرجوا إلى معايشهم وحروثهم[٣] وقد يكون النهار أطول من الليل عندهم حتى لا تكاد الشمس

(١)الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٣٧٩/١٥)

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١٠٨/٣)

(٣)الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٣٨٢/١٥)

تغيب عنهم إلا زمناً يسيرا. ولم يكن لهم ستراً من الشمس. مما يفيد ويبين أهمية العلم، وأنه نعمة عظيمة من الله تعالى على العباد، إذ يتمكنون بما وهبهم الله تعالى من العلم على البناء والتطوير، وكذلك نعمة استقرار الأرض، وكذلك نعمة توازن الليل والنهار، إذ لو كانت الشمس لا تغيب إلا قليلا لتعب الناس كثيراً، ولما استقامت نعمة الحياة عليهم، وكذلك لو كان الليل هو الأطول في يومهم لحصل لهم ما لا يبلغون به طلب المعاش الذي تستقيم به حياتهم. ليكون في قصص ذي القرنين مقاصد للعبرة والموعظة، وإدراك النعمة التي يعيشها من أنعم الله تعالى عليهم بنعمة توازن الليل والنهار، ويدركون عظمة تدبير الله تعالى، وتهيئته الدنيا للإنسان بما يتناسب مع طبيعته التي خلقه الله تعالى عليها.

ومن دقائق وفوائد البيان أن قوله تعالى ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطۡلِعَ ٱلشَّمۡسِ ﴾ أفادت الرجوع من مطرحه بعد أن بلغ مغرب الشمس، فَكَرَّ راجعاً، بما يفيد بلوغ الغاية، وإدراك المقصد، الذي هو مطلع الشمس. فعندما وصل ذو القرنين إلى ناحية أقصى مكان لشروق الشمس، رِكَّز البيان على حال القوم وهيئتهم الملفتة للنظر والفكر، والتي تشد الانتباه ﴿ وَجَدَهَا تَطۡلُعُ عَلَىٰ قَوۡمٖ لَّمۡ نَجۡعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتۡرٗا ﴾ بينما عندما بلغ مغرب الشمس تَرَكَّز البيان على هيئة غروب الشمس، لأنها هي الأظهر عبرة وصورة وهيئة ﴿ وَجَدَهَا تَغۡرُبُ فِي عَيۡنٍ حَمِئَةٖ ﴾ ثم ذكر القوم الذين في المشرق ﴿ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوۡمٗا ﴾ مما يدل على قوة السياق في التركيز على إظهار قوة المحور الأكثر مراداً، والذي تحصل به الموعظة والمقصد. وتقديمه على غيره. وهذه تعلم الإنسان براعة التحرير، وبراعة الخطاب، وترتيب الكلام بحسب مقاصده، بحيث يشد ذهن المستمع أو القارئ إلى المراد الفعلي.

ومن دقائق البيان أن كلمة ﴿ سِتۡرٗا ﴾ من قوله تعالى ﴿ لَّمۡ نَجۡعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتۡرٗا ﴾ أفادت العموم، لتشمل ستر الأبنية من البيوت ونحوها، وكذلك تشمل الستر بالملابس التي تحميهم من الشمس، سواء ستراً كلياً، أو جزئياً. وأيضاً نسب الله تعالى ذلك الأمر له عَزَّ وجل ﴿ لَّمۡ نَجۡعَل لَّهُم ﴾ فالذي لم يجعل لهم من دونها ستراً هو الله سبحانه وتعالى، فهو المتصرف في الكون، ليدرك الْمُخَاطب نعمة ما ستره الله تعالى به عن الشمس، فليس هو الذي ستر نفسه، بل إن الله تعالى هو الذي علمه وألهمه، وهو الذي سخر له أسباب اتخاذ الستر، ليدرك نعمة ما أنعم الله تعالى به عليه.

ثم يقول تبارك وتعالى عن شمول علمه جَلَّ جلاله، فيما يخص ذي القرنين ﴿ كَذَٰلِكَ وَقَدۡ أَحَطۡنَا بِمَا لَدَيۡهِ خُبۡرٗا ﴾ وكذلك قد أحاط علمنا بما عنده من الأسباب في كل وقت وحين، وبما يكون من ذي القرنين، وكذلك ما يكون من الأمم التي يمر بها، وكيف يتعامل معهم، فلم يكن في منأى عن علمنا وأحاطتنا به، وبما يكون من شأنه وتدبيره. وفي هذا تنويه وتنبيه من الله تعالى لعباده بأنه لا يغيب عنه عَزَّ وجل شيء من تدبير العباد،

فإنه على كثرة وتنوع ما أُعْطِيَ ذي القرنين من القوة، ومن الجيوش، ومن الضرب في الأرض، إلا أن الله سبحانه وتعالى قد أحاط بدقائق شؤنه كلها، فلا يغيب عنه شيء أبداً.

ومن جماليات ودقائق البيان وفوائده العظيمة أنه أكد كمال الإحاطة تبارك وتعالى بحرف ﴿وَقَدْ﴾ التي أفادت التأكيد على كمال الإحاطة، كما أن كلمة ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أفادت وأعطت كمال التمكين وكمال الإحاطة، فكما بَلَّغنَا ومكنّا ذي القرنين بقدرتنا وإرادتنا من مشارق الأرض ومغاربها، كذلك بلغ علمنا بدقائق جميع ما كان منه وما يكون. ليفيد كمال الاطلاع، وكذلك ما يكون من التدبير والحساب والجزاء. كما أن كلمة ﴿أَحَطْنَا﴾ تعطي كمال الاستيفاء للعلم، وكمال القدرة، مع بيان عظمتها، وهيبة الإحاطة وجلالتها، وما يتبعها وما يترتب عليها من المحاسبة والجزاء. ليدرك المؤمن الإدراك التام لمعية الله تعالى علماً ورصداً وتدبيراً، وقضاء وحكماً وجزاء، فليكن تعامل المؤمن وسيره مُحاط بالاعتقاد الجازم أن الله تعالى يراه ويسمعه، فلا يخفى من شأنه خافية عليه سبحانه وتعالى أبداً، وفي حصول هذا الإدراك الجازم ما يضبط سير المؤمن في السر والعلانية ﴿وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا﴾ أحاط بما لدى ذي القرنين علماً لا يعزب عنه منه شيء أبداً، فكل ما يكون من شأن ذي القرنين في نفسه ومع غيره قد أحاط الله به سبحانه وتعالى ﴿خُبْرًا﴾ أي علماً. وتوضح وتبين دلالتها أنها تستوفي العلم بالظاهر والباطن، أي: ما ظهر منها، وما خفي واستتر، فلا ينحجب عنه شيء أبداً سبحانه وتعالى من بواطن وظواهر الأشياء والأمور والحوادث، فهو سبحانه وتعالى عالم بأخبار الأعمال، وبواطن الأمور، والتي منها ما يخص ذي القرنين. وكذلك تبين كلمة ﴿خُبْرًا﴾ أن جميع الأخبار، على كثرتها وتنوعها، محاطة بالعلم والقدرة، فلا يُشغله سبحانه وتعالى خبر عن خبر، ولا حدث عن حدث، فجميع الأحداث التي تحدث في لحظة واحدة، هي عند الله تعالى بمنزلة الخبر الواحد، لكمال الإحاطة وعظمة القدرة له تبارك وتعالى. فسبحان من أعجز بعظيم قدرته وبيانه عباده. ثم ينتقل السياق الكريم إلى الإعلام والإخبار بحدث ثالث، ونوع آخر من عظيم القدرة والتمكين لعبده الصالح ذي القرنين.

﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا
﴿٩٣﴾ قَالُواْ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا
﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ

بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُواْۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّيۖ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿٩٨﴾ ﴾

انتقل السياق الكريم إلى الإخبار بالحدث الثالث، الذي يحمل نوعاً آخر من عظيم القدرة والتمكين لعبده الصالح ذي القرنين، فقال تبارك وتعالى ﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴾ أي فبعد أن بلغ مغرب الشمس ومطلعها اتخذ الأسباب التي يذهب بها بين المشرق والمغرب، وذلك في طريق ثالث بينهما. وفي هذا بيان بأن الله تعالى هيأ له من الأسباب ما يتمكن بها من مباشرة التمكين في الأرض، سواء من القوة الجسمية، أو العقلية والفكرية، أو القدرة على التنقل، وقد ذكر الإمام ابن كثير أنه عاش طويلاً: ذُكِر في أخبار بني إسرائيل أنه عاش ألفاً وستمائة سنة يجوب الأرض[١] فأخذ بالأسباب التي منحها وسخرها الله تعالى له، ليتحقق بتلك الأسباب ما يتمكن به على ما مكنه الله تعالى منه.

ثم يخبر الله تعالى بما واجه وقابل ذو القرنين وهو في اتجاهه الذي توجه إليه بين المشرق والمغرب، سواء جهة الشمال أو جهة الجنوب ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴾

فسار ذو القرنين حتى وصل إلى جبلين عظيمين ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ ﴾ أي: جبلان مرتفعان إلى أعلى، كما قال وهب بن منبه رحمه الله تعالى: هما جبلان مُنِيفان في السماء، من ورائهم البحر، ومن أمامهما البلدان. وهما بمنقطع أرض الترك، مما يلي بلاد أرمينية، وروى عطاء الخراساني عن ابن عباس، قال الجبلان من قِبَل أرمينية وأذربيجان[٢] ومن فوائد الألفاظ أن السَّد والسُّد جميعاً: الحاجزين بين الشيئين[٣] قال ابن الأعرابي رحمه الله تعالى: كل ما قابلك فَسَدَّ ما وراءه فهو: سَدٌّ، وسُدٌّ، نحو الضَّعف والضُّعف، والفَقر والفُقر. وقال الكسائي، وثعلب: السَّد والسُّد لغتان بمعنى واحد، وهذا مذهب الزجاج[٤] وكذلك من جميل السياق أن بدأ البيان بحرف ﴿ حَتَّىٰٓ ﴾ الذي اكتملت دلالته بما بعده ﴿ إِذَا بَلَغَ ﴾ والذي أفاد بلوغ الغاية، وإدراك المقصد، الذي هو مكان السدين. فعندما وصل ذو القرنين إلى ناحية أقصى مكان للجهة الشمالية، وجد من دون السدين قوماً.

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١٠٨/٣)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٣٢/٥)

(٣) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٣٨٦/١٥)

(٤) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٣٢/٥)

فلما بلغ أقصى الشمال ﴿ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴾ وجد ذو القرنين أمة دون السد ﴿ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا ﴾ أي أمام الجبلين، في بدايته، قال ابن الجوزي: يعني أمام السد[١] وقيل خلفه، والأصوب أمامه، أي قبله، وبعدهم السد. ثم بين الله تبارك وتعالى صفتهم أنهم ﴿ قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴾ لا يعرفون لساناً غير لسانهم، وبالتالي لا يفهمون غير قولهم، أي لغتهم التي يتكلمون بها، وبالتالي لا يفهمون كلام غيرهم، غير لغة أنفسهم. مما يدل عن انقطاعهم عن غيرهم، فليس لهم صلة تجارية ولا معرفية مع غيرهم.

ثم ذكر سبحانه وتعالى مطلبهم وحاجتهم التي يتمنون من ذي القرنين أن يقضيها لهم ﴿ قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴾ فقد طلبوا من ذي القرنين أن يبني لهم حاجزاً يمنع عنهم فساد قبيلتي يأجوج ومأجوج، مما يدل على أهمية الأمن للمجتمع، ممن يخافون شره، وأن من اتصف بالشر من الفساد وغيره، فإن الناس في خوف وقلق منه، وأن الأمن نعمة عظيمة من الله تعالى، وأن صاحب الشر مصدر خوف وإزعاج لغيره. فقال هؤلاء القوم الذين لا يكادون يفقهو قولاً ﴿ قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ ﴾ مخاطبين الملك الصالح ذي القرنين بياء النداء الذي يفيد سياقه الاستجداء، بالعون والمساعدة لهم ﴿ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ فكانت فحوى الاستجداء والانتصار منحصرة ومتعلقة بقبيلتين: قبيلة ﴿ يَأْجُوجَ ﴾ وقبيلة ﴿ وَمَأْجُوجَ ﴾ ووصفوهما بصفة واحدة ﴿ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أي يسعون بعموم الفساد في الناس، بالظلم والقهر والقتل، وغير ذلك من أنواع الفساد، فلم يحصروه في نوع معين، والفاسد لا يتورع عن أنواعه. وفي استجدائهم بذي القرنين ما يدل على أنهم وجدوا فيه الخير، واستبشروا به خيراً، ويدل في مخاطبتهم له أن الله تعالى قد أعطى ذي القرنين من اللغة والفهم ما يتمكن به في الأرض، فيخاطب القبائل والأمم التي في الأرض بلغتهم، حتى يفهمونه، ويُفهمهم دين الله تعالى. كما يدل الاستجداء منهم به، أنه دار بينهم وبين ذي القرنين حديث، وفهموا منه الدين، وقبلوه، ولذلك انتصروا به على قبيلتي يأجوج ومأجوج. كما دلت رغبتهم في بناء السد أنهم في معاناة وخوف شديد من يأجوج ومأجوج، ومن مناكفتها لهم، ولو لم يكن منهم أذى لما طلبوا بناء السد.

ثم انتقلوا بعد بيان حال قبيلتي يأجوج ومأجوج من الإفساد في الأرض إلى بيان الحل الاحترازي والمانع منهم ومن أذاهم وفسادهم، وهو بناء سد يحجز يأجوج ومأجوج عنهم، فيمتنعوا بهذا السد من شرهم، ومن

(١) المرجع السابق (١٣٣/٥)

أن يفسدوا عليهم حياتهم ومعيشتهم، وبدأوا طلبهم بعرض المال على ذي القرنين ﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا﴾ فأوردوا طلبهم بصيغة السؤال تلطفاً، وتأدباً مع منزلته وقوته وصلاحه، فهل نفرض لك ﴿خَرْجًا﴾ أي: مالاً. قال الإمام ابن جرير: والخراج عند العرب هو الغلَّةُ[١] والمعنى الذي قاله المفسرون: هل نُخرج إليك من أموالنا شيئاً كالجُعل لك[٢] ومن فوائد البيان: أن الخرج: ما تبرعت به، والخراج: ما لزمك أداؤه[٣] وهذا الخرج هو مقابل بناء السد ﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾ فتجعل بيننا وبين يأجوج ومأجوج حاجزاً يحجز بيننا وبينهم، ويمنعهم من الخروج علينا بهذا السد الذي نطلب منك تشييده وبناءه. مما يدل على أنهم رأوا في ذي القرنين وأعوانه وجيشه من القوة ما يمكنهم من بناء هذا السد الذي يفكرون فيه، مع عجزهم على تشييده وبنائه.

وقد رَدَّ عليهم ذو القرنين بما بينه سبحانه وتعالى ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ فقد أعاد فضل التمكين لله تعالى الذي مكَّنَه مما هو فيه وعليه من القدرة والتمكين، فتجرد من الحول والقوة، مع بيان أن فضل الله تعالى عليه خير له مما سيعطونه من المال، ولم يُباشر طلبهم بالموافقة، مما يدل على اعتماده على الأسباب التي عنده، بل ربطها بما مكنه الله تعالى ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾ فبين لهم أن الذي أعطاه التمكين والقدرة هو الله تعالى، وهو ﴿خَيْرٌ﴾ مما يعطونه، بما يفيد خير من الجُعل أو الخرج الذي ستجعلونه لي مقابل بناء الحاجز. وفي هذا أدب كريم من ذي القرنين، إذ لم يصرح لهم برد عطائهم، ولكن أشار لهم بذلك، كأن يقول مثلاً: ما أعطاني ربي خير مما ستعطونني. بل جعل السياق من دون إظهار المقارنة ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾ فبين التفضيل الذي يوضح لهم استغناءه بما أعطاه ومكَّنَهُ الله سبحانه وتعالى. وفيه من الفوائد كذلك: مساعدة الغير والاستغناء عما في أيديهم ما أمكن، وأن من كان غنياً فليستعفف، ولا يستكثر ويطمع فيما عند غيره، بل يصنع المعروف لهم من غير مقابل.

ولكن طلب معونتهم في البناء ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾ أي أمِدُّوني بالصناع والبناؤون الذين يُحسنون العمل والبناء. مما يفيد أهمية الإعانة، بتكاتف الجهود لإنجاز الأعمال وإتمامها، وكذلك أهمية القوة، حيث وصف

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٤٠٢/١٥)
(٢) المرجع السابق (١٣٤/٥)
(٣) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٣٤/٥)

إعانتهم له أن تكون بقوة ونشاط ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾ من حيث الأداء القوي، والمثابرة على العمل، وتقديم الخبرة، والنشاط، ومن حيث الدعم، والجودة في التشييد، وعدم التراخي والتكاسل في الأداء، مما يبين أهمية هذين العنصرين في الإنجاز، وهما: الإعانة ﴿فَأَعِينُونِي﴾ بالتعاون والتكاتف، والعنصر الثاني: القوة ﴿بِقُوَّةٍ﴾ وتشتمل القوة على الجدية، والخبرة، والصبر والمثابرة على لإنجاز في الأعمال، فإنهما قوتان مهمتان بعد توفيق الله تعالى.

مما يفيد أهمية التوجيه للعاملين والمشاركين، وأهمية تعيين المراد منهم جملة وتفصيلا. وقد جمع البيان تفاصيل الإعانة في كلمة واحدة ﴿فَأَعِينُونِي﴾ لتشمل جميع ما يستطيعوا أن يقدموه من غير تفنيد، لتفيد التعميم. وكذلك جمع البيان تفاصيل القوة في كلمة واحدة ﴿بِقُوَّةٍ﴾ لتستوفي تفاصيلها، وجميع أنواع مفرداتها، مما هو في مقدورهم من غير تراخي ولا تهاون، وهما أقوى عناصر الإنجاز في تحقيق الأهداف.

وبمساعدتكم القوية، وبجهودنا جميعاً سوف ﴿أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ وبتظافر الجهود المتصفة بالعزيمة والإرادة القوية أجعل بينكم وبينهم ﴿رَدْمًا﴾ أي حاجزاً، وهو أفضل مما طلبوا، حيث طلبوا سداً، والرَّدم أقوى من السد، لأن الرَّدم هو الذي يكون بعضه فوق بعض، أي: يكون أطباقاً متتالية بعضها فوق بعض، حتى تجمع بين القوة في المحتوى وبين الشدة في المتانة، فتكون قوية ومتينة وعريضة، لتتناسب مع الطول والارتفاع الذي لا يتحمله إلا الرَّدم. قال الزجاج رحمه الله تعالى: والرَّدم في اللغة أكبر من السد، لأن الرَّدم: ما يُجعل بعضه على بعض[١] قال الهروي رحمه الله تعالى: يُقال ردمت الثلمة أردِمها بالكسر ردماً، أي: سدتها[٢] مما يدل على عظيم فهم ذي القرنين، وقوة إرادته، وتمكنه من الذي مكنه الله تعالى منه، كما يفيد هذا أهمية النصح، وأهمية اختيار الأفضل والأحسن، وأن يشير الإنسان على غيره بما هو أفضل وأحسن وأجدى لمطلبه ومراده وحاجته، ثم تحقيقه على أحسن حال، وأكمل وجه. وأن يسعى إلى تحقيق الجودة في العمل، وفي نوعه، وفي النصح، والرأي. فهي قواعد مهمة في الإدارة، وفي العلاقات المهنية والتعاونية بين الناس. وألا تكون النظرة قاصرة على المردود المالي والربحي، بل لما يجده عند الله تعالى بما يقدمه لغيره، لأن الله تعالى لا يُضيع أجر العاملين والمحسنين.

ثم يخبر الله تعالى بشروع ذي القرنين في تشييد الرَّدم الذي توافق معهم عليه، فطلب ذو القرنين منهم أن يُعطوه ما يحتاجه لبناء هذا الردم ﴿ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٣٤/٥)

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٤٠/١١)

﴿جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفۡرِغۡ عَلَيۡهِ قِطۡرًا﴾ فبدأهم بما يجب عليهم أن يزوده به ﴿ءَاتُونِي﴾ والتي تحمل معاني: العطاء، والإتيان، والحمل، والتوصيل، والحمل، فأعطوني، وآتوني وجيئوني. فاستوعب اختيار اللفظة تلك المعاني التي تستوفي ما طلبه منهم. فاحملوا إليَّ ﴿زُبَرَ ٱلۡحَدِيدِ﴾ وهو قطع الحديد، لأن كلمة ﴿زُبَرَ﴾ تعني القِطَع، والزُّبرةُ، أي: القطعة من الحديد. وذكر الإمام القرطبي رحمه الله تعالى عن ﴿زُبَرَ ٱلۡحَدِيدِ﴾ قطع الحديد، وأصل الكلمة الاجتماع، ومنه زُبْرَة الأسد، لما اجتمع من الشعر على كاهله. وذكر كذلك أنها القطعة العظيمة منه[١] مما يدل على أنه كَوَّن منها وشَكَّل قطعاً كبيرة وقوية من الحديد، ليدُلَّ على جودة البناء، الذي ستكون مكوناته هي أقوى المكونات، وهي الحديد، إضافة إلى حجمها الكبير، والقوي، الذي يصعب هدمه أو نخره، مما يفيد أهمية اختيار مكونات الشيء، واهمية التصميم، والابتكار، والتفكير، والجد والعمل، وأن يكون الإنجاز ذا جودة عالية. وأن يكون من أحسن وأفضل الموجود من حيث المكونات والأداء والإنتاج المقدور عليه. وهذا يبين علة قوله ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾ لما سيترتب على تلك المعونة أو الإعانة من جودة الأداء، التي احتاجت إلى قوة في الأداء. وكذلك فيه أهمية العلم، وأن الله تعالى قد وهب ذي القرنين علماً وفهماً وحكمة، فليطلبها المسلم من الله تعالى واهب النِّعَم.

وقد أثبتت الآية الكريمة أنهم قاموا بما طُلِب منهم على أكمل وجه، حيث أن الآية الكريمة انتقلت مباشرة إلى إنجازه، وتسويته لما بين الجبلين بالبناء، فساوى بينهما بِزُبَر الحديد ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيۡنَ ٱلصَّدَفَيۡنِ﴾ قال الإمام الطبري رحمه الله تعالى: فآتوه زُبَرَ الحديد، فجعلها بين الصدفين، حتى ساوى بين الجبلين بما جعله بينهما من زُبَرِ الحديد[٢] قال أبو عبيدة رحمه الله تعالى عن قوله عَزَّ وجل ﴿بَيۡنَ ٱلصَّدَفَيۡنِ﴾ هما جانبا الجبل، وسُمِّيا بذلك لتصادفهما، أي لتلاقيهما. وقال القرطبي رحمه الله تعالى: ويقال للبناء المرتفع صدف، تشبيهاً بجانب الجبل[٣] أي: إذا تقابلا الاثنان من الناس، يقول: صادفني فلان، أي: قابلني، وصادفته قابلته. وهذا عمل وإنجاز ضخم وكبير وعظيم بين جبلين.

---

(١) المرجع السابق (٤١/١١)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٤٠٦/١٥)

(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٤١/١١)

ثم شرع في المرحلة الأخرى من التشييد والتقوية للبناء ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُواْ ﴾ أي: أَجَج عليه النار، حتى صار كله ناراً[١] فطلب منهم أن يوقدوا عليه النار، والنفخ بالمنافيخ، حتى يصخن ويَحْمَى الحديد، ويلتصق بعضه ببعض، مما يدل على أنه قد سبق عملية البناء والتشييد تجهيز الآلات التي هي المنافيخ، وكذلك ما يرفعون عليه الحديد، وما ينقلون عليه ما صنعوه من الحديد، فيكون قد علمهم صناعة عظيمة تدفعهم لاستثارها في شؤونهم وتقدمهم، مما يفيد أن التطوير يأتي بعد توفيق الله تعالى بالتفكير والعلم والتعلم والتطبيق، وطلب الجودة في الإنتاج والتحصيل.

ثم شرع في المرحلة التالية: بأن جعله ناراً ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴾ قال الإمام القرطبي رحمه الله تعالى: ثم يُؤتى بالنحاس المذاب، أو بالرصاص، أو بالحديد بحسب الخلاف في القطر، فيفرغه على تلك الطاقة المنضدة، فإذا التأم واشتد، ولصق البعض بالبعض استأنف وضع طاقة أخرى، إلى أن استوى العمل، فصار جبلاً صلداً. قال قتادة هو: كالبُرْد الْمُحَبَّر، طريقة حمراء، وطريقة سوداء[٢] فالمرحلة التي تلت إيقاد النار هي إفراغ القطر، وهو النحاس المذاب ﴿ قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة والضحاك وقتادة، والسدي: هو النحاس، وزاد بعضهم المذاب[٣] ليصبح أكثر تماسكاً، وأقوى في مقاومة الصَّدَأ، حتى لا يصدأ الحديد نتيجة الأمطار التي تَحُطُّ عليه من أعلاه، والسيول من تحته، فلم يكن عملاً مؤقتاً، بل عملاً متقناً يواكب تعاقب الأجيال. كما أن في صب القطران عليه ما يجعله أملس لا يستطيع أحدٌ أن يتسلق هذا الرَّدم، أو السد فيرتقي عليه من الناس، كيأجوج ومأجوج. مما يفيد أهمية إتقان العمل، حتى يتجاوز الانتفاع به لمن بعدهم من الأجيال، فيكسب ويربح به الأجر المتعاقب الذي لا ينقطع. وهذا يأتي خاصة من القلوب المؤمنة التي تحب الصدق في كل شيء، والأمانة في كل عمل، ومراقبة الله تعالى في الأداء، ورجاء ثواب الله عَزَّ وجل.

ثم يخبر الله تعالى بنتيجة ذلك العمل الجبار، وأثره على يأجوج ومأجوج ﴿ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا ﴾ أي: أن يأجوج ومأجوج لم يتمكنوا من تسلقه والصعود عليه، لعلو ارتفاعه وملاسته، فقد كان مع علوه وارتفاعه أملس، لعلة ما صَبَّه عليه من النحاس ﴿ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ ﴾ فما استطاعت يأجوج ومأجوج أن تعلوا وترقى عليه، لأنه أملس بما صَبَّ عليه من النحاس، وكذلك لعلو ارتفاعه الشاهق،

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١١٠/٣)
(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٤٢/١١)
(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١١٠/٣)

ومعنى كلمة ﴿ يَظْهَرُوهُ ﴾ أي يعلوا عليه، نقول ظهر الرجل فوق البيت أي علاه وارتقى عليه. وكذلك صَعُبَ وشَقَّ عليهم أن ينقبوه من أسفله بحفره ﴿ وَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا ﴾ والنقب هو الحفر في الشيء. فما استطاعوا لصلابته ومتانته أن يحفروا فيه نفقاً للعبور، والمرور من أسفله.

ومن دقائق البيان أنه أظهر وصوَّر عجز يأجوج ومأجوج بنفي قدرتهم بجملتين معطوفة الثانية على الأولى، دون أن يُجمَع نفي الحالتين في جملة واحدة، للدلالة على التغاير بينهما في قوة عجزهم، وتدرجه البياني، فالأولى وردت بلفظ ﴿ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ ﴾ ووردت الثانية بلفظ ﴿ وَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ ﴾ والفرق بينهما حذف حرف التاء من الأولى وإبقاء التاء في الثانية، مع أن كلا الكلمتين بمعنى واحد، وهو نفي الاستطاعة، فحذف التاء للتخفيف. قال الشوكاني رحمه الله تعالى عن ﴿ ٱسْطَٰعُوٓاْ ﴾ أن أصلها استطاعوا، فلما اجتمع المتقاربان، وهما التاء والطاء خففوا بالحذف[١] وقال القرطبي رحمه الله تعالى: قيل: هي لغة، بمعنى استطاعوا، وقيل بل استطاعوا بعينه كَثُر في كلام العرب، حتى حذف بعظهم منه التاء، فقالوا: اسطاعوا[٢] فما أنهما بمعنى واحد، فيكون إيرادهما بصورتيهما هو لبيان بلاغي، ودلالة دقيقة، وهي أن ﴿ ٱسْطَٰعُوٓاْ ﴾ وردت مع الظهور ﴿ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ ﴾ وهو الارتقاء فوق السد أو الرَّدم، بينما ﴿ وَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ ﴾ وردت مع النقب ﴿ وَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا ﴾ الذي هو الحفر، ولأن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى، فيكون في عملية النقب التي هي الحفر زيادة في تحصيلها وفي القيام بها، فتقابل زيادة المبنى زيادة المشقة، على أن صعوبة الحفر بالنقب في السد أشد صعوبة من تسلقه والظهور عليه، فيحتاجون إلى آلات وجهد كبير، وزمن طويل ليحفروا نفقاً فيه، فما استطاعوا على الصعب بالتسلق، ولا استطاعوا على الأصعب بالحفر فيه. فيكون قد قابل الحالة الأولى بما يناسبها، وقابل الثانية بما يناسبها من زيادة الصعوبة والمشقة. مما يدل على براعة البيان البلاغي في القرآن، وإعجازه حتى في أدق ألفاظه وعباراته، كما يدل هذا البناء العظيم على قوة التحدي لهم، وذلك للقوة المانعة التي تواجهها قبيلتي: يأجوج ومأجوج، كما يبين ذلك أن من وفقه الله تعالى هيأ له أسباب المنعة والأمن والطمأنينة، وجعل العجز في عدوه مهما كان ظاهراً عليه. كما يدل على أن مصدر العلم من الله تعالى. وأن العلم والعمل الجاد هو أساس النجاح والنصر بعد توفيق الله تعالى.

وهنا نسب ذو القرنين ما تم إنجازه من هذا العمل العظيم لله تعالى، ووصفه بالرحمة، لما يترتب عليه من الخير لهؤلاء القوم ﴿ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي ۖ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴾ فهذا الرَّدم

(١) الشوكاني، فتح القدير (٣/٣١٣)

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١١/٤٢-٤٣)

الذي أصبح سداً مانعاً، ونعمة يندفع بها شر المؤذين الفاسدين هو رحمة من الله تعالى على أهل هذه البلدة الذين قبلوا بالإسلام ديناً، وهنا تجرد من الحول والقوة، ونسبها إلى الله سبحانه وتعالى، ولم يفاخر بما أنجز من هذا الصرح القوي في قوته، وفي هيأته، ومنعته. مما يفيد أن من أطاع الله تعالى هيأ له أسباب الخير، وأسباب النجاة والنصر، والمنعة. وكذلك هيأ له التمكين في الأرض الذي أدرك به أن هذا البناء من الرَّدم هو رحمة من الله تعالى على الناس، والتي من مفردات هذه الرحمة دلالتهم على الخير من الإيمان، وقطع دابر الكافرين الصادين عن دين الله تعالى.

ثم ذكر ذو القرنين حال انهيار هذا السد العظيم عندما يأتي وعد الله تعالى ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَۖ وَكَانَ وَعۡدُ رَبِّي حَقّٗا ﴾ فحين يأتي وعد الله تعالى الذي حدده لخروج يأجوج ومأجوج فإنه يجعل الرَّدم الذي هو السد متهدماً، مستوياً بالأرض، فسوف ينهار هذا السد الذي أُتقِن وأُحكِم بناؤه، فيصبح أمام إرادة الله تعالى ﴿ دَكَّآءَ ﴾ أي: مدكوكاً ومتهشماً، ومستويا بالأرض. قال الزمخشري رحمه الله تعالى: وكل ما انبسط من بعد ارتفاع فقد اندك[1] ثم أثبت ذو القرنين تأكيده بما وعد الله تعالى به ﴿ وَكَانَ وَعۡدُ رَبِّي حَقّٗا ﴾ فإن ما وعد الله سبحانه وتعالى به كائن لا محالة، فوعده جَلَّ في علاه حق كائن لا محالة، بل عَبَّر عنه بالفعل الماضي ﴿ وَكَانَ ﴾ وهو في حقيقته للمستقبل، والذي أفاد الجزم بالوقوع، وكأنه وقع، بما يفيد الجزم بالتحقق، وفي هذا البيان تعميم لكل ما وعد الله تعالى به، سواء ما يخص يأجوج ومأجوج، أو يوم القيامة، أو انهيار السد، أو غير ذلك مما ووعد به عَزَّ وجل، ليؤكد ويبين الإيمان بالغيب، وإيمانه وتصديقه بما سيكون من الله تعالى قبل أن يكون، ليعطي درساً في الإيمان، والتصديق بما وعد الله تعالى به، وأنه كائن لا محالة.

﴿ وَتَرَكۡنَا بَعۡضَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ يَمُوجُ فِي بَعۡضٖۖ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَجَمَعۡنَٰهُمۡ جَمۡعٗا ٩٩ وَعَرَضۡنَا جَهَنَّمَ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡكَٰفِرِينَ عَرۡضًا
١٠٠ ٱلَّذِينَ كَانَتۡ أَعۡيُنُهُمۡ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكۡرِي وَكَانُواْ لَا يَسۡتَطِيعُونَ سَمۡعًا ١٠١ أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن
يَتَّخِذُواْ عِبَادِي مِن دُونِيٓ أَوۡلِيَآءَۚ إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا جَهَنَّمَ لِلۡكَٰفِرِينَ نُزُلٗا ١٠٢ قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا ١٠٣ ٱلَّذِينَ
ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا ١٠٤ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَلِقَآئِهِۦ
فَحَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَلَا نُقِيمُ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَزۡنٗا ١٠٥ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمۡ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَرُسُلِي
هُزُوًا ١٠٦ ﴾

---

(١) الزمخشري، الكشاف (٢/٧٣٠)

يخبر الله تبارك وتعالى بما يكون عليه يأجوج ومأجوج حين يأتي وعده عَزَّ وجل، فيخرجون على الناس بعد أن يَدُكَ اللهُ تبارك وتعالى الرَّدم، ويجعله مستوياً بالأرض ﴿وَتَرَكۡنَا بَعۡضَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ يَمُوجُ فِي بَعۡضٖۖ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَجَمَعۡنَٰهُمۡ جَمۡعٗا ﴾ فالضمير في ﴿بَعۡضَهُمۡ﴾ يعود إلى يأجوج ومأجوج كما قاله بعض أهل التفسير[١] فيكون المعنى لقوله تعالى ﴿وَتَرَكۡنَا بَعۡضَهُمۡ﴾ أي: وجعلنا وصيرنا قبائل يأجوج ومأجوج ﴿يَوۡمَئِذٖ﴾ أي: يوم يتهشم ويتهدم السد بقدرة الله تعالى، فيعتلجون بعضهم في بعض، ويتفرقون، وهذا المعنى باعتبار ما قبلها، لاشتماله على تهشم السد، وهو قوله تعالى ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَۖ وَكَانَ وَعۡدُ رَبِّي حَقّٗا ﴾ وكذلك بدلالة ﴿يَوۡمَئِذٖ﴾ على أساس أنها تعود إلى يوم تهدُّم الرَّدم، وكذلك بدلالة ﴿فَإِذَا﴾ التي أفادت المستقبل، فنشأت بها جملة مستقبلية، وليست متعلقة ببناء الرَّدم او السد، وكذلك باعتبار انتهاء ما قبلها الذي عَبَّر عن الفراغ من بناء السد، وهو ﴿قَالَ هَٰذَا رَحۡمَةٞ مِّن رَّبِّيۖ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَۖ وَكَانَ وَعۡدُ رَبِّي حَقّٗا ﴾ وعند ذلك يعتلج بعضهم في بعض كالموج، فيتداخل بعضهم في بعض من كثرة حركتهم الناتجة عن ذهولهم من تهشم السد، الذي هو الرَّدم، وخروجهم إلى الناس، ويكون ما بعدها متعلق بانهدام الرَّدم واستوائه بالأرض.

ويأتي المعنى كذلك يوم الانتهاء من بناء السد، الذي أذهلهم بقوته وارتفاعه، وسد عليهم الخروج، حتى أخذ بعضهم يموج في بعض، وهذا باعتبار أن كلمة ﴿يَوۡمَئِذٖ﴾ متعلقة بالانتهاء من بناء الرَّدم، فأفادت أنه وقت كمال بناء السد يموج بعضهم في بعض، لما أصابهم من الذهول والفزع والخوف مما سُدَّ به عليهم. وكذلك يأتي بمعنى أن الخلائق عموماً يموج بعضهم في بعض، وذلك باعتبار أن الضمير في ﴿بَعۡضَهُمۡ﴾ يعود إلى الخلائق، وأن الجمع في قوله عَزَّ وجل ﴿فَجَمَعۡنَٰهُمۡ جَمۡعٗا﴾ يعود إلى الخلائق من الجن والإنس ﴿فَجَمَعۡنَٰهُمۡ جَمۡعٗا﴾ وهو جمعهم بعد تفرقهم وتشتتهم في الأرض، فيجمعهم تبارك وتعالى في صعيد واحد ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَجَمَعۡنَٰهُمۡ جَمۡعٗا﴾ والجمع يكون بعد التَّفَرُّق. وهذه الدلالات تبين وتوضح الإعجاز البياني الذي استوفى تلك المعاني والدلالات الثلاثة في سياق ليس فيه تكرار، ولا تضاد ولا تضارب بين الدلالات. فجميع تلك الحالات حادثة لهم.

وقد ذكر أهل التفسير الأقوال الثلاثة في معناها، والتي لخصها الإمام ابن الجوزي، رحمه الله تعالى في أن: أحدهما: يوم انقضى أمر السد، تُرِكُوا يموج بعضهم في بعض من ورائه، مختلطين لكثرتهم. والثاني: يوم يخرجون

(١) الشوكاني، فتح القدير (٣/٣١٥) السعدي، تيسير الكريم الرحمن (٣/١٨٥)

من السد، تُرِكُوا يموج بعضهم في بعض. والثالث: أنهم جميع الخلائق: الجن والإنس، يموجون حيارى، فعلى هذين القولين يكون المراد باليوم المذكور يوم القيامة[١]

وذكر الشوكاني رحمه الله تعالى مثل ذلك: أن الضمير في ﴿بَعْضَهُمْ﴾ ليأجوج ومأجوج يوم مجيء الوعد فيختلطون، فيكون الوعد، هو وعد خروجهم وانتشارهم في الأرض، عندما يجعل الله تعالى السد دكا. وقيل الضمير للخلق، وأن اليوم هو يوم القيامة. أي: وجعلنا الخلق من الجن والإنس يموجون في بعض. وقيل المعنى: تركنا يأجوج ومأجوج يوم كمال السد وتمام عمارته يموج بعضهم في بعض[٢] لذهولهم من هذا الحاجز العظيم الذي يمتنع عليهم به ما يريدون من الإفساد في الأرض، مع قوته وضخامته الهائلة. فيكون التوجيه لدلالة الآية الكريمة أنه وفق السياق: فإن الأمر متعلق بيأجوج ومأجوج، ومع إضافة اعتبار تمام بناء السد، يكون التماوج يوم كمال السد. وباعتبار يأجوج ومأجوج، مع إضافته تهدم السد ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ يكون ذلك يوم الوعد الذي يخرجون فيه بعدما يندك السد دكاً، فيصبح مستوياً مع الأرض، فَيُترَكون وهم يموجون في بعضهم البعض، وباعتبار أهوال يوم القيامة يكون حال الجن والإنس عموماً، وهم من ضمنهم. فهي هيئة قد جمعت أحوال متعددة. وهذا من غزارة الأوجه الدلالية في القرآن الكريم. فلا يمنع من وقوع الذهول يوم اكتمال السد، مما رأوا من عجائبه وقوته، وما أصابهم به من الحبس، وكذلك يكون حالهم عندما يندك بأمر الله تعالى، فيضطربون للخروج إلى الناس، والفكاك مما كانوا فيه. ويكون كذلك عاماً للناس يوم القيامة.

ويبين قوله تعالى ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ حالة الاضطراب من الاختلاط المصاحب للفزع. أي: يختلط بعضهم ببعض، وهم في حالة اضطراب. فالموج يعني القوة، ويعني سرعة التدافع، ووقوعه مع سرعته، فيكون الاختلاط مصحوباً بالاضطراب، فنقول ماج الناس: إذا دخل بعضهم في بعض على وجه الاضطراب، فكانوا حيارى من هول ما شاهدوا، ومن الحال التي هم فيها، فمنظرهم كالموج عندما يضطرب، وتختلط مياهه بعضها ببعض. وقد بدأ البيان من الله تعالى بكلمة ﴿وَتَرَكْنَا﴾ التي أعطت دلالة القدرة ودلالة الإرادة، ودلالة التنفيذ لما أراده سبحانه وتعالى، فأعطت بيان إرادة الله تعالى وقضائه وحكمه، بتصييرهم إلى حالة من الذهول ﴿بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ فصورت الحالة التي كانوا عليها وكأنك تنظر إليهم، لأنهم فقدوا المخرج، فلا يجدون مكاناً ينفذون منه إلى مبتغاهم. أو عند تهشم السد، أو عند هول يوم القيامة، مما يبين عاقبة

(١) ذكر الثلاث الحالات كتب التفسير، والتي منها: زاد المسير في علم التفسير (٥/١٣٦-١٣٧) والسعدي، تيسير الكريم الرحمن (٣/١٨٥) وغيرهما

(٢) الشوكاني، فتح القدير (٣/٣١٥)

الفساد والظلم. وفي استعارة الموج في الوصف ما يفيد شدة الاضطراب، من غير وعي منهم، مع شدة الفزع، وشدة الحيرة.

ثم يخبر الله تعالى عن حال يأجوج ومأجوج والناس عموماً يوم تظهر علامات يوم القيامة ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا﴾ ونُفِخ في الصور الذي هو القرن، وذلك للبعث الذي يجمع الله تعالى فيه الخلائق. والصور هو قرن ينفخ فيه، فعن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال (الصور: قرن ينفخ فيه)[١] فيجمع الله تعالى قبائل يأجوج ومأجوج جميعاً، فلا يتأخر أحد منهم. وهذا باعتبار أن السياق فيما سبق متعلق بيأجوج ومأجوج. ويجمع الخلائق جميعاً على اعتبار أنه عام للناس جميعاً، فلا يفلت منهم أحد أبداً، أولهم وآخرهم.

وقد ورد السياق بأسلوب التأكيد ﴿فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا﴾ فهو جمع متحقق، لن يتخلف أحد عنه. فكلمة ﴿جَمْعًا﴾ من قوله تعالى ﴿فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا﴾ تفيد تأكيد التحقق. بل ومن رحابة الدلالة لقوله تعالى ﴿فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا﴾ أنها على التخصيص وفق السياق. وهم يأجوج ومأجوج، ومع ذلك تستوفي الخلائق أجمعين، لما أخبر الله تعالى به، ومن ذلك ما ورد في سورة يس ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾﴾ وهذه الأوجه تدل على عمق النص الكريم وقوة وسعة رحابته، وعمق وإعجاز تراكيب كلماته بما استوعب به تلك الأوجه التي لا تناقض بينها في دلالتها الثلاث.

ثم يخبر الله تعالى بما سيكون من الحال يوم العرض والحساب ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَٰفِرِينَ عَرْضًا﴾ أي: أظهرنا جهنم للكافرين عموماً بالبروز والظهور حتى شاهدوها، ليروا سوء عاقبتهم. وهو بيان للواقع قبل أن يكون، وبصيغة الإخبار عن الحال والمصير، ليفيد الوعيد والتهديد والتحذير والترهيب، لعل المخاطبين يرجعون عن غيهم وكفرهم، وورد السياق بصورة الماضي لأمر قادم ﴿وَعَرَضْنَا﴾ ليفد التحقق، وليتصور الإنسان الموقف وكأنه قد حدث، لما في ذلك من الأثر على النفس والعقل. وفيه كذلك إظهار صورتها وإبرازها لهم قبل دخولها، بما يفيد تعجيل الاهتمام الذي يحمل الاتقاء منها بالطاعة والامتثال، مع إثارة مشاعر الحسرة، والحزن لتفريطهم في الحق، ولباسهم الكفر، والإصرار عليه، مع وضوح الحق بالدليل والبرهان. كما ورد البيان بأن

(١) أبوداود، سنن أبي داود (١٠٧/٥)

جهنم هي التي تُعرض عليهم، كما بينه بقوله صلى الله عليه وسلم (يُؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها)[1]

ثم ينتقل البيان الكريم إلى وصف أولئك الكافرين الذين تُعرض عليهم جهنم، بأنهم مستحقون لها، بإعراضهم عن طاعة الله تعالى ﴿ٱلَّذِينَ كَانَتۡ أَعۡيُنُهُمۡ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكۡرِي وَكَانُواْ لَا يَسۡتَطِيعُونَ سَمۡعًا﴾ فقد كان حالهم في الدنيا هو الإعراض عن طاعة الله تعالى ﴿ٱلَّذِينَ كَانَتۡ أَعۡيُنُهُمۡ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكۡرِي﴾ فأعينهم لا تنظر لآيات الله تعالى، فتتعظ بها، لأنهم جعلوا على أعينهم ما يمنعها من رؤية الحق، بغشاوة الباطل التي وضعوها عليها، وستروها من جميع النواحي، فلم يتركوا لها مجالاً لرؤية الحق، مما يفيد أن آيات الله تعالى إذا تمعن فيها الإنسان أدرك أن الله تعالى ربه وخالقه، وخاف عذابه، ورغب فيما عنده، فأطاعه، وأطاع رسوله صلى الله عليه وسلم. وكلمة ﴿غِطَآءٍ﴾ تعطي دلالة الامتناع عن الحق بستار شديد من جميع النواحي، فيحول بين العين وبين رؤية الحق، فقد كانوا متعمدين في التلبس بالامتناع وحجب أبصارهم عن رؤية الحق. وهذا الغطاء أبعدهم عن ذكر الله تعالى ﴿ٱلَّذِينَ كَانَتۡ أَعۡيُنُهُمۡ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكۡرِي﴾ وأُطلِق الذكر هنا، ليشمل كلما يذكرهم بالله تعالى، من الآيات الكونية المبثوثة في الكون، ومن آيات الله تعالى المقروءة من القرآن الكريم، ففاتهم الإيمان بالله تعالى وتوحيده. فلم يذكروا الله تعالى. مما يفيد أهمية استخدام الجوارح كالعين والأذن والفؤاد في التأمل والتدبر، وتسخيرها فيما يُرضي الله تعالى، وأنها وسيلة ونعمة امتن الله تعالى بها على العبد، وأن الإنسان لو نظر ببصره وبصيرته متأملاً في الكون لأدرك أن لهذا الكون خالق، وهو رب كل شيء ومالكه، وأنه لا يُعْبَدُ بحق سواه عَزَّ وجل.

وكان من صفة بُعدِهم عن الله تعالى أن اتصفوا بصفة ذميمة أخرى ﴿وَكَانُواْ لَا يَسۡتَطِيعُونَ سَمۡعًا﴾ فيمتنعون عن سماع كلام الله تعالى، فبسبب إصرارهم على الكفر، وكرههم للحق أنهم يمتنعون عن سماع الحق. وفي نفي استطاعتهم السمع ما يدل على قوة التمنع لديهم، وبغضهم للحق، وكراهتهم لسماعه، فلا يريدون سماعه، بما يفيد المبالغة في إعراضهم وتغافلهم إلى درجة أن أسماعهم لا تتحمل سماع الخير من الله تعالى، ومن رسوله صلى الله عليه وسلم. فكما أن المؤمن لا يتحمل سماع الباطل والنظر إليه، فهم لا يتحملون سماع الحق، والقرآن الكريم، وذكر الله تعالى. فهم في حالة الامتناع الشديد، فلذلك تُعرض عليهم جهنم جزاء وفاقا، ليروها قبل دخولهم فيها.

(١) مسلم، صحيح مسلم (٢١٨٤/٤) برقم (٢٨٤٢)

ثم يتدرج بيان الحق إلى سؤال استنكار، يستثير العقل نحو الحق، ويكشف الضلال الذي كانوا فيه، فيقول تبارك وتعالى ﴿ أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوۡلِيَآءَۚ إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا جَهَنَّمَ لِلۡكَٰفِرِينَ نُزُلٗا ﴾ أو يعتقد الذين كفروا من اتخاذهم بعض عبادي من الملائكة والأنبياء كالمسيح عيسى ابن مريم، وعزير، والصالحين شركاء لربهم، فيعبدونهم، ويزعمون أنهم أولياء لهم، بأنهم يعينونهم وينجوهم من عذاب الله عَزَّ وجل، ويمنحونهم ثوابه تبارك وتعالى. فهو سؤال للاستنكار على ما يعتقدون من غير دليل ولا برهان، بل إنهم يَكْذِبُون على الله تعالى، ويفترون عليه الكذب في عبادتهم، بما ينافي حقيقة التوحيد، والإفراد، فقد جمع الاستفهام بين الاستنكار لفعلهم وبين التوبيخ والتقريع. وأفادت ﴿ مِن دُونِىٓ ﴾ صفة القصور لتلك المعبودات، بأنها الأدنى، فكيف تتخذون الأدنى ولياً من دون الله تعالى. فهو وصف عظيم في تقرير حالة نكوسهم، وانحدار عقولهم.

ثم ذكر سبحانه وتعالى نتيجة هذا الحسبان الباطل، وما سيؤول به عليهم ﴿ إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا جَهَنَّمَ لِلۡكَٰفِرِينَ نُزُلٗا ﴾ إنا أعددنا وهيأنا جهنم مكاناً ومنزلاً للكافرين الذين جعلوا على أعينهم غشاوة، ويمتنعون عن سماع الحق من القرآن الكريم، وما جاء به الرسول الأمين صلى الله عليه وسلم. قال الزجاج رحمه الله تعالى: النُّزُل: المأوى والمنزل، وقيل: الذي يُعد للضيف، فيكون تهكماً بهم، والمعنى: أن جهنم معدة لهم عندنا كما يُعد النُّزُل للضيف[١]

ويتوجه الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم، لمخاطبة الناس بصيغة السؤال الذي يستثير العقول، ويبصرها بالحق والحقيقة ﴿ قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا ﴾ فقد ورد البيان الكريم بصيغة السؤال الذي يشد الانتباه والذهن للحقيقة ﴿ قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم ﴾ قل يا أيها النبي لهؤلاء الكافرين على سبيل التحذير والإنذار ﴿ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا ﴾ هل نخبركم بحقيقة الخاسرين لأعمالهم؟ وهو سؤال استفتاح للبيان، وليس انتظاراً لردهم، وقبولهم المعرفة أو لا، ولذلك ورد البيان مباشرة عقب السؤال، ليفيد أن ورود السؤال هو على سبيل شد الذهن، ولفت الانتباه للحقيقة، وكذلك للمقارنة بين ما هم عليه من الحسبان والظن وبين الحقيقة، ولذلك وردت الإجابة مباشرة.

ومن دقائق البيان أن كلمة الأخسرين ﴿ بِٱلۡأَخۡسَرِينَ ﴾ تفيد التفضيل، أي الأكثر خسارة من غيرهم، ليكون الغبن فيهم أشد من غيرهم، بل جاء ذكر أعمالهم بصيغة الجمع ﴿ أَعۡمَٰلًا ﴾ ليفيد كثرتها مع تنوعها، وهذا من دقائق البيان في الوصف، وإعجاز دقته المتناهية.

---

(١) الشوكاني، فتح القدير (٣/٣١٥)

ووردت الإجابة مباشرة بعد السؤال، بما يفيد أن عليكم أخذ العلم بما أنتم عليه، فاحذروا من مغبة حسبانكم وظنكم الذي سيرديكم جهنم وبئس المصير ﴿ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا ﴾ فإن الأخسرين أعمالاً هم ﴿ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا ﴾ أي: تاه وبطل واضمحل جميع الذي عملوه من الأعمال، فإن اجتهاداتهم في الدنيا قد باءت بالفساد، لأنها على غير صواب من الحق، بينما يعتقدون أنهم محسنون ﴿ وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا ﴾ وهم يعتقدون في حسبانهم واعتقادهم أنهم يُحسنون عملاً، وأنهم مقبولون ومحبوبون. وهذا جهل مركب من الفهم الخاطئ، مما يفيد أن الله تعالى لا يقبل الشرك، والكفر بأنواعه، وأن الأعمال المقبولة عنده سبحانه وتعالى هي ما كانت وفق ما جاء عنه عَزَّ وجل، وبينها رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، فالزيادة والنقص، والاستبدال والتغيير والتعديل في دين الله تعالى بأي وجه لا يقبله الله تعالى، مهما كان صلاح النية. فإن الشيطان والنفس الأمارة بالسوء قد تزين للإنسان سوء العمل، فيرى فيه الصلاح بالتأويل الفاسد، والفهم الناقص. فشريعة الله تعالى هي المنجية لمن تمسك بها، وأداها وفق ما شرعه الله تعالى. وفي هذا تحذير من البدع، ومن السير على غير شريعة الله تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم. مما يدل على أن هذا الدين هو دين قويم من الله تعالى. وكذلك فيه تحذير لمن يعمل وفق حساباته الخاطئة، بل إن العمدة في قبول العمل هو متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم.

ثم يخبر الله تعالى بالمزيد عن أولئك الذين كانت أعينهم وآذانهم في غطاء عن ذكره سبحانه وتعالى، واتخذوا من دونه أولياء من عباده ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَلَا نُقِيمُ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَزۡنٗا ﴾ فأولئك الذين تحقق لهم الخسران هم الأخسرون أعمالاً، فهم الذين جحدوا الآيات الكونية، والآيات القرآنية، وكذبوا بها، وأنكروها، وأنكروا لقاء ربهم تبارك وتعالى ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَلِقَآئِهِۦ ﴾ فأنكروا البعث بعد الموت، والحياة الآخرة ﴿ فَحَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ ﴾ فبسبب ذلك فسدت وبطلت تلك الأعمال من الخير، لأنه لم يتحقق شرطها، وهو الإيمان الكامل بالله وملائكته وكتبه ورسله، واليوم الآخر، والإخلاص لله تعالى في جميع أنواع العباد ﴿ فَلَا نُقِيمُ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَزۡنٗا ﴾ فإن هؤلاء مهانين يوم القيامة، ومخذولين، لا يُعبأ بهم، احتقاراً لهم، فيكونون في حالة الازدراء، فليس لهم ولا لأعمالهم قدراً وتكريماً، بل إنهم في مهانة من الحال. وقد ورد البيان من الله تعالى بنون العظمة ﴿ فَلَا نُقِيمُ ﴾ مقابل ما يحصلون عليه من الذل والمهانة.

ثم يخبر الله تعالى بالمزيد عن علة ذلك الجزاء الذي لحق بهم منه تبارك وتعالى ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمۡ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَرُسُلِي هُزُوًا﴾ فبدأ البيان الكريم باسم الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: الذي ذكرناه من أنواع الوعيد، فليس لهم وزن عند الله تعالى فأصبحوا بترك الوزن لا قيمة لهم، ولا لأعمالهم. وهو حبوط أعمالهم، واحتقار شأنهم ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمۡ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَرُسُلِي هُزُوًا﴾ فجزاؤهم الذي يستحقونه هو ﴿جَزَآؤُهُمۡ جَهَنَّمُ﴾ وسببه الأول: هو كفرهم ﴿بِمَا كَفَرُواْ﴾ والسبب الثاني: هو ﴿وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَرُسُلِي هُزُوًا﴾ استهزاؤهم وتنقصهم من آيات الله تعالى المتمثلة في الكتب المنزلة، وفي آياته الكونية التي يرونها في الكون، وكذلك تكذيبهم واستهزائهم بِرُسُل الله تعالى. مما يدل على أنهم لم يكتفوا بالكفر، بل امتد بهم أمرهم إلى السخرية من آيات الله تعالى، ومن رُسُل الله تعالى الذين جاؤوهم بالبينات الواضحات، فلحقتهم في الآخرة الذلة والمهانة المناسبة لاستهزائهم بآيات الله تعالى وبِرُسُلِه. وفي هذا الإخبار من الله العزيز الكريم العظيم ما يبين قصر الدنيا وانطوائها، وتحصيل النتيجة من رب العالمين حقيقة، وأنه أمر لا جدال ولا مراء فيه، وأن على الإنسان أن يحذر، وأن يكون راشداً ومهتدياً بهذا الهدى الواضح الجلي.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلًا ١٠٧ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلًا ١٠٨ قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدًا ١٠٩ قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا ١١٠﴾

بعد أن ذكر تبارك وتعالى حال الكافرين وجزاءهم، ينتقل السياق الكريم إلى جزاء المؤمنين المطيعين لله تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلًا﴾ إن الذين جمعوا بين رُكني وجناحي الدين، وهما الإيمان الكامل، وأداء فرائضه، فجمعوا بين أركان الايمان وأركان الإسلام ﴿كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلًا﴾ فلهم أعلى الجنة وأفضل منازلها ودرجاتها. وقد بدأت الآية الكريمة بحرف التوكيد ﴿إِنَّ﴾ الذي يؤكد حقيقة ما بعده، وقد شمل الإيمان جميع أركان الايمان، بأن يكون الايمان اعتقاداً جازماً بالقلب، ثم يصدقه العمل ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ ليتبين أن الصالحات عمل وأداء ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ وتشمل الصالحات عمل الجوارح بجميع ما تضمنه الدين من عبادات وأخلاق، ومن تشريع في أصوله وفروعه ﴿كَانَتۡ

﴿ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴾ فهؤلاء المتصفين بالإيمان وبالأعمال الصالحات ﴿ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴾ أي: لهم أعلى الجنة منزلاً ومستقراً أبدياً، وهي جنة الفردوس، لأن ﴿ نُزُلًا ﴾ كما قال قتادة رحمه الله تعالى: ربوة الجنة، وأوسطها وأفضلها[١] لأن الجنة درجات، والفردوس أعلاها. وذكر ابن كثير رحمه الله تعالى: أي ضيافة، فإن النزل الضيافة[٢]وهذه نعمة عظيمة دائمة على عمل مؤقت بحياة الإنسان في الدنيا، وعمل لا مشقة فيه عليه، وجزاؤها أعظم مما عمل الإنسان في الدنيا. فنسأل الله تعالى الثبات والفوز بأعلى جنة الفردوس.

ومن أُنْسِهم بجنة الفردوس منزلاً أنهم لا يرغبون بديلاً لها ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴾ فإنهم خالدين فيها، بدوامهم الذي لا يتحولون عنه أبداً ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا ﴾ خلوداً أبدياً، إذ اتصف حال الفائزين بها، أنهم لا يرغبون بغيرها، لأنهم في أحسن مما يشتهون ويتمنون. ومن تمام وكمال نعمة الجنة ونعيمها أن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لا يشتهون ولا يريدون غيرها ﴿ لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴾ لا يتمنون ولا يرغبون أن يتحولوا عنها لغيرها، فهي كمال مناهم، وكمال مشتهاهم ومبتغاهم، لتعبر عن كمال السعادة، لأن الإنسان في الدنيا كلما حصل على ما يتمناه اشتاقت نفسه لغيره، لوجود النقص في كل شيء، وأما الجنة ففيها الكمال والتمام الذي تمتلئ النفس به سعادة وأنساً. ونسأل الله تعالى أعلى جنة الفردوس.

ثم يُخبر الله تعالى عن كمال قدرته، وعظيم سلطانه على مخلوقاته، وسرعة مبادرة مخلوقاته في طاعته عَزَّ وجل ﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴾ فقل يا أيها الرسول للمُخَاطَبِين أن من عظمة الله تعالى وكمال سلطانه أنه ﴿ لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى ﴾ فلو كان ماء البحر مداداً لما يُكتب به كلمات ربي وحكمه لفني وانتهى ماء البحر قبل أن يفرغ من كتابة ذلك. فلو كان البحر حبراً للأقلام التي يُكتب بها كلام الله تبارك وتعالى لفنى وانتهى ماء البحر قبل أن يفرغ من كتابة كلمات الله تعالى التي لا تنتهي، لأن البحار تنتهي وكلام الله تعالى وأحكامه لا تنتهي، وكلمة نفد ﴿ لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى ﴾ تفيد الانتهاء ﴿ وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴾ ولو أتينا بمثل البحر السابق بحراً آخر، ويتلوه غيره من البحار في تعاقب لا ينتهي ﴿ وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴾ فإن كلمات الله تعالى لا تنتهي، لأن المدد هو التعاقب في الزيادة، وهو مجيء الشيء بعد الشيء. وورد

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٤٣١/١٥)

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١١٣/٣)

البيان هنا على سبيل التعاقب غير المنقطع. فكلمات الله تبارك وتعالى باقية ومتعاقبة لا تنتهي، وقائمة لا تنقطع، ولا تفنى لسعة علمه وعظيم حكمته وتدبيره، وكمال أمره ونفاده جَلَّ في علاه. مما يفيد ويبين أن علم الله تعالى وحكمته لا تنتهي، وفيه كذلك كمال الطاعة، والمسابقة في التنفيذ، وقوة سلطان الله تعالى على خلقه، وكمال قدرته، وفيه إثبات الكلام لله سبحانه وتعالى. وفيه بيان شمول علم الله تعالى، وأن كل شيء يسير ويحدث في الكون بمشيئته عَزَّ في علاه، فما شاء تبارك وتعالى كان، وما لم يشأ لا يكون أبداً، إلا من بعد أن يشاء الله عَزَّ وجل ويرضى. وفيه تقريب الفهم للعباد بما يدركونه ويفهمونه.

ويختم الله تبارك وتعالى سورة الكهف العظيمة بقوله عَزَّ وجل في مخاطبةٍ لنبيه صلى الله عليه وسلم بما يقوله للناس ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾ قل إنما أنا مثلكم من البشر، غير أن الله تبارك وتعالى يُوحِي إليَّ. وابتدأ التوجيه الكريم بكلمة ﴿ قُلْ ﴾ التي أفادت الأمر المقتضي للوجوب، بأن يُعَرِّف الناسَ بحقيقة شأنه، من خلال ما بينه الله تبارك وتعالى، وهو ﴿ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ فإنني إنسان من البشر، كما أنكم بشر، فإنني مثلكم في خصيصة الجنس البشري، فلا أختلف عنكم، ولا أدَّعي غير ذلك، بل جاء البيان بصيغة الحصر ﴿ إِنَّمَآ ﴾ التي قصر البيان له فيها على بشريته صلى الله عليه وسلم عند التعريف بنفسه عليه الصلاة والسلام، فلا يتجاوزها ولا يتخطاها إلى ما عداها من أنه مَلَك، ولا أدَّعي علم الغيب، ولا الإحاطة بما أحاط الله تعالى به من العلم والقدرة، ولا شراكة لي في ملك الله تعالى. فأثبت للناس عموماً المماثلة لهم في البشرية، بما ينفي التميز عنهم بأي ميزة تخالف صفة البشر، وفي هذا الابتداء ما يثير ويبين التواضع في مطلع التعريف الذي عَرَّفَ الله تعالى به نبيه ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم، وموافقة الحقيقة التي لا تجاوز فيها.

ثم ينتقل به التعريف إلى ما خَصَّه الله تعالى به ﴿ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ ﴾ فالفرق فيما خصني الله تعالى به هو الوحي إليَّ من لدنه تبارك وتعالى، فلست أنا الذي استمد هذا من نفسي، بل إن الله تعالى هو الذي اختارني من بين عباده بالوحي. مما يستوجب عليكم التصديق برسوله، وطاعته، لأنه يبلغكم بما بلغه به ربكم تبارك وتعالى. وبالرغم من أن النص الكريم، يُثبت بشرية الرسول صلى الله عليه وسلم، وينفي أي صفة تخالف صفة البشر، فإنه أثبت له منزلة وكرامة الاصطفاء صلى الله عليه وسلم من ربه تبارك وتعالى، واختاره من بين جميع البشر نبياً ورسولاً، صلى الله عليه وسلم، وأنه هو المبلغ عن الله تعالى ما يأمره به عَزَّ وجل، وكفى بذلك شرفاً ومنزلة.

وأول ما يبلغهم به صلى الله عليه وسلم هو توحيد الله تعالى، وإفراده بالعبادة. فيخبرهم عليه الصلاة والسلام بأنه يُوحَى إليه بأن ربكم إله واحد ﴿ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ فأوحى إليَّ ربِّي وربكم، وإلهكم

وخالقكم الذي أوجدكم، ويميتكم، ويحيكم بعد موتكم هو الله تعالى، المتصف بالوحدانية ﴿إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ ليس له شريك أبداً، فيقرر بذلك بطلان كل من اتخذ شريكاً لله تعالى في الخلق أو الملك أو العبادة. بل جاء البيان بأداة الحصر والقصر ﴿أَنَّمَآ﴾ التي قصرت وحصرت الألوهية في أنه عَزَّ وجل إله واحد، وهو الله سبحانه وتعالى ﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ مما يستوجب عليكم إيها الناس أن تُفرِدُوا الله تعالى بالطاعة والعبادة، وتخلصوا له وحده لا شريك له، وأن تُطيعوه فيما أمركم به، وتنتهوا عما نهاكم عنه، وأن تتبعوا رسوله صلى الله عليه وسلم. وفي هذا نفي وردٌّ على من اتهم الرسول صلى الله عليه وسلم بالسحر والكهانة والكذب والشعر، وعلى كل صفة منافية للإيحاء بالوحي من الله تعالى.

وبعد أن أوضح البيان الكريم لهم حقيقة التوحيد، وإفراد الله تعالى بالألوهية ينتقل البيان إلى ما يقوله صلى الله عليه وسلم للناس فيما يجب أن يكون منهم ﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾ وبدأ النص الكريم بحرف ﴿فَمَن﴾ التي تفيد مع ما بعدها التخيير، الذي يستثير التأمل فيما يختار المخاطبون مما يعْرِضُه عليهم وهو ﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾ فالذي منكم يأمل ويطلب ويرغب في لقاء الله تعالى، وهو مؤمن به، وبما عنده، فيلزمه الإتيان بأمرين: الأول ﴿فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا﴾ وهو ما دلت عليه الشريعة، وبينته من الأوامر والنواهي، من الواجبات والمستحبات، فليستجيب لله تعالى بكل ما أمر، وينتهي عما نهى عنه. وفي تخصيص العمل الصالح ﴿فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا﴾ ما يفيد الانتهاء عن العمل غير الصالح، من المعاصي، لأن المسلم كلما اجتهد في عمل الصالحات، ابتعد عن السيئات. ومن جميل البيان: التعميم في العمل الصالح، فلم يخصه في نوع محدد، ليشمل الأركان والواجبات والمستحبات من السنن وفروعها، وما يتعلق بهم من مكارم الأخلاق وجميل المعاملات. فجمعت كل ما يحبه الله تعالى ويرضاه عَزَّ وجل.

والثاني ﴿وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾ ويتجرد من الشرك، والرياء في العمل الصالح الذي يقوم به ويؤديه لله تبارك وتعالى، بأن يكون خالصاً له وحده لا شريك له. وبهذا يقطع جميع أنواع الشرك. وبالتالي يُفهم من ذلك أنه من لم يكن له إيمان يرجو به لقاء الله تعالى، فإنه سيجد جزاءه وحسابه عند ربه عَزَّ وجل. وفي اقتصار النص الكريم على من أراد الحق، ما يفيد تجاهل من أصر على الكفر، وأن كفرهم ليس له أثر ولا ضرر على الإسلام، وليس لهم وزن عند الله تعالى. وفي ذلك غاية التوجيه والبيان، وغاية التحذير من الشرك وعموم الكفر.

تم بحمد الله إتمام سورة الكهف، ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم، وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم. واجعله عملاً متقبلاً ونافعاً يا رب العالمين. والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد، وعلى آله وصحابته أجمعين.